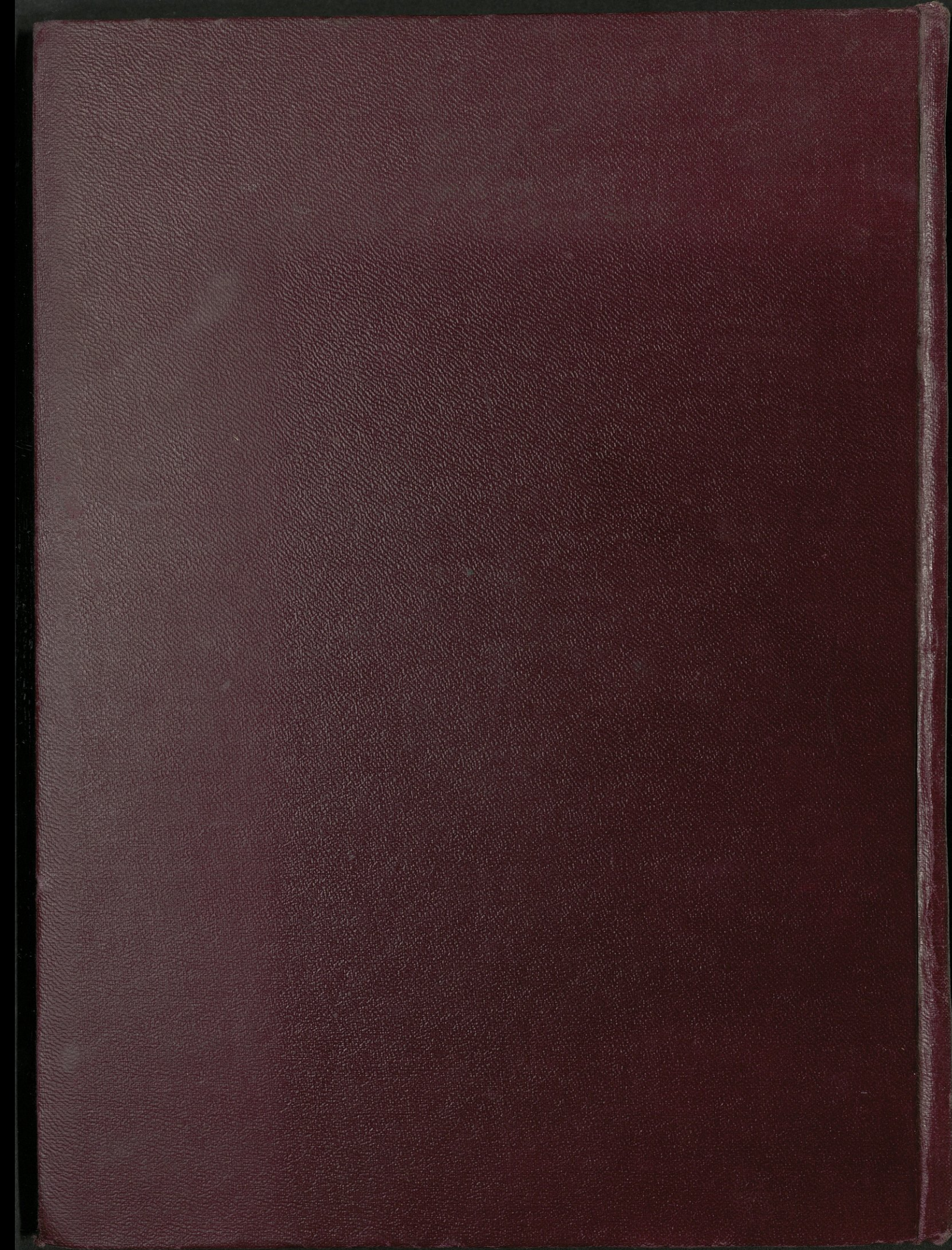
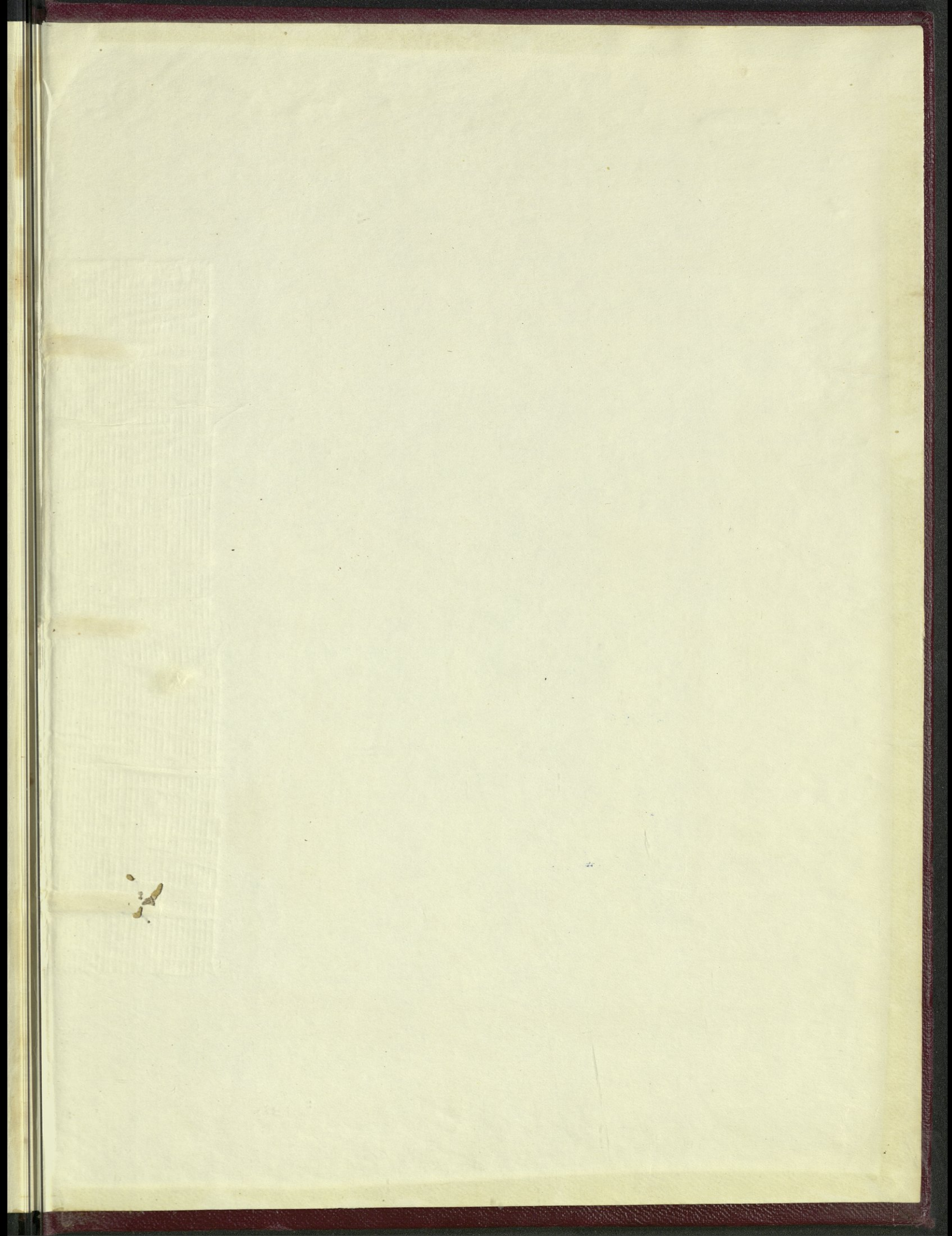
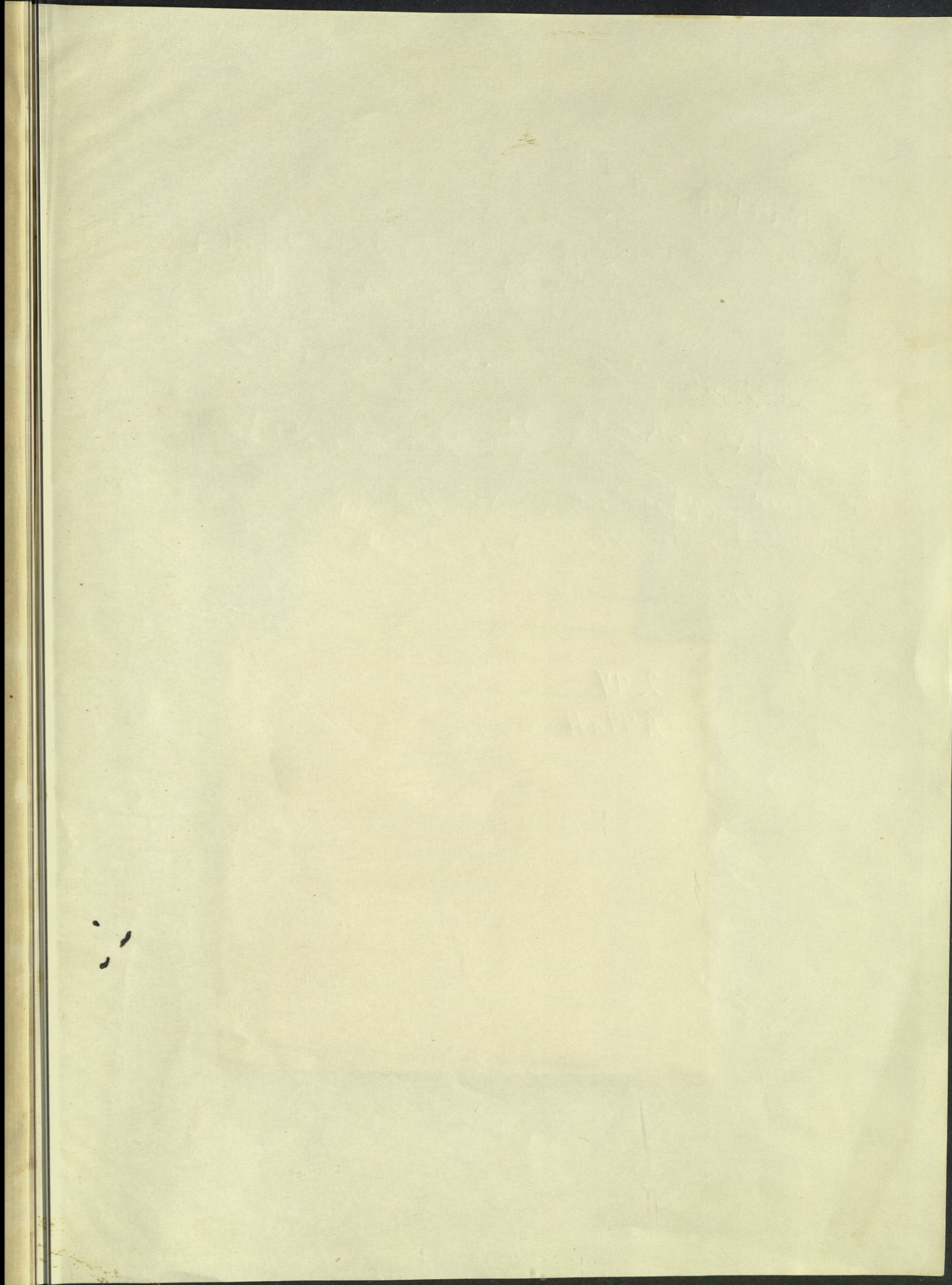










297
A991rA
1946
c.1

الرسالة الخالدة

بحث في رسالة الله الواحدة الخالدة
على مدى الزمان ، واقتباس من هداها
في الاجتماع والسياسة والحرب والسلام
والعلاقات الدولية ، لإزالة أسباب
الاضطراب العالمي ، وإمداد الحضارة بسند
روحي وإقامة نظام عالمي جديد .

بقلم

عبد الرحمن عزام

الأمين العام لجامعة الدول العربية

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م



قضايا اجتماعية

تمت الطبعة الثانية في دار النشر
لأستاذ في الحقوق والعلوم
بجامعة القاهرة

[الطبعة الأولى]

[جميع الحقوق محفوظة للمؤلف]

دار النشر
القاهرة

الطبعة الأولى في دار النشر

دار النشر
القاهرة

الطبعة الأولى في دار النشر

فهرس الكتاب

تقديم

١ - في أصول الدعوة

ط

تمهيد

تاريخ يتصل ١ - شهادة الزمان والتجربة ٢ - حق من السماء أو من الأرض ٣

الدرع الممان

٤

الإيمان بالله الواحد

٥

أصل الأصول ٥ - الدين فطرى ٦ - البحث عن الله ٦ - قصة إله بشرى ٧ - التوحيد أعظم أسس الدعوة المحمدية ٨ - التسامح هو السبيل إلى الوحدة العالمية ٩ - دين واحد وأمة واحدة ١٠

آثار التوحيد

١١

التوحيد روح الدين ١١ - هو أساس الانتساب والاعتبار الشخصى ١١ - الشرك سبب لإهدار كرامة المشرى وشخصيته ١٢ - أخوة عامة فى الله ١٣ - الشرك طارىء على الفطرة ١٣ - وكر الحرافات والأباطيل ١٣ - باعث الظلم والاستبداد ١٤ - آثار التوحيد فى تركية النفس ١٤ - التوحيد سر حكومة الوجدان ١٥ - التلازم بين التوحيد وصلاح الفكر والحياة ١٦ - أثر التوحيد فى تحرير العقل وسمو الحضارة ١٧ - لا احتجاج بالواقع السيئ ١٨

الإحسان

١٩

رديف الإيمان ١٩ - تنظيم دقيق لقواعد الحياة وأسايلها ١٩ - أثر سريع لتطبيق نظم الإحسان ٢٠ - الرحمة والإخاء أساس الإحسان ٢١ - أساس العمران ٢٢ - دفاع لا بد منه عن رحمة الأتراك ٢٢ - أمثال شعبية تشهد لهم ٢٣ - أثرهم فى زوال عهد الإقطاع من أرض الملداف والبولونيين ٢٣ - موقف عظيم لشيخ الإسلام فى عهد السلطان سليم ٢٤ - رحمة الحيوان ٢٤ - حكايات عن الرحمة ٢٥

الإخاء

٢٦

آية هى دستور الإخاء البشرى ٢٦ - تصوير مجيب لموقع البر لدى الله ٢٦ - تهديد شديد لنوى القسوة والبخل ٢٧ - قدماء العرب وفهم الإخاء والمساواة ٢٧ - إخاء شامل بين المسلمين وأهل الكتاب ٢٩ - الإخاء معجزة الإسلام ٢٩ - بقايا الإخاء فى العالم الإسلامى ٢٩ - ذكرى إخاء فى ألبانيا ٣٠ - إخاء ليس له نظير ٣١

٢ - في الإصلاح الاجتماعي

٣٤

التطهير الخلفي للفرد

نموذج الإنسان الكامل ٣٤ - أثر القدوة العملية ٣٥ - العقيدة وأثرها في التوجيه للخير ٣٥ - سليمان ابن عبد الملك وأبو حازم ٣٦ - التاجر الناصح الزاهد ٢٧ - نظرة عمرية لحقيقة الإصلاح ٣٨

٣٩

التكافل

أمة واحدة ٣٩ - جماعة المسلمين تقوم على التكافل ٣٩ - مسئولية الفرد والجماعة ٣٩ - إيقاظ ضمير الفرد وضمير الجماعة ٤٠ - حراسة الرأي العام ٤١ - عزائم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٤٢ - العلاج بالتشريع ٤٣ - مرد الإصلاح عامة إلى الإحسان ٤٤ - تكافل المهاجرين والأنصار ٤٥ - مثل من التكافل في قبائل الطوارق ٤٥

٤٧

البر

كلمة جامعة ٤٧ - نظرة الإسلام إلى مشكلة الفقر ٤٨ - الفقر لعله والفقر لفقد الوسيلة ٤٨ - العمل هو الأصل ٤٨ - مطاردة الترف والبيؤس ٤٨ - القانون والضمير ٤٩ - اشتراكية أبي ذر ٤٩ - محاربة الترف والاكتناز والربا ٤٩ - سلطات واسعة لولي الأمر ٥١ - المساواة عقيدة وخلق ونظام ٥١ - الأشكال والمظاهر ليست غاية في الحكم ٥٣ - حق الفقير حق الله ٥٤ - فلننظم البر على أسس الإسلام ٥٥

٥٦

العدالة والمحربة

صور جاهلية ٥٦ - العالم بين الفرس والرومان ٥٦ - تحطيم القيود وإزالة الفوارق ٥٨ - مبادئ في السياسة وعقائد في الدين ٥٨ - خليفة يبيع في الأسواق ٥٨ - خليفة يلبس المرقع ٥٩ - فجر العدالة الدولية ٦٠ - ميزان الخليفة ٦٠ - ميزان الشريعة ٦٠ - كفالة الحريات ٦١ - الدفاع عن الحريات ٦٢

٣ - في العلاقات الدولية

٦٤

الدولة الإسلامية الأولى وعملها

من تاريخ علاقات المسلمين بالمناهضين للإسلام ٦٤ - أول معاهدة دولية بين المسلمين واليهود والمشركون ٦٥ - دستور الدولة الحمدي ٦٩ - نموذج قديم لعصبة الأمم ٦٩ - الإذن بالحرب الدفاعية ٧٠ - حرب الأغراض السامية ٧٠ - تنظيم علاقات الشر خير ٧١

٧٢

الحرب المشروعة

تحديد أسباب الحرب وأغراضها ٧٢ - الحرب الدفاعية هي المباحة ٧٣ - وصايا وتحميس إذا وقعت الحرب ٧٣ - الإسلام دين محلي ٧٤ - فريضة الجهاد على المسلم والمسلمة ٧٥ - الحرب الهجومية لا يبيحها الإسلام ٧٦ - الحرب لأغراض مادية غير مشروعة ٧٦ - ضرورة تقدر بقدرها ٧٧ - الضعف والنل ظلم للنفس ٧٨

٧٩

الحرب لنصرة المظلوم

مبدأ شريف في الجاهلية والإسلام ٧٩ - قصة حلف الفضول ٧٩ - حلف مرغوب فيه دائماً ٨٠ - لاتتحالف في الإثم والعدوان ٨١ - حرب أخرى مشروعة ٨١ - حلف جاهلي آخر يجدد بروح إسلامية ٨٢

المسيحية والحرب ٨٣ — اختلاف المسيحيين ٨٤ — الحرب العادلة عند بعض المسيحيين ٨٤ — لجوء المسيحيين إلى شبيه بالنظرية الإسلامية ٨٥ — نصره المظلوم ضرب من التكافل ٨٦

٨٧

أوب الحرب

الحرب والرق والقضاء عليهما تدريجياً ٨٨ — أدب عام وأدب خاص ٨٨ — الإنذار ٨٨ — حماية حقوق المستأمن المنتسب للعدو ٨٩ — من سماحة الفقهاء ٨٩ — لطيفة بين واصل بن عطاء والحوارج ٨٩ — مسألة غير الحاربيين ٩٠ — الغارات العصرية على الأمنين ٩٢ — فرار إلى أخلاق الرحمة في الأديان ٩٢ — التخريب القاسي ٩٢ — حوادث ونصوص ٩٣ — نظرات في أحكام الأسر والاسترقاق ٩٤ — لاقتل لعله الشرك أو الكفر وحدها ٩٤ — أدلة العقل ٩٥ — أدلة التاريخ ٩٥ — احترام للنفس البشرية بدون تخصيص ٩٦ — آداب أخرى للحرب ٩٦

٩٧

السلم الدائمة

السلم الدائمة والحرب طارئة ٩٧ — دفع تهم وأوهام ٩٧ — أسباب اضطراب السلام ٩٨ — نصوص في تدعيم حياة السلام ٩٨ — روح سلمية واحدة في مكة والمدينة ١٠٠ — شهادة الأجانب ١٠١ — شهادة التاريخ ١٠١

١٠٣

العهود والمواثيق

المسلم والمعاهد ومن لا عهد له ١٠٣ — رأى في مسألة التخيير بين الإسلام أو الجزية أو السيف ١٠٤ — السلم بين المؤمنين ١٠٥ — الإسلام وطن المسلم ١٠٥ — لا إقليمية في الإسلام ١٠٥ — عالمية شاملة ١٠٦ — يسمى بذمتهم أديانهم ١٠٦ — أخوة الذمة والعهد ١٠٦ — حقوق الذمي وواجباته ١٠٧ — غنمه أكثر من غرمه ١٠٧ — بين الذمة الإسلامية ونظام الحماية الحديثة ١٠٨ — الاستعمار الحديث لا يعرفه الإسلام ١٠٨ — كفالة الله وشهادته على العهود ١٠٩ — الذمي في كفالة الإسلام أينما كان في بلد إسلامي ١٠٩ — عهود الأمان وتبادل المنافع ١٠٩ — من وصايا الراشدين ١٠٩ — إلى الأخوة والوفاء ١١٠ — حق واحد للغالب ١١٠ — موجبات الصلح ١١١ — من حرب ١١٧٠ إلى حرب ١٩٣٩، ١١١ — حرمة العهود فوق صلة الدين ١١٢ — عهد يعاهد وخليفة يقر عهده ١١٣ — امرأة تخير والرسول يقر جوارها ١١٣ — كرامة الفرد ١١٣ — مثل رائع لاحترام كلمة لم تكتب ١١٣ — متى يجوز نقض العهد ١١٥

٤ — في أسباب الاضطراب العالمي

١١٨

الاستعمار

إثارة الرغبة في بحث شامل ١١٨ — مقاتلون ومحايدون ١١٨ — الأسباب الأساسية للاضطراب ١١٩ — الاستعمار أو الخراب ١٢٠ — فرائسه هي فرائسه ١٢٠ — الاستعمار سراب ١٢٠ — سبب الحروب في القرنين الأخيرين ١٢٠ — شر على الغالب ١٢١ — شر على المغلوب ١٢١ — آثاره في الغرب ١٢١ — وفي الشرق ١٢١ — محاولات لالتباس المخرج ١٢٢ — التضحية بالاستعمار لتجاة الحضارة ١٢٢ — الدعوة المحمدية تنكره ١٢٢ — لاجئة على الإسلام إلا من نصوصه وسننه ١٢٣

١٢٤

نزاع الطبقات

التفاوت قديماً وحديثاً ١٢٤ — أمثلة من التاريخ العالمي ١٢٤ — التعقيد العصري في المذاهب والدعوات ١٢٥ — من آثار البخار والكهرباء ١٢٦ — الرأسمالية والعالمية ١٢٦ — في الدول الشيوعية والنازية والفاشية والديمقراطية ١٢٧ — البساطة الإسلامية في معالجة مشكلات المال ١٢٧ — المبدأ ثابت والتنفيذ مرن ١٢٨ — الفرع مع المصلحة ١٢٨ — مثلاً رائعان من حرية تصرف الدولة حسب الظروف ١٢٩ — أكبر مهام

الدولة ١٣٠ — لا خصومة ولا نزاع متى خلصت النيات لله ١٣٠ — الإيمان هو الحارس الأول على المصلحة ١٣١ —
لزام السطان بمنع نزاع الطبقات وبالتأمين الاجتماعي ١٣٢ — العنصر الروحي التهذيبي ١٣٢ — محاربة الترف
والبلذخ ١٣٤ — الرسول الزاهد ١٣٤ — المتاع الروحي أبقي ١٣٥ — جمع بين المصحف والسيف ١٣٦

١٣٧

الترغبات العنصرية والوطنية

العنصرية قديماً وحديثاً ١٣٧ — الوطنية والقومية الحادة عصبية حديثة ١٣٨ — أثر التشدد في الحدود
الجغرافية والجنسية ١٣٩ — انتقال العصبية الحادة إلى الشرق ١٣٩ — نظريات اختلاف الدم ١٤٠ —
أضرار الهجرة الإجبارية ١٤٠ — بارود الحروب الحديثة ١٤٠ — الإسلام لا يعرف وثنية العنصر والوطن
١٤١ — وضع العلاقات البشرية على أساس معنى ١٤٢ — خلاف أخف من خلاف ١٤٢ — القوة ليست
وسيلة الإسلام لتحقيق أهدافه ١٤٣ — لاسيادة ولا عبودية ١٤٣

١٤٤

هزيمة القوى المعنوية

السيطرة على المادة وأثرها في طفانيان المادية ١٤٤ — سرعة التطور المادي وبطء التطور الروحي ١٤٥ —
تباعد الفروق بين الناس تبعاً لحظوظهم من العلم المادي ١٤٥ — بلبلة وشتات وتناكر ١٤٦ — ضرورة التوفيق
السريع بين الروح والمادة ١٤٦ — نعم تستحيل إلى نعم ١٤٧ — جرائم ترتكب باسم الحريات ١٤٧ — لا بد
من ضوابط أدبية قبل السكارة الكبرى ١٤٨ — توفيق الإسلام بين الحيائين ١٤٨ — مدنيتنا تتعظم من
في ربع قرن ١٤٨ — أنعمير للتخريب؟ ١٤٩ — فلنرجع إلى منابع الهدى والرحمة في الأديان ١٤٩ —
تصوير للحرب تسخر منه العقول ١٤٩ — أجهالات في مكان الكمالات؟ ١٥٠ — أفلح من زكاهها ١٥٠

١٥١

ثالث الفسار

آثار الثالث في حياة الأفراد ١٥١ — فلسفة سياسية خطيرة ١٥١ — آية قرآنية يفخر بها المسلمون ١٥١ —
تشبيه بليغ ١٥٢ — نصوص وحوادث ١٥٢ — الغدر غير الخدعة في الحرب ١٥٤ — قبح الغدر حتى بين الأشقياء
١٥٤ — الله لا يهدي كيد الخائنين ١٥٤ — الكذب والنفاق في السياسة ١٥٥ — الميكانيكية ينسكرها
الاسلام ١٥٥ — سياسة الوضوح ١٥٥ — صفتان أدناً من الكفر ١٥٦ — أسماء على غير مسمياتها ١٤٦

٥ — في البحث عن سند روحي للحضارة

١٦٠

الوصاية على الحضارة لأرقوى أم لأرقى؟

الشملة المنقلة بين الأجناس ١٦٠ — قصور (علم الإنسان) ١٦١ — أدوار الحضارة ومن مثلوها ١٦١ — من
(علم الإنسان) ١٦٢ — الفروق البدنية لا تكفي الحضارة ١٦٢ — المدنية ليست اختصاصاً لقوم وحدهم ١٦٣ —
هي أثر للحالات النفسية ١٦٣ — قانون قرآني ١٦٤ — مساواة تامة بين الأرواح البشرية ١٦٤ — وحدة
التكليف الديني ومغزاها ١٦٤ — دعوى هي أصل الاستبداد والتفاوت ١٦٥ — ميراث النفس الطيبة ١٦٥

١٦٦

قيام المدنية ودواصرها

مداولة الأيام بين الناس ١٦٦ — التفسير المادي للتاريخ ١٦٦ — التفسير العنصري للتاريخ ١٦٧ — مناقشة
التفسيرين ١٦٧ — التفسير الروحي ١٦٨ — من القرآن ١٦٨ — بارود القذيفة ١٦٩ — ساعة الفصل بين التقدم
والتأخر ١٦٩ — نظرة تشاؤم إلى المدنية الحاضرة ١٦٩ — بين المدنية والحق ١٦٩ — الانهيار المفجائي ١٧٠ —
عوامل فناء المدنيات ١٧٠ — الترف ١٧٠ — الضعف عن حمل أمانات الحضارة ١٧١ — هل جاء وعد الله؟ ١٧١

نظام جدير للمعالم

صوت مع أصوات الدعاة ١٧٣ — فلنشعر من النظريات القديمة ١٧٣ — المدنية في رأي (كلنج) ١٧٤ —
وطأة العيش في عصور الانتقال ١٧٥ — هل نستطيع نحن وضع نظام للمستقبل ؟ ١٧٥ — ماذا بين أب جاهل
وابن عالم ؟ ١٧٥ — بين جاهل معاصر وجده الفرعوني ١٧٦ — لنحذر عقوبة الغرور ١٧٦ — إلى نظام سلمي
مؤقت ١٧٦ — لا أمل في شيوخ السياسة والعامة . الأمل في القدرة العليا وفي مرونة الطبيعة الإنسانية ١٧٧ —
فلنؤجل النظم المثالية المحرودة ١٧٧ — من تاريخ الاصطدام بين المثل العليا والواقع السيء ١٧٨

الواجب قبل الحق

شغل المفكرين في العالم ١٨٠ — جمعية إنجليزية تضع دستوراً لحقوق الإنسان ١٨٠ — استفتاء عظيمين
من مفكرى الشرق ١٨١ — رأي غاندى ١٨١ — غضب ويلز على غاندى ١٨١ — رأي نهرو ١٨١ —
مع غاندى ١٨٢ — فلنجرب طريقة غاندى ١٨٢ — طريقة مجربة في الإصلاح ١٨٣ — تحويل التصور البشرى
١٨٣ — لإعلاء الفرائض وتحويلها ١٨٤ — تربية يطرد بها روح الأديان ١٨٥

علل النظام الحالي

إجماع على فساد الرأسمالية ١٨٦ — خطر رأسمالية الآلة ١٨٦ — الآلات بركات كثيرة اللغات ١٨٧ —
مادية لا سند لها من الروح ١٨٧ — مشكلة التعطل في الأمم الرأسمالية ١٨٧ — رجال الكنيسة الإنجيلية يتحولون
إلى اليسار ١٨٧ — إلى التوازن الإسلامى ١٨٨ — الاستثمار الحديث ١٨٨ — ويلات عالمية ١٨٩ — شاهد
حق ١٨٩ — شاهد من العالم الجديد ١٩٠ .

مقررات

البدء بتقرير قواعد بسيطة ١٩١ — تطوره الرأسمالية والاستثمار واجب ١٩١ — عالم واحد لا تتجزأ السلم
فيه ١٩١ — هيئة عليا عالمية لقيادة مشتركة ١٩٢ — التدرج إلى حكومة عالمية ١٩٢ — البدء في قلوب الطفولة
١٩٢ — من التربية القومية إلى التربية العالمية ١٩٢ — التدريب على الغضب للمصلحة العالمية ١٩٣ — فلنتعهد
النواة الصالحة في هيئة الأمم المتحدة ١٩٤ .

٦ — في انتشار الدعوة

١٩٦ — انتشار الدعوة في الوثنيين

شهرة باطلة ١٩٦ — خلط بين انتشار الدعوة وامتداد الدولة ١٩٦ — فتح مكة بجيش المطرودين ١٩٦ —
الدعوة السرية والجهرية ١٩٧ — مشروعية الدفاع عن النفس ١٩٧ — الموقف في الحديبية يشهد ١٩٨ — تاريخ
الدعوة هو تاريخ الصبر والمقاومة ١٩٨ الموقف في خارج الجزيرة ١٩٩ — رواية السكولونيل بيك ١٩٩ —
فنتة واعتداء ١٩٩ — تجمع وتهديد ٢٠٠ — مع الروم في شرق الأردن (مؤتة) ٢٠٠ — دليل فذ من
أدلة التسامح الإسلامى ٢٠١ — فتح مكة ٢٠١ — لم يكن مفر من تحكيم السيف في فتحها ٢٠١ — الغرض من
فتحها ٢٠٢ — صورة من التسامح المحمدى ٢٠٢ — دليل على انهيار النظام الجاهلى ٢٠٣ — الفتح السلمى قبل
الفتح الحربى ٢٠٣ — دليل من إسلام أبى سفيان زعيم المشركين ٢٠٣ — الوفود تتوالى من الجزيرة باختيارها
على الرسول ٢٠٤ — الخدمة الوحيدة التى أداها السيف للإسلام ٢٠٤ — أيباع الدين بدرام معدودات ! ٢٠٤ —
مفارقات ٢٠٥ — ما بعث الله محمداً جانياً ٢٠٥ — قصة تكشف عن روح عصرها ٢٠٥

خطأ مطبعي وتصويبه

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣٤	٢	فلن لانجد	فلن نجد
٣٩	١٩	ولذلك كره الإسلام	ولذلك كره الإسلام للفرد أن يتوحد ويعتزل ويشرد عن المجتمع وينكر الصلة بينه وبين غيره حتى لقد كره الإسلام ذلك في العبادة
٤٨	١١	وفي أموالهم حق معلوم	والذين في أموالهم حق معلوم
٢١	هامش	خير تنظيم علاقات الشر	تنظيم علاقات الشر خير
٧٣	١٠		صواب الآية « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير . وصدد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا »
١٣٥	٣	أسيد	أسيد
١٥٠	٥	أم كتم	أم كتم
١٥٣	١	واقعة بعد	واقعة بدر بعد
١٥٥	١٠	ندعى	ندعى
١٩٨	٦	القليب	القليب
١٩٩	١١	عُمان	عُمان
١٩٩	٢١	شُر حَيْبِل	شُر حَيْبِل
٢١٤	٨	أهم	هم
٢١٧	هامش	لصلاح الدين	بصلاح الدين
٢١٧	»	كثيرون أمراء	أمراء كثيرون
٢٢٥	٢	Mzarabe	Muzarabe

فہرست صحائف و جلدات

صفحہ	جلد	العنوان	توضیحات
34	2	تاریخ کان	تاریخ کان
17	11	مکاتیب کمالہ و مکاتیب کمالہ	مکاتیب کمالہ و مکاتیب کمالہ
		تعلیمات کمالہ	تعلیمات کمالہ
83	11	وہبہ زہدہ و ہدایہ زہدہ	وہبہ زہدہ و ہدایہ زہدہ
17	شمالہ	مکاتیب کمالہ و مکاتیب کمالہ	مکاتیب کمالہ و مکاتیب کمالہ
27	11		تاریخ کان
			تاریخ کان
041	4	تاریخ کان	تاریخ کان
061	5	تاریخ کان	تاریخ کان
401	1	تاریخ کان	تاریخ کان
001	01	تاریخ کان	تاریخ کان
881	1	تاریخ کان	تاریخ کان
111	11	تاریخ کان	تاریخ کان
111	11	تاریخ کان	تاریخ کان
317	8	تاریخ کان	تاریخ کان
717	شمالہ	تاریخ کان	تاریخ کان
717	8	تاریخ کان	تاریخ کان
017	4	تاریخ کان	تاریخ کان

تقديم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى لمحل رسالته وأداء أمانته .

إن هذا الكتاب وليد المصادفة ، فلم يكن تأليفه مقصوداً ، وإنما دعا إلى تناول موضوعاته حالة الشدوذ والاضطراب التي سادت العالم أثناء الحرب الأخيرة ، والرغبة في الكشف عن أسباب هذا الاضطراب العالمي ، ومحاولة إيجاد علاج له بعد أن تبين أن هذا العلاج غير ميسور في هدى الدعاوى والمبادئ السارية في هذا القرن ، والتي أوحى بها المدنية المادية الحديثة .

فكلما قلّبتنا الرأي في هذه الدعاوى ، وسائرنا تنفيذها الواقعي في أوروبا وأمريكا ، ازداد الشك في نفوسنا ، وظهر عجز هذه الدعاوى عن حل المعضلة وعن وفائها بحاجة الناس . وتوالى الحروب المدمرة ، وتذبذب الأقوام بين هذه الدعاوى أكبر شاهد على ذلك . فلا بد إذاً من النظر بجدة لالتماس الهدى في غيرها . فهل هو في الرسالة الخالدة التي تعاقب رسل الله على الدعوة إليها وجاء بها إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ؟ ذلك ما يريد هذا الكتاب الكشف عنه .

وإذا نظرنا في الأديان السماوية جميعها نجدها تعبر عن حقيقة واحدة مهما تباينت الأشكال والأوضاع ، أساسها الإيمان والإحسان . وهذا المعنى واضح في القرآن الكريم في الآيات التالية وأمثالها :

« قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ

ويعقوبَ والاسباطَ وما أُوتِيَ موسى وعيسى وما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ
لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ .

« مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ ... »

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . »

فالآيتان الأولى والثانية اعتبرتا أتباعَ هذه الرسالة الخالدة مسلمين ، سواء
أجاءوا بعد محمد أم قبله ، والآية الثالثة جمعت الناس في رحمة الله على أساس
الإيمان والعمل الصالح . فرسالة الله إِذَا في نظر المسلمين واحدة يتتابع على حملها
الرسلُ والأقوام .

والشريعة المحمدية كنظام عالمي هي آخر تطور لهذه الرسالة ، وهذا الكتاب
هو محاولة متواضعة لإيجاد حل لمشكلات هذا العالم على ضوئها ، وهو أيضاً
محاولة لبيان أسس الدعوة المحمدية في السياسة والاجتماع والحرب والسلام
والعلاقات بين الدول والشعوب والطبقات والأفراد ، وبيان حاجة الحضارة إلى
سندٍ من القوى الروحية والمعنوية يسكها ويوجهها للخير العام ويحذو من
خوافز السيطرة والاثرة والظهور .

والعرض الواضح في بعض النواحي لوجهة النظر الإسلامية إنما قصد به
إلى التعاون والقرْبى لا التنازُل والتفرقة ، وأن يجد النشء الجديد المتعطش إلى
المعرفة والطالب للهدى ، من المسلمين وغير المسلمين ، مادةً للتفكير وسبيلاً
إلى رأي عالميٍّ مستقيم بعد هذه الحروب المدمرة التي أثارت اضطراباً لا نظير
له ، التبس فيه الحق بالباطل . « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا
تَتَفَرَّقُوا فِيهِ » .

وقد شرف الله العرب بأن جعل منهم آخر رسله ، واستكمل فيهم رسالته
الخالدة ، فحملهم الأمانة ، وعليهم أن يكونوا المثل والقُدوة في سعة الصدر والنَّصفة
والعدل والإخاء وحب السلم .

وإني لأرجو أن يكون الجيل الناشئ من العرب أهلاً لحمل هذه الرسالة ،
يعدون الحضارة والعلم بالسند الروحي الذي لا بد منه لعالم جديد متضامن
متعاون على تثمير خيرات الأرض ، مستظل بلواء الحق والعدل ، نافرٍ من
استخدام القوة ، متجهٍ نحو دولة عالمية واحدة تباركها يد الله ويرعاها رضاه .

عبد الرحمن عزام

القاهرة في يوم الخميس { ٩ من شوال سنة ١٣٦٥
٥ من سبتمبر سنة ١٩٤٦

في أصول الدعوة

عنه ليس هو بهما كقولهم في قوله تعالى
فمنعنا من ذلك ما كنا نعبد من دونه من
الجن والانس والانس والجن والانس

والانس والجن والانس والجن والانس
والانس والجن والانس والجن والانس
والانس والجن والانس والجن والانس
والانس والجن والانس والجن والانس

والانس والجن والانس والجن والانس
والانس والجن والانس والجن والانس

والانس والجن والانس والجن والانس

والانس والجن والانس والجن والانس

تحييد

١

في أصول الدعوة

۱

مختار المصنف

تمهيد

منذ أكثر من عشر سنين دعتني محطة الإذاعة اللاسلكية المصرية للتحديث على مؤجاتها ، وتركت لي اختيار الموضوع ، فاخترت الحديث عن أبطال العرب . ولما نظرت في أمر العرب قديماً وحديثاً ، وجدت أن بطل أبطالهم ، بل بطل العالم أجمع هو (محمد بن عبد الله) ، صلى الله عليه وسلم ، فابتدأت الحديث به ، فجاء الفيض بالسيرة العاطرة عن أبرز صفات شخصيته العظمى ، ولم أستطع العدول عنه إلى من سبق أو من لحق ، فاستمر الحديث فيها يتتابع حتى خرجت من مصر رسول ملكها إلى كثير من أقطار المسلمين ، وانقطع ما بيني وبين الإذاعة ، ولم أكن قد تناولت إلا بعض نواح لبطل الأبطال . وقد وجد بعض العلماء أن ما تحدثت به من المذيعات في صفات الرسول الكريم جدير بالجمع والنشر ، فجمعه وطبعه في كتاب سمي (بطل الأبطال أو أبرز صفات النبي محمد) .

ثم مضت أعوام عُدت بعدها إلى مصر ، وعادت هيئة الإذاعة المصرية فتفضلت مرة أخرى بالسماح باستئناف أحاديثي بها ، فلم أجد أحب إلى نفسي من أن أرجع إلى أبطال العرب ، وأن يكون جامع فضائلهم بل فضائل الإنسانية كلها موضوع الكلام مرة أخرى . وكانت العناية هذه المرة بدعائم رسالة محمد وآثارها وانتشارها وما يستطيع تقديمه لعلاج مشكلات العالم على هداها ، ففاض الحديث واتسع له الوقت حتى أُرْبِي على ثلاثين محاضرة رأيت أن أجعلها أساساً لهذا الكتاب الذي أرجو أن ينفع الله به في فهم (الرسالة الخالدة) لمحمد بن

عبد الله في عصر الظلم الروحي، والاضطراب السياسي، والمادية القاسية .
وقد يكون من توفيق الله أن يخرج البحث في هذه الرسالة وأثرها في
زمن الناس فيه أحوج ما يكونون إلى هدى ينير لهم طرق العيش بسلام بعد
أن دمرتهم الحروب والآلام .

فإذا كان هذا الكتاب شعاعاً من قبس هذا الحق ينطق في دياجي هذا
الليل البهيم الذي عمر البشرية، وإذا كان بسط مبادئ هذه الدعوة يهدي إلى
طريق وسط مستقيم بين هذه المسالك الوعرة المضللة التي تتخط فيها شعوب
البشر وتتصادم وتتطاحن لغير غاية واضحة ولا حجة ظاهرة . . . فإنني أرجو أن
يكون ما بدا في هذا البحث من فضل الله وفيض رسوله مُعيناً على تبسيط
مبادئ هذه الدعوة وبيانها بكيفية ترضى أهل الرأي وتثير طريق العامة .

وإني على ما أنا فيه من تقصير وتفريط لشاهد بالتجربة والنظر . وقد
عشت بين الفقراء والأغنياء ، محروم الجاه ومتمتعاً به ، وخالطت الخاصة
والعامة في المشرق والمغرب ، وشاهدت آثار دعوات مختلفة ، ونظرت في
كتب أقوام كثيرة ، فلم أر بناءً أقوى على الدهر ، ولا أرحب لجمع البشرية
من ذلك البناء الذي بناه محمد صلى الله عليه وسلم !

شهادة الزمان
والتجربة

حاولت أن تنال منه العرب والعجم ، واشتتط به المتفقهون والمؤرخون ،
والرؤاة وأهل الرأي ، ودعاة الفتنة ودعاة السياسة ، وتآلب عليه الجاحدون
والمكابرون وشوّهوا ما شاءوا ثلاثة عشر قرناً ، فلم يستطيعوا أن يغيروا وعد
الله « إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ حَافِظُونَ » ففُضِيَ أمرهم جميعاً وبقي أمر
الكتاب قائماً ، ولا يزال ذلك البناء على مرّ الأعاصير سليماً متيناً رحباً ، من
نزله كان آمناً . . .

هذه الرسالة الخالدة إن كانت من الله ، كما نعتقد نحن المسلمين ، فيكفي
أنها من الله لتميّز على كل دعوة من غير الله . . . وإن كانت من (محمد) ، كما يقول

حق من السماء
أو من الأرض !

المنكرون لنبوته ، فنحن على يئنة من أمرنا ، ندعو إلى سبيلها بالحكمة والموعظة الحسنة . ندعو المنكرين لينظروا فيها لا كدين ، بل كنظرية تاريخية أتت بأفكار وشرائع في السياسة والاجتماع والاقتصاد . فسيجدونها ، بصرف النظر عن معنى الدين ، أسسًا صالحة لنظام عالمي وسطي بين المذاهب السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي يتطاحن عليها الناس الآن ، وسيجدونها ، حتى على أنها من البشر ، أصلح الدعوات وأرشدها وأدناها إلى مبادئ العدل والحرية والمساواة والإخاء ، وسيجدون طرائقها كمبادئها وسطيًا سهلًا يلتقي الناس على قبولها بفطرتهم فيصلح بها الحال ويستقيم المجتمع ، ويعم السلام بين الأمم ، وبين الطبقات في الأمم .

فما هي دعائم هذه الرسالة ؟

وما هو هُداها في الإصلاح والتكافل الاجتماعي ؟

وما هي سياستها في العلاقات الدولية ؟

وما هي نظرتها لأسباب الاضطراب العالمي ؟

وما هي وسائلها في البحث عن سند رُوحاني للحضارة ؟

وما هو النظام العالمي الجديد الذي يوافق روحها ؟

وما هو تاريخ انتشارها شرقًا وغربًا قديمًا وحديثًا ؟

ذلك ما سنتناوله بعون الله تعالى في أبواب هذا الكتاب وفصوله ،

ونسأله عز وجل التوفيق إلى الهدى والرشاد

عبد الرحمن عزام

الدِّعَامَتَانِ

تقوم الرسالة الخالدة على دعامتين ، ينهض عليهما بناؤها ، وتتفرع منهما فروعها ، ويصدُر عنهما معتنقها ، هما :

الإيمان ، والإحسان .

لقوله تعالى : « إِن الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » .
(٦٢ سورة البقرة)

وقوله : « بَلَى ، مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » .
(١١٢ سورة البقرة)

وقوله : « وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ! » .
(١٢٥ سورة النساء)

ففي هاته الآيات وأمثالها تحديد وجهة الإسلام ، وتلخيص الدعوة المحمدية : عقائدها وعباداتها وشرائعها .

وفيهما سرُّ بساطتها وقوتها ورحابتها وسرعة انتشارها بين أهل الرأى والعامّة من البشر .

الإيمان بالله الواحد

أصل الأصول — الدين فطري — البحث عن الله — قصة إله زنجي —
التوحيد أعظم أسس الدعوة المحمدية — هو السبيل للوحدة العالمية

الإيمان بالله باري الكون وحده لا شريك له ، هو أصل الأصول في أصل الأصول
الاديان السماوية ، فهو أصل الرسالة المحمدية .

هو النبيوع الذي أفاضه الله من قلب محمد عليه الصلاة والسلام بالهدى
وحقائق الخير والسلام .

هو الصّدّي العميق لذلك الها تاف الذي ناداه من السماء والأرض : « اِقْرَأْ
باسم ربّك الذي خلّق . خلّق الإنسان من علقٍ . اِقْرَأْ وربّك الأكرم .
الذي علّم بالقلم . علّم الإنسان ما لم يعلم » .

« يا أيها المدثر ! قم فأنذر . وربّك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز
فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربّك فاصبر » .

« وكذلك أوحيّا إليك روحاً من أمرنا . ما كنت تدري ما الكتاب
ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ، وإنك
لنهدي إلى صراطٍ مستقيم . صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ،
ألا إلى الله تصير الأمور » .

خرج (محمد) على أهله وقومه بالدعوة إلى الإيمان بالله وحده فأنكروها ،
وأرادوه على العدول عنها وظنوا به الظنون ، فقالوا : ساحر وشاعر ومجنون
وكذاب ، وساموه على ترك دعوته بالمال والمُلْك والجاه ، وقاوموه واضطهدوه
وأذوه ، فما كان قوله لهم إلا أن قال : « والله لو وضّعوا الشمس في يميني والقمر
في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته أو أهلك دونه » . فلم يعدل

بذلك الإيمان الذي اطمأنت إليه نفسه وأمره به ربه ، ولا بالدعوة إليه ، مُلْكَ الليل والنهار وما فيهما ! وكان همه أن يلتقي الناس على عبادة الخالق القدير الذي تنزهت صفاته عن الشريك والمثيل .

الدين فطري

والناس من أقدم العصور حيارى يجدون في أنفسهم إلهاماً بالفطرة إلى التسليم بقوة قاهرة يستلهمونها ويستمدون منها العون ، ويستقبلون منها الخير والشر ، فيدعونها خوفاً وطمعاً ، ويتملقونها بالقرايين والعبادات ، ويجدون في الإيمان بهذه القوة التي اختلفوا في تكييفها سَنَدًا وَمَلَاذًا من رهبة القوى المادية في الكون ، وسكوى وعزاء عن ما هم فيه من قسوة الحياة وآلامها . شعورٌ فطريٌّ قوى في نفوس البشر يدفعهم إلى عبادة القوة . وليس أبداع من تصوير القرآن لهذا الاتجاه بقوله في قصة اهتداء إبراهيم عليه السلام إلى الله كما وردت في سورة الأنعام :

البحث عن الله

« وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً ، قال هذا ربي ! فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً ، قال هذا ربي ! فلما أفل قال لئن لم يهدينى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة ، قال هذا ربي ، هذا أكبر ! فلما أفلت قال يا قوم إني برىء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين » .

هكذا تدرج عقل إبراهيم في الاهتداء إلى الله من مظاهر القوة والنفع والرهبة والروعة في النجم والقمر والشمس ، ولكن لم يرض فطرته السليمة أن يراها ناقصة بأفولها وقيودها وتعددها وخضوعها لسلطان الظلام ، فعدل عنها ، واتمس عقله الطريق إلى قوة مختارة دائمة غير محدودة ، هي الذى فطر السموات والأرض وقهرها . ثم اتصل بعقله وحى الله وهُداة .

وقد عبد الناس قُوًى كثيرة ، إما عبادة أصيلة ، وإما لاتخاذ عبادتها زُلْفى وتقرُّباً إلى تلك القوة العظمى القاهرة التى يدركونها بفطرتهم .

عبدوا الأشباح والأرواح والجادات والحيوانات والنجوم والكواكب والماء والنار والبرق والرعد ، وما توهموا أن فيه القوة أو أنه مَثَلٌ لها أو مظهر من مظاهرها . بل عبد بعض الناس بعضاً ممن تجلت فيه قوة غير طبيعية ، ثم قتلوا من عبَدُوا حين تبين لهم قصوره عن القدرة التى ظنوها فيه .

وَمِنْ أَعْجَبِ مَا شَاهَدْتُ مِنْ عِبَادَةِ الْإِنْسَانِ لِلْإِنْسَانِ ، أَنَّنِي جَالَسْتُ قَبْلَ خَمْسَةِ عَشَرَ عَاماً إلهاماً من آلهة الزوج في جبال الثَّوْبَةِ بأقصى الجنوب من كردفان . فكنا على الأرض نَتَقَيَّ ظِلَالاً وارفة لشجرة من تلك الأشجار الاستوائية الهائلة ، وجمعٌ من الشعب رجالاً ونساءً عرايا يرقصون ويطربون في حضرة الإله ويسمونهُ « الكَجُور » . وهذا الكَجُور سواء أكان هو الإله أم رَمَزُهُ ، هو غُرْفاً المعبود الذى يرفع إليه الدعاء وتقدم له القرابين ، وهو القدير على تصريف الأمور الكونية ، له كل تقديس ، فهم يطعمونه ويهبِّونهُ ويتزلفون إليه مُقَابِلَ أن يأتِيهم بالمطر لزرعهم وسأمتهم ، وأن يشير عليهم بالوقت المناسب للصيد أو الحرب ، أو أن يدفع عنهم البلاء والمرض .

ولم أستطع أن أتبين إن كان في نظرهم إلهاماً كاملاً أو كأصنام الجاهلية ، يعبدونه زُلْفى لمن هو أعظم في نظرهم .

جاءت زوجة « الكَجُور » ونحن نتحدث بوساطة مترجم فجلست بجوارى ومدت ساقها فأرتنى آثار ضرب بها . فقال المترجم : إن بعض العامة ضربوها ، وهى تشكو إليك ظانة أنك الحكومة . فقلت : كيف وهى زوج « الكَجُور » وهو إلههم المتصف بالقدرة عندهم ؟ فقال : إن القداسة لا تشمل الأسرة ، وحقوقه شخصية فقط ، وأهله مثل جميع الناس .

فقلت لصاحبي : إن هذا الشعب على سذاجته وضلال عقيدته يضرب
أعلى الأمثال في الديموقراطية والمساواة .
ومن عجيب أمر القوم ، أن للكجور حقوقاً يقابلها واجبات ، فإذا
امتنع عن أداء الواجب قتلوه .

فمثلاً إذا أجذبت الأرض وهلك الزرع سألوه المطر ، فإن أبى وتأخر
المطر حاولوا استرضاءه بالهدايا والدعاء ، فإن مرّت السنة وأجذب ما بعدها
ولم يستطيعوا أن يقنعوا بكجورهم ليأمر المطر برحمتهم ، فإنهم قد ينتظرونه
مواسم أخرى ثم يقتلونه أو يرحمونه ويقيمون غيره ممن يعرفون فيه بالميراث
والاختبار علم الأسرار وفعل بعض الخوارق ، فيُحِلُّونه محله .

وأعجب ما في نوادرهم ما روى لي أنهم شكوا أحد الآلهة مرة إلى
الحكومة لامتناعه عن الإتيان بالمطر ، ولم يتركوا موظف الحكومة حتى
أمر بحبسهم ، واستمروا هم ينتظرون أياماً ، فإذا بالكجور يطلب من الحاكم
أن يطلق سراحه فيأتيهم بالمطر بسرعة . وما إن انطلق من الحبس وسار
بالشعب نحو الجبل ، حتى هطلت الأمطار غزيرة . فهم لا يشكّون في قدرته
ولا يظنون به العجز ، وإنما يظنون به القصد السيئ .

ذلك مثلٌ من فكر البشر في سذاجته . وفكرُ البشر حتى في حضارته
أحياناً لا يكون أعلى كثيراً . فقد عبد العجل والقط والصنم والنار وبعض
البشر وغير ذلك .

وكانت الدعوة المحمدية إلى الوحدةانية غريبة لدى العرب وغيرهم رغم
ما يظهر الآن من بدايتها واستقامتها ، وكانت الحاجة شديدة لداعي التوحيد
ليُسَمِّوْا بالعقل الإنسانى إلى النظر في الكون والمخلوقات والتوجه إلى خالقها
جميعاً لاستمداد العون واستلهم الرشد .

التوحيد أعظم
أسس الدعوة
المحمدية

وإذا تفحصنا سيرة الرسول في مكة، وتأملنا التنزيل في تلك الفترة، رأينا (محمداً) قد وقف قلبه وجهده، ووهب حياته وحياة أنصاره لتكوين هذه الدعوة الأولى وإظهارها. وقد خاصم أعداءه وهادتهم، ونفر ورعي، واستصرخ أهل الأديان الأخرى ليلتقوا معه على كلمة سواء: هي عبادة الله لا شريك له «قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله. فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأننا مسلمون».

ولم يقبل في دعوته إلى الوحدة من المشركين وعبدة الأوثان هواده أو مساومة رغم أنه كان يجادل الجميع، ولكنه كان كثير التسامح مع أهل الكتاب. يقول القرآن «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن»، ويقول في النصارى «ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى»، ويقول قولاً عاماً في جدال الجميع «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن».

التسامح
هو السبيل إلى
الوحدة العالمية

وقد بلغ تسامح الدعوة المحمدية مع الملل الكتابية حداً لا يعرفه أهل هذه الملل حتى في هذا العصر الذي انتشر فيه اللادينيون، ولا يقبل مثله كثيرون من المتدينين في الملل الأخرى، فلا تتسع صدورهم له ولا لرحمة الله لغيرهم. انظر إلى هذه الآية الكريمة «إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون». فالهدف الأسمى للرسالة المحمدية هو الإيمان بالله لا شريك له. وفي سبيل التوحيد تسهل كل العقبات، وتتساوى القبائل والشعوب جميعها، حتى الأديان لقوله تعالى «قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل

وإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ. «

فرسول الله في دعوته إلى الإيمان بالله الواحد الخالق لم يدع أنه مُبتدع بل قال إنه مكمل للشرائع السابقة ومعيد للحنيفية الفطرية التي هي دين إبراهيم بل دين نوح وآدم، وإنه لا تبدل لذلك الدين القيم الذي يستند إلى وحدة الله، ويترتب عليه وحدة خلقه « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه. كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ». « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم. وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ». « فلما أحسن عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله؟ قال الحواريون نحن أنصار الله، آمنا بالله وأشهد بآثنا مسلمون ». «

دين واحد
لأمة واحدة

ولم يختلف الرسول صلى الله عليه وسلم مع أهل الكتاب إلا حيث كان تنزيه الخالق موضع شك. ففي سبيل التوحيد والتنزيه جادل وخاصم ولم يصالح أو يهادن أحداً على حساب دعوته هذه، لأنها أساس رسالته وغايتها، بل غاية الوجود « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون. ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون »، « سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ». «

وهذا التوحيد الذي دعا إليه فضلاً عن سموه بالعقل البشري هو أصل الخير وأساس السعادة والخلق السليم كما يظهر من الفصل التالي.

آثار التوحيد

التوحيد روح الدين — هو أساس الانتساب والاعتبار الشخصي — الإشراف
سبب لإهدار شخصية المشرک — المشرک طارئ على القسرة — المشرک
باعث الظلم والاستبداد — التلازم بين التوحيد وصلاح الفكر والحياة — وكر
الخرافات والأباطيل — عقائد التوحيد وآثارها في تركية النفس — آثارها
في حرية الفكر وسيادة العقل وسمو الحضارة — لا احتجاج بالواقع السيء

يَبَيِّنُ أَنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ هُوَ الْهَدَفُ الْأَسْمَى لِلدَّعْوَةِ الْمَحْمَدِيَّةِ .
وَاللَّهُ سَبِّحَانَهُ قَدْ سَمِيَ الْمُؤْمِنُ بِهِ وَحْدَهُ مُسْلِمًا « فَأَمَّا أَحَسُّ عَيْسَى مِنْهُمْ الْكَافِرَ
قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ؟ قَالَ الْخَوَارِثُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ، آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ
بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » .

وإذا تصفحنا آيَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ نجد الدعوة إلى التوحيد والتَّزْنِيهِه لا تخلو
منها سورة ، بل تكاد لا تخلو منها صفحة من الكتاب تصرِّحاً أو تلميحاً .
وَحِكْمَةُ ذَلِكَ وَاضِحَةٌ ؛ إِذَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ يَتَفَرَّعُ مِنْهُ كُلُّ مَا فِي الدَّعْوَةِ
مِنْ صَلَاحٍ وَإِصْلَاحٍ ، وَهُوَ الرِّبَاطُ الَّذِي يَجْمَعُ شَتَاتَهَا وَيُوثِّقُ بَيْنَ أَجْزَائِهَا ،
بَلْ هُوَ فِيهَا بِمَقَامِ الرُّوحِ لِلْجَسَدِ ، يَتَحَلَّلُ وَيَبْلَى وَيَنْدَثِرُ بِفِرَاقِهَا . وَالشَّرَائِعُ مِنْ
غَيْرِ إِيْمَانٍ كَالْقَوَانِينِ الْوَضْعِيَّةِ : تَسْقُطُ بِسُقُوطِ الْقَائِمِينَ عَلَيْهَا وَيَذْهَبُ أَثَرُهَا
بِذَهَابِ الظُّرُوفِ الَّتِي أَحْدَثَتْهَا .

التوحيد روح
الدين

هو أساس
الانتساب
والاعتبار
الشخصي

لِذَلِكَ كَانَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ هُوَ الْحَدُّ الْفَاصِلُ بَيْنَ النَّاسِ ، وَلَيْسَتْ
الْعُنَاصِرُ وَالْأَجْنَاسُ حُدُودًا بَيْنَهُمْ بَلْ لَيْسَ الْإِنْتِسَابُ إِلَى الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ نَفْسَهُ
وَعَدَمُ الْإِنْتِسَابِ إِلَيْهِ حَدًّا ، إِذْ بَيْنَمَا هَذَا الدِّينُ يَرْعَى كَنِيسَةَ الْمَسِيحِيِّينَ وَيَبْعَثُ
الْيَهُودَ إِذَا دَخَلَتْ فِي دِمَّتِهِ ، وَيَأْمُرُ الْمُسْلِمِينَ بِالْقِتَالِ لِاحْتِرَامِ حُرِيَّةِ عَقَائِدِ الْمُعَاهِدِينَ
مِنْ أَهْلِ الْمِلَلِ السَّكَنِيَّةِ « وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ
وَبَيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا » ، وَبَيْنَمَا هُوَ يَكْتَفِي

ممن يؤمن بالله من أهل الكتاب بضريبة قليلة على القادرين من الذكور
مقابل حماية نفوسهم وأموالهم وأعراضهم ودينهم وعرفهم ، ضريبة هي رمز
لعهدهم ، يستعين بها المجاهدون على الرباط في الثغور ، ويأمن المعاهدون بها
على ديارهم وعقيدتهم . وقد ردّها خالد بن الوليد ، رضى الله عنه ، إلى نصارى
حمص حين أجلاه الروم عنها ، وقال ما معناه : إنما أخذناها لحمايتكم وقد
عجزنا عنها . نقول بينما الإسلام يعامل المؤمنين بالله على هذا الأساس ، إذا به
يفرق بينهم وبين المشركين ويعاملهم معاملة أخرى فيها عدم اعتراف بكرامتهم
ولو أنه يفي لهم أيضا بما لهم من عهود ومواثيق مع المسلمين بشرط ألا تصادم
حقا أو تدفع إلى ظلم ، كما حصل في حلف النبي لخزاعة وصلاح الحديبية كما سيأتى .
إذ العداوة معهم دأمة لوجه الله وصلاح البشرية . حتى يكون الدين كله لله .
ومن ناحية أخرى نجد الإسلام يُدخل الكتابية في الأسرة المحمدية فيُبيح
مُصاهرة أهل الكتاب ويجعلهم خُوُلَة للمسلمين ، وهو لا يقبل مثل هذا
النسب مع المشركين ، ويأبى أن يعترف لهم بهذه الميزة « ولا تُنكِحُوا
المشركات حتى يؤمنن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم » ولا تُنكِحُوا
المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم . بل يصل الأمر أن
يجعلهم نجاسة « إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » .
كل هذه الشدة مع الوثنيين والمشركين ليست تعصبا أعمى ولا إفراطا
في العصبية الإسلامية ، فلو كانت كذلك لساوت الدعوة في المعاملة بين أهل
الاديان الأخرى جميعا ، وقد لقي الإسلام من العنت والأذى من أهل الكتاب
كثيرا ، ولكن ذلك لم يُخرج الدعوة عن التمييز بينهم وبين المشركين . ذلك
كله لأن عقيدة التوحيد هي غاية الحياة الإنسانية وسبيل الإصلاح المنشود ؛
فتى آمن العبد بأنه أثر للبارئ الأعظم ، كان بينه وبين خالقه ما بين الصانع
والمصنوع من الصلة ، وكان بينه وبين المصنوعات جميعا ما بين الآثار المتعددة

الشرك سبب
لإهدار كرامة
المشرك
وشخصيته

ولا ينبغي
للمسلم

بالمسلم
بالمسلم
بالمسلم
بالمسلم

للمُنشئ الواحد، وكان هذا الارتباط المعترف به اعتراف إيمان بين الخلق والخالق أخوة عامة في الله رباطاً لا ينفصم، يستمر به العمران والإصلاح والخير على وتيرة واحدة مصدرها الإذعان لإرادة واحدة، وكان بذلك وجودنا جميعاً في هذا الكون متصل المبدأ متّحد الغاية. ومتى امتلأت النفوس بذلك سهل كل شيء.

فلو تصورنا الناس على إيمان كامل كهذا، يؤثرون ما عليهم وفق هذا الإيمان، لأمكن أن نتصور أقدر المخلوقات على الفساد، وهو الإنسان، أصاحبها، إذ هو حينئذ لا يحتاج لوازع ولا هادٍ إلا من إيمانه، بل لأمكننا أن نتصور هذا العالم ولا حُكْم ولا حكومة فيه إلا لوجدان المؤمنين.

لذلك كان الإيمان بالله لا شريك له الشغل الشاغل لصاحب الدعوة، وكان في الحقيقة سبب نجاحها واستقامتها.

فإزالة الشُّرك يتبعها هدم مفاصله، وإقامة التوحيد يتبعها قيام فضائله.

تقرر الدعوة المحمدية أن الناس كانوا على الفطرة يعبدون الله وحده، ثم ضلوا، فإذا عادوا لها استقاموا.

وإذا نظرنا في تاريخ أديان البشر وجدنا الشُّرك في الغالب نتيجة لبِدَع أحدثها الناس، فعدّدوا الآلهة ونوّعوها، وأقام المبتدعون والمفسدون أنفسهم قوَّاماً على الآلهة وسدنة وحراساً، بل وكلاء ونواباً، واتخذوا سلطان هذه الآلهة سلطاناً لهم، ثم تأمر ذؤوا الأغراض فتساندوا على تضليل العامة، وانتهوا بوضعهم في أسْر مجموعة من الخرافات والسّخافات، وكان الكهنة وأضرابهم من القوَّام والوكلاء والمرشدين خزانة الأسرار الدينية هم في الواقع الآلهة المتصرفون في المجموعات البشرية المأسورة.

فأول أثر يبدو للشُّرك في تاريخ البشر، هو أن العبودية للصنم انقلبت إلى عبودية للشخص أو الأشخاص القائمين على هذا الصنم، وقامت عهود من

الشرك طارىء
على الفطرة

وكر الخرافات
والأباطيل

باعث الظلم
والاستبداد

الاستبداد دامت في مصر والعراق آلاف السنين ، ولم يَحُلْ منها ركن من
أركان العالم من فجر التاريخ إلى اليوم . ومهما تغيرت الأوضاع والأشكال . فإن
الشرك والاستبداد حليفان متلازمان .

أما التوحيد فيتبعه الإنصاف ويلزمه كالظلل للشواخص ، لأن الإله الذي
دعا إليه الأنبياء ومحمد صلى الله عليهم وسلم منزّه عن الهوى والغرض ، لا يريد
من خلقه رزقا ولا طعاما ، وليس له وكلاء ولا نواب ولا وسطاء . يقول
« اذْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » وهو أقرب إليهم من حبل الوريد ، هو الرحمن
الرحيم ، هو الغنى القدير ، هو الباري المصور ، هو العفو الغفور ، هو المعطي
المانع ، هو الحكم العدل ، هو المبتقم الجبار ، هو العليم الخبير ، هو المسيطر
فوق عباده ، العزيز الحكيم .

كلّ هذه الصفات وما معها من تنزيه عن الشبيه والمثيل جعل الألوهية
في وضع يعلم بها عن الاستغلال السيئ ، وجعل الخلق تحتها متساوين في حكمها ،
أكرمهم عند الله أتقاهم ، وأقربهم أبرّهم بالعباد .

وكما أن الظلم والأثرة ملازمان للشرك كان الإنصاف والعدل والمساواة
ملازمة للتوحيد .

لذلك كانت غاية الدعوة المحمدية الإيمان بالله وحده ، وهو عندها فوق
كلّ شيء . ويقول القرآن الكريم « إِنْ اللَّه لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ
مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » .

آثار التوحيد في
تركبة النفس

والإيمان الخالص من الشوائب ، الصادر من القلب ، تتبعه حتما جميع
الفضائل المتعارف عليها ؛ لأن المؤمن يجد حسابه مع الله مباشرة فيرفعه إليه
وحده ؛ فهو لا يرتكب الكبيرة ولا الصغيرة عن عمد وقصد . ومتى وجد هذا
الإنسان فقد وجد الإنسان الكامل .

فلو أن مجتمعا تكون من مثل هذا الإنسان لقام على الرحمة والمحبة ؛ إذ من

وصايا الإسلام « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » «الراحمون يُرحمهم الرحمن» «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» فهو إذن المجتمع السعيد .

وليس غريباً ما دعا إليه بعض الخوارج في عهد الفتنة بين (علي) و(معاوية) من إلغاء الحكومة البشرية تماماً إذ قالوا « لا حُكم إلا لله » . ولو تحققت الحكومة الإلهية لكان ملكها الوجدان ، وقانونها الإنصاف ، وزاجرها العرف العام .

التوحيد سر
حكومة الوجدان

لكن الدعوة المحمدية لما فيها من صدق نظر ومطابقة لطباع الناس عوّلت في الإصلاح على الإيمان والشرع الذي ينظم ما قصدت إليه من إحسان ، وجعلت الوازع من يختاره المؤمنون لينفذ ما شرّعت ، فضمنت بذلك استقامة الأمور . وهيئات أن تصل البشرية إلى حكومة الوجدان التي توحىها عقيدة التوحيد !

قلنا إن الإيمان بالله يتبعه حتماً تغلبُ جميع الفضائل في نفس المؤمن . فهو لا يعيش لنفسه بل لإخوانه من مخلوقات الله جميعاً ، ويكاد يمتحى في النفس المؤمنة الشر بجميع أنواعه ، وأول ما ينمو فيها هو الإيثار والفداء والتضحية في سبيل الخير العام .

فالمؤمن لا يكون ظالماً ، لأنه يعارض بالظلم صفة من صفات الله وهي العدل ، ولا يكون غليظاً قاسياً ، وسيدّه هو الرحمن الرحيم . ولا يكون كاذباً ولا مُخادعاً ولا منافقاً ؛ لأن حسابه مع الله العليم الخبير الذي « يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور » ، ولا يكون ذليلاً أو جبناً ، لأنه يعلم أن ذلك لا يفيدّه ما دام الأمر بيد الله .

وهكذا إذا استرسلنا في تعداد النقائص نجد أنه حيلَ بينها وبين الموحّد بحجاب الإيمان ، ونجد الصفات السامية جميعاً محببة إلى النفس المؤمنة المطمئنة

التي دخلت في عباد الله ودخلت في رحمته حين لبّت نداءه : « يا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي » .
هذه النفس المطمئنة بالإيمان تحيا في سعادة لا يتذوقها إلا الموحّدون .
ويمكن لأمثالنا ممن يعيش على هامش الإيمان ويسأل الله الهدي ، أن يتصور
النفس المؤمنة تكون في الجنة فعلاً في هذه الدنيا ؛ لأن السعادة الروحية التي
تتذوقها هي أطيب ما في الجنة من متاع .

هذا الإيمان بالله وحده الذي قلنا إن الفضائل تتبعه حتماً ، وإنه يطهر النفوس
من الشر والرذيلة ، يسمو كذلك بالعقل البشري ؛ فالوثنية والشرك يشغلان
الذهن بالمحسوسات ويحصرانه في نطاق الأباطيل الصادرة عن دَعَوَات السَّحَرَةِ
والكُهَنَةِ وطوائف القاعين على الآلهة المجسّمة ، أو على الآلهة المُقسّمة الموزعة
السلطات والمتنافسة عليها ، فتطبع في أذهان الناس صوراً مما هم فيه أو ما يهبطون
إليه من الخرافات ، بينما يفعل التوحيد والتنزيه عكس ذلك ، فهو يدعو للتفكير
والنظر وتحكيم العقل ؛ فالإله الذي دعا إليه الإسلام يجمع السلطان والفضائل ،
وهو مع الناس أينما كانوا ، لا وسيط له ، ولا ينالونه بحسٍّ ، فلا بد لهم من
التفكير فيه والاستدلال عليه بآثاره ، مما يدعو إلى تعلّق العقل بمصنوعاته .

التلازم بين
التوحيد وصلاح
الفكر والحياة

وقد كانت عناية الدعوة المحمدية في هذا بادية في أقوال الرسول صلى الله
عليه وسلم وأعماله كما ردّدت آيات الكتاب الكريم الدعوة إلى النظر والتعقل ،
فاستهزأت بالمقلّدين والمكابرين والجاحدين والجامدين بكلمات لازعة قارصة ،
وامتدحت المفكرين والباحثين والذين يُحسنون استخدام ملكاتهم في النظر
في الكون واستنباط الحقائق من مقدّماتها وآثارها .

ومن العجيب أن الشّرك الذي صرّعته الدعوة المحمدية في جزيرة العرب
في أيام الرسول وفي غيرها من بعده ، وترتب على هزيمته ظهور الفضائل التي

أشرنا إليها ملازمة للإيمان بالله لا شريك له ، لم يكن سهلاً هيناً كما يُظنّ ، بل كان شراً مُستطيراً وبلاءً مستأصلاً .

يقول الله تعالى « وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ! وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا خِتْلَاقٌ » .

أثر التوحيد في
تحرير العقل
وسمو الحضارة

فالدعوة المحمدية بانتصارها على الشرك قد أزالَت العقبة الأولى في سبيل السُّموِّ بالنفس البشرية كما بينا ، ورفعت الحَجَرَ عن عقول تحجَّرت ، فانطلقت للنظر والتبصُّر ، وبدت آثار ذلك مُسرِّعة ، حتى كادت الدعوة المحمدية أن تكون في ذاتها مُعجزة ، فقد اتفق العلماء والباحثون على أن نجاح محمد صلى الله عليه وسلم في دعوته مقطوع النظر ؛ فلا يُعرَف في تاريخ البشر نجاح كالذي لقيه .

ومن المتَّفَق عليه أيضاً أن دعوته كانت غريبة مُنكَرَةً في نظر القوم مُبتدعة غير مُهمِّد لها ، قد لقيت من العناد والاستهزاء والاستنكار ما تَقِيضُ به حوادث السنوات العشرين التي قضاها صلى الله عليه وسلم وهو يَجْهَرُ بها بعد أن أخفاها في بادئ أمرها .

وكما كانت الدعوة إلى التوحيد غريبة فإن أثرها في النفوس وما ترتب عليه في تكييف الحياة وتغيير وجه الأرض كان أكثر غرابة .

فالأعراب الذين وأدوا بناتهم واعتزوا بسفك الدماء والنهب ، صاروا الخُشع الرُّكَّع الذين يبتغون فضلاً من الله ورضواناً .

والأسرة التي كان يرث فيها الرجل زوجات أبيه ، صارت الأسرة المُطَهَّرة . والقبيلة التي كانت لا تعرف حقاً إلا لعصبيتها ، ولا ترعى ذمّة إلا لمن

هو منها ، صار فيها من يَرُدُّ إلى نصارى (حمص) أموالهم ، لأنه عجَز عن
رعاية ذمتهم .

والسادة الذين استعبدوا الناس صاروا يخشون الله ولا يخشون في الحق
لومة لائم .

ومن الخلفاء القساسة صار الخليفة الذي ترده امرأة في مجمع الخلق فيقول
« أصابت امرأة وأخطأ عمر ! » ويكتب إلى أكبر ولاته الفاتحين متهمكماً
« متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ! » لأن ابن ذلك الوالى أساء
إلى مسيحي من قوم مغلوبين . وكان ذلك في مصر .

فإذا قال قائل : وما بال فساد الحال صار بآطنا به على الدنيا اليوم ، والمؤمنون
مِلء الأرض ؟

لا احتياج
بالواقع السىء

قلنا ما قاله الله « وما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ » وما قاله
الرسول « واللّٰه لا يُؤْمِنُ ! واللّٰه لا يُؤْمِنُ ! واللّٰه لا يُؤْمِنُ ! قيل : مَنْ
يارسول الله ؟ قال : الذى لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقِهِ » .

فهل أَمِنَ أَحَدٌ من أهل الكتاب في الغرب أو الشرق بوائِق جاره ؟
وهل أحبّ مُسلم لأخيه ما يحبّ لنفسه ؟

ولا تزال الإنسانية في هذا البلاء ، وهذه الحروب ، وهذه الفرقة بين
الأمم ، وبين الطبقات في الأمم حتى تملأ مبادئ عقيدة التوحيد قلوب الناس .

الإحسان

رديف الإيمان — تنظيم دقيق لقواعد الحياة وأساليبها — أثر سريع لتطبيق
نظم الإحسان — الرحمة والإغاثة أساس الإحسان — دفاع لا بد منه عن
الأثر الكائنات — أثرهم في زوال عهد الإقطاع من المذاهب والبولونيين —
موقف عظيم للإسلام في عهد السلطان سليم — رحمة الحيوان —
وقائع وحكايات عن الرحمة

الآن ننتقل إلى الدّعاة الثانية للإسلام وهي الإحسان . والإحسان في نظري هو العمل الصالح ، وقد جاء في الآيات رَدِيفَ الإيمان . بل يكادُ يلازمه في كل آية .

والشريعة الإسلامية كلها ما هي إلا بيان بالأمر أو النهي أو الإباحة للأمور التي بها يكون العمل صالحا . وهي فريدة بين الأديان في وضع الأصول والفروع لهذا الإحسان ، ففي جميع علاقات الإنسان بالله ومخلوقات الله رسمت الشريعة بشيء من التفصيل قواعد الحياة وأساليبها للمسلم ، وهذه القواعد منها ما يختص بالعلاقة بين العبد وربّه من صلاة وصوم وحجّ مما يتبع الإيمان وما يقتضيه من عبادات .

وكل ما نحتاج أن نُشير إليه منها في مثل هذه الأحاديث هو أن هذه العبادات مع تزيينها للنفس وتطهيرها للبدن ، مما يعود أثره على المسلم في شخصه ، هي كذلك مجموعة نُظِمَ تَعِينُ على حُسن العلاقات بين الفرد والجماعة ، وتيسّر بما فيها من تدريب وتهذيب سبيل التكافل الذي لا بد منه للجماعة الصالحة ، بل تُحرّض في كل لحظة على التعاون البشري الذي هو أساس العمران . وليس أدلّ على ذلك من الأثر الذي أحدثته هذه العبادات في نفوس قوم من الأعراب وأضرابهم من الأمم المتبدية هم أبعد الناس عن الألفة والتعاون ، وأدناهم للإنسانية والشر .

تنظيم دقيق
لقواعد الحياة
وأساليبها

رديف الإيمان
تنظيم دقيق

أثر سريع لتطبيق
نظم الإحسان

ففي بضعة سنين أصبح الخلفاء النافرون ، وقد عبدوا الله على الكيفية التي سنّها صاحب الدعوة ، أهل نظام وتقوى ، يركعون ويسجدون لله ويأتمون برجل منهم ، ويؤدون ذلك باطّراد في أوقات محدّدة ، فتعودوا النظام والطاعة والتكافل ، وأصبحوا إخواناً يسمي بعضهم أديانهم .

وقد دهش فعلاً أولادُ عمرتهم الذين استمرّوا على الشرك حين التقوا بهم في « بدر » فأوهم لأول مرة في كتاب مرصوفة لا عهد للعرب بها . لا يتنادون بعصبية مع أنهم من شتات العرب ، بل شتات الأعراب والعبيد والأحرار والبيض والسود ، رابطتهم في الله وأخوتهم في الإنسانية .

فالعبادات على الكيفيات المختارة في الإسلام لها بلا شك ، غير الرابطة التي تقويها بين المخلوق والخالق ، آثارٌ عدّة في نفس الإنسان وحياته وعلاقته بالناس ؛ ولذلك كلّ كانت عناية صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم بها عظيمة . وفقهاء المساميين حين علموا أن الإسلام بُني على خمسة أركان ، للعبادات ثلاثة منها ، قد أدركوا عظم هذه الأركان الثلاثة : الصلاة والصوم والحج في بناء الدين . وقد أفاضوا في فضل العبادات المختلفة ، بل في فضل كل صلاة وركعة ، بما لا حاجة معه لجديد ، ومما يعرفه كل مسلم إن لم يكن تفصيلاً فإجمالاً ، ولكن أكثر المساميين ، مع شديد الأسف ، لا يعرفون عن دينهم أكثر من ذلك . فلهذا أظنّ أن العناية في هذه الأحاديث بالنواحي الأخرى للأحسان والعمل الصالح أجدر وأنفع .

كان الرجل يأتي من أقصى البادية فيجلس إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يتلقّى دعوته ، فيقوم من بين يديه وهو أعلمُ بها ممن درجوا اليوم في أحضان الإسلام ، ونشأوا في بيوت الدين ، وليس ذلك لميزات الرسول ، صلى الله

عليه وسلم ، وبرّ كته وتأثير شخصيته فحسب ، ولا لأن هؤلاء الأعراب كانوا يختلفون عن أبناءهم عرب اليوم ، وإنما كانت الدعوة بسيطة مركزة في مبادئ عامة مفهومة للكافة ، سهلة ، تلقى إليهم ليعملوا بها وليسيروا على نهجها ويتسجّوا على منوالها ، لا ليتحدّثوا عنها ثم يشتغلوا بالقشور إذ « نسوا الله فأنساهم أنفسهم » ، ورَضُوا بالظاهر ففقدوا اللب والجوهر .

وعبارة القرآن في هذا المعنى تدل على سهولة تلقى الدعوة ونشرها : يقول الله تعالى « فلولاً نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم » .

فالدعوة بسيطة ، أساسها الإيمان والإحسان . وهذا الإحسان هو العمل الصالح كما قلنا . وهذا العمل الصالح هو مبادئ عامة وعبادات تلقن كيفيةها في لحظات .

الرحمة والإخاء
أساس الإحسان

أما المبادئ فأصلها جميعاً في الرحمة والإخاء . والرحمة صفة الله وقد كان المسلمون في أول عهد الدعوة يسمّون الله (الرحمن) حتى قال العامة ، إن محمداً يعبد إلهاً اسمه الرحمن . والمسلمون يستفتحون كل عمل وحركة باسم الرحمن الرحيم ، ويحيي بعضهم بعضاً بالسلام والرحمة فيقولون « السلام عليكم ورحمة الله » .

وآيات الكتاب شهادة على أنها أحب الصفات إلى صاحب الدعوة « محمد رسول الله . والذين معه أشدّاء على الكفار ، رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ » .

« واخفّضْ جناحك للمؤمنين . وقل إني أنا النذير المبين » .

« ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » .

« فبما رحمة من الله لنت لهم » .

« عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم » .

والأحاديث النبوية في معنى الرحمة مستفيضة .

«الراحمون يرحمهم الرحمن» «ارحموا من في الأرض يرحكم من في السماء» .

هذه الرحمة التي هي أصل من أصول التشريع في الدعوة المحمدية «وما أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ» هي أساس العمران . وما نُزِعَتْ من قلب إنسان إلا صار خراباً ، ولا من قوم إلا كانوا وَبَاءَ على الأرض . والتاريخ يحدثنا عن طُغْيَانِ أقوام نُزِعَتْ الرحمة من صدورهم ، فتركوا آثاراً فظيعة من الخراب استمرت بعدهم قروناً .

فمثلاً موجات المغول مع (جنكيز خان) ومن بعده لا تزال رغم مرور سبعة قرون بادية آثارها للعيان في أواسط آسيا وغربها ، وقد شهدتها بنفسى في الأفغان وإيران والعراق ، وستبقى أجيالاً كثيرة .

وجاء من بعدهم أقوام مثلهم من المسلمين ومن الأعراب المسلمين نُزِعَتْ الرحمة من صدورهم فعاثوا في الأرض الفساد ، ولا تزال آثار الخراب الذي أحدثه بعض هؤلاء القساة من الأعراب مشهودة في شمال إفريقيا ، وقد شهدتها كذلك بنفسى بعد مرور مئات من السنين .

فالرحمة أساسُ العمران ، جاء بها موسى وعيسى ومحمد . بل هي رسالة أنبياء الله والمصلحين جميعاً . ولم يَعْظُم شأنُ دولة من الدول إلا بالرحمة صفة من صفات القائمين عليها .

وقد يظنُّ بعض الناس بما يتناقضون من أحاديث أو فكاهات عن بعض العهود للدولة العثمانية أنها كانت دولة عظيمة ، ولكن لم تكن صفة الرحمة من مميزاتها . وهو خطأ شائع لا يقف أمام البحث والتدقيق . فالعثمانيون في أيام عزِّهم ورثوا الرحمة التي نزعها الله من قلوب العرب المتأخرين ، فورثوا الدولة ، وسادوهم كما سادوا الأوربيين .

دفاع لابد منه
عن رحمة الأتراك
العثمانيين

أمثال شعبية
تشهد لهم

وقد سمعت بنفسى حديث هذه الرحمة في (بسرائيا) من رومانيا على نهر (الدينستر)، وقيل لى إن أمثلة الفلاحين في هذه الأطراف النائية للملك العثماني لا تزال تعبر عن رحمة التركي وعدله . ومنها ما يشير إلى أن العدل يُنزع مع الأتراك من الأرض . وقد لفت نظري في بولونيا ورومانيا وفي بلاد البلقان في رحلاتي المتعددة أمثلة وأساطير لا تزال تشير إلى ما استقر في نفوس هذه الأمم المسيحية من احترام التركي المسلم كرحيم عادل .

وفي سنة ١٩١٧ كنت في فينا فرؤى لى أن البولونيين مستبشرون بوصول العساكر العثمانية إلى جاليسيا مدداً للنمساويين وقتئذ ، فسألت عن السبب ، فقيل لى إن عندهم نبوءة يعتقدونها عن بعض قديسيهم بأن علامة عزهم وظهور دولتهم مرة أخرى هي أن تعود العساكر الإسلامية إلى الظهور شمال الدانوب ومن العجيب أن هذه العساكر ولو أنها جاءت مدداً لغاصبي بولندا ومقتسميها فإنه لم يمض سنة على عبورها (الدانوب) حتى استقلت بولندا حقيقة مرة أخرى وعادت دولة موحدة .

هذه الأسطورة وغيرها من الأمثال في لغات الأمم البلقانية جعلتني أتوسع في قراءة التاريخ الإسلامي في البلقان ، وقد خرجت من قراءتي ومشاهدي بأن العدل والرحمة الإسلامية هما اللذان مكنا للعثمانيين في أوروبا . وبالعدل والرحمة خرجت هذه الأمم من غيوبتها وهمجيتها وقسوتها ، وعرفت المساواة والإنصاف . ويكفي أن تعلم أن استرقاق الطوائف بأشنع صورة كان نظاماً دولياً متعاهداً عليه في أوروبا الوسطى والجنوبية إلى أن قضى عليه العثمانيون .

أكرم في زوال
عهد الإقطاع
من أرض المدايف
والبولونيين

وكانت هناك عهود دولية بين المدايف والبولونيين والمجر لتسليم كل فلاح يرحل من مزرعة سيده من (البويار) إلى أحد هذه الأوطان ، وكانت المزارع تُباع بما عليها من الحيوانات والفلاحين .

جاء العثمانيون إلى أوربا يحملون بين صدورهم عاطفة الرحمة كما أرادها صاحب الدعوة ، صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن الأتراك أكثر عدّة ولا عدداً من أية أمة من الأمم التي سادوها ، فوصلوا على رؤوسهم جميعاً إلى فينا ، تمهد لهم الرحمة صعاب الجبال والبحار والوهاد ، كما مهدت للعرب قبلهم إفريقية وآسيا . وكان للأتراك ملك عظيم ، هو السلطان سليم ، عُرف بالقسوة وذبح كثيراً من آل بيته ، ويلقبه الأتراك أنفسهم بسليم القاسى ، فخطر له أن يوحد دين الدولة ولغتها فأبى عليه شيخ الإسلام ، فامتنع حرمةً لوصايا الإسلام باحترام حقوق المسيحيين والرحمة بهم . وذلك من أثر الرحمة التي أودعها الله قلب صاحب الدعوة وأتباعه ، والتي هي ركن الإسلام المتين وصفة الله التي إذا نُزعت من الصدور دالت الدولة ، وعم الخراب حتى يستخلف الله أهل الرحمة .

موقف عظيم
لشيخ الإسلام
في عهد السلطان
سليم

انظروا إلى العالم اليوم ، وقد نُزعت الرحمة من الصدور ؛ ألم ينقلب الإنسان شراً من الوحش الضاري ؟ ألم يسبق المتحضرون في القسوة جنكيزخان ؟ . أليست الغارات الجوية على المدنيين أسوأ ما بلغه الناس من التوحش ؟ . ثم أليست هذه مقدمات الخراب العام ؟ .

هذه الرحمة التي أرسل الله محمدًا من أجلها ، ليست خاصة بالإنسان . وليعلم القارئ مكاتها من الإسلام ، نقص بعض أحكام الشريعة في الرفق بالحيوان ، ليتبين مدى عناية صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم ، ببيت الرحمة في دعوته . قال صلى الله عليه وسلم « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج ، وإذا كلبٌ يلهث ، يأكل الثرى من العطش . فقال الرجل لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ منى . فنزل البئر فملا خفه ماءً ثم أمسكه بفيه حتى رقي ، فسقى الكلب ، فشكر الله تعالى له فغفر له » . فقالوا يا رسول الله « وإن لنا في البهائم

رحمة الحيوان

بالإنسان
والحيوان
سواءً
فيما يملكه

لأَجْرًا؟» فقال: « في كلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ » .

وقال أيضا « دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض » .

وقد جاء الإسلام بالنهي عن كثير مما كان يأتیه العرب . وكان من عادة العربي أن يعذب الحيوان كشق آذان الدواب ، وربط الناقة بجوار قبر صاحبها إذا مات لتموت معه ، وغير ذلك .

وحرمت الشريعة رعى الطير للتلهى ، وعبث الأولاد بالطيور ، والتحرش بين الحيوانات كما يفعل الأسبانيون مع الثيران ، وبعض الأم بين الديوك والكلاب ، ومنعت إئصال الحمل على الدابة ، وأوجبت حسن رعايتها وسقيتها ، وإلا فللقاضى نزعها من صاحبها .

حكايات
عن الرحمة

وقد كان لهذه التعاليم أثر بالغ في البدو والمتوحشين ؛ فقد روى أن عدياً ابن حاتم ، وقد ملك الإسلام قلبه ، كان يفت الخبز للنمل ، ويقول : إنهن جارات ولهن حق .

وروى عن الشيخ أبى إسحق الشيرازى أنه كان يمشى في طريق يرافقه بعض أصحابه ، فعرض له كلب ، فزجره رفيق الأستاذ ، فنهاه وقال : أما علمت أن الطريق مشترك بيننا وبينه !...

وفي الحديث « إذا رأيتم ثلاثة على دابة فارمؤم حتى ينزل أحدهم » .
وكتب الفقه تقيضاً بأحكام الرفق بالحيوان ، مما يشير إلى مقدار ما قصدت إليه الشريعة من الرحمة بمخلوقات الله .

فالرحمة من أسس الدعوة المحمدية وأصولها ، بل هي المقصودة من إقامة الدولة . وخير للناس أن يلهوا بغير صلاة وصوم وحج ، وخير لهم أن يعيشوا بغير مساجد وبيع وكنائس إذا نزع الرحمة من صدورهم . فالدين والدولة بلا رحمة ينقلبان إلى خداع وظلم .

فاللهم أنزل الرحمة في الصدور حتى يصرف البلاء عن العالم !

الإخاء

آية هي دستور الإخاء والمساواة — تصوير عجيب لوقع البر لدى الله —
آيات في تهديد ذوى القسوة واليغل — قدامى العرب وفهم الإخاء والمساواة
— إخاء شامل بين المسلمين وأهل الكتاب — بقايا الإخاء في العالم الإسلامى
ذكرى أخوة في ألبانيا — الإخاء في العالم الإسلامى

نبسط الحديث في هذا الفصل عن الأساس الثانى للإحسان، وهو الإخاء الذى صار دعوة عالمية محببة لدى أهل هذا العصر جميعا .

كان المجتمع العربى قد قسّمته العصبية القبلية والقسوة الفردية، وكان المجتمع الإنسانى قد سادته كذلك العصبية والجنسية والفخر بالأنساب حين جهر الرسول بالدعوة إلى الإخاء صادقا ببدء الله :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . وقد نادى بالإخاء قسما وقرينا للرحمة ، وقرر أن بهما تقتحم العقبة ويسعد الناس ويدخلون الجنة « فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة ! فك رقبة ، أو إطعام في يوم ذى مسغبة ، يتيما ذامقربة ، أو مسكينا ذامتربة ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة » .

آية هي دستور الإخاء البشرى

وآيات الكتاب الكريم ، والأحاديث فى الترغيب فى الإخاء والرحمة مستفيضة .

وفى حديث قدسى : إن الله عز وجل يقول يوم القيامة « يا ابن آدم مرصت فلم تعدنى ! فيقول ابن آدم : يارب كيف أعودك ، وأنت رب العالمين ؟ ! فيقول الله : أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده ؟ أما إنك لو عدته لوجدتني عنده ! يا ابن آدم . استطعمتكم فلم تطعمني ! فيقول : يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ ! فيقول الله : أما علمت أن عبدى فلانا استطعمك فلم تطعمه ؟ !

تصوير عجيب لوقع البر لدى الله

أما إنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي . يا ابن آدم استسقيتك فلم تستقي .
فيقول كيف أسقيك وأنت رب العالمين ! فيقول استسقاك عبيدي فلان فلم
تسقه أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي .

انظر إلى هذا المعنى السامي في هذا الحديث الجليل ؛ فإن الله مع عباده في
كل لحظة وحالة وإن البر بالناس برٌّ بالله . وما هو في حاجة لبر ، ولكنه
لا يرضى إلا أن يكون كأنما البر لذاته . ولذلك لا أظن أن منازعاً يستطيع أن
ينازعنا في أن الإخاء والرحمة هما الأصل بالنسبة لمبادئ الإحسان في الدعوة
المحمدية ، كما أنهما الغاية منها ، فهي لم تترك سبيلاً من الترغيب والترهيب إلا
سلكته لتنتطوي النفوس على الإخاء والرحمة ، وتنفر القلوب من الأثرة والأنانية .
انظروا إلى هذه الآية فهي حتى في عبارتها تصعق بهولها غلاظ القلوب :

تهديد شديد
لنوى القسوة
والبخل

« كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ . وَلَا تَحَاضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ . وَتَأْكُلُونَ
الْثَرَاتِ أَكْلًا لَمًّا . وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا . كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا .
وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا . وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى
لَهُ الذِّكْرَى . يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي . فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ .
وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ . »

قدماء العرب
وفهم الإخاء
والمساواة

كانت الدعوة إلى الإخاء غريبة كالدعوة إلى التوحيد والدعوة إلى البعث ،
فأنكرها العرب الذين لا يمتثلون بغير العصبية ، ولا ينزلون للإخاء مع من
هم أدنى ، كالأرقاء والضعفاء ، وكان لا بد من حملهم عليه لأنه أساسي في نجاح
الدعوة . ولكن كيف يتم ذلك وهم المستهزون بجماعة (محمد) من المستضعفين
والعبيد وقد تأخروا في الله مع السادة والأشراف إخاء جميلاً ، حتى حُكي عن
المتكبرين أنهم قالوا مثل قول قوم نوح « ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا » .
وقد أكد الكتاب هذا المبدأ السامي ووسعه حتى شمل أخوة البشر جميعاً
فقال : « يا أيها الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . »

وإن هذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحدةً وأنا ربكم فاتقون .
ولما تَمَكَّنَتْ دَعْوَةُ الْإِخَاءِ ، فِي النَفُوسِ مِنْ اللَّهِ بِهَا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كَأَكْبَرِ
نِعْمَةٍ فَقَالَ « وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ
بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا » . وَلَمْ تَكُنِ الدَّعْوَةُ إِلَى الْإِخَاءِ قَاصِرَةً عَلَى الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ،
وَلَكِنَّهَا كَانَتْ عَامَةً . « قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ » .
« شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ
وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَنْيُمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ » . « قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ
إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى
وعِيسَى ، وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ . لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » .
فَالدَّعْوَةُ الْمَحْمُودِيَّةُ قَدْ قَامَتْ إِذَا عَلَى رِسَالَةِ النَّاسِ كَافَّةً لِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ
وَلِيَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً . وَالْأَخُوَّةُ فِيهَا هِيَ أَخُوَّةُ الْعَقِيدَةِ ، لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ
الشُّعُوبِ وَالْقَبَائِلِ ، وَالْأَبْيَضِ وَالْأَسْوَدِ وَالْأَصْفَرِ ، وَلَا الْغَالِبِ وَالْمَغْلُوبِ ،
وَلَا الْأَرَضَى وَالْأَوْطَانَ ، بَلْ تَدْعُو إِلَى أَخُوَّةٍ حُدُودِهَا الْبَشَرِيَّةُ ، تَحْرِّمُ الْاِعْتِدَاءَ ،
وَتَدْعُو إِلَى سَبِيلِ اللَّهِ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، حَتَّى فِي حَالَةِ النَّزَاعِ مَعَ
الْمُعْتَدِينَ وَرَدَّهِمْ عَنْ عُذْوَانِهِمْ بِالْحَرْبِ ، فَإِنْ فِكْرَةُ الْأَخُوَّةِ الْبَشَرِيَّةِ تُتَّخَذُ أَيْضًا
نَبْرَاسًا يَهْتَدَى بِهِ الْمُؤْمِنُونَ فِي ظِلَامِ الْحَرْبِ ، فَهُمْ لَا يَحَارِبُونَ لِلْفَتْحِ ، وَلَا لِلْسَابِ
وَلَا لِلْقَهْرِ وَإِذْلَالِ النَّاسِ ، وَإِنَّمَا لِحُرِّيَّةِ الْعَقِيدَةِ . « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ
الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ » « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ » .

إِخَاءٌ شَامِلٌ بَيْنَ
الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلِ
الْكِتَابِ

حَتَّى فِي حَالَةِ الْحَرْبِ مَعَ الْمُؤْتَمِنِينَ ، يُعْتَبَرُ الْإِسْلَامُ الْأَخُوَّةُ الْبَشَرِيَّةُ أَصْلًا
فِي النَّزَاعِ ؛ فَالْمُؤْمِنُ الَّذِي يُعْتَقِدُ أَنَّ الْوُثْنِيَّةَ هِيَ أَسْوَأُ مَا يَصَابُ بِهِ الْإِنْسَانُ فِي
رُوحِهِ وَعَقْلِهِ وَمَصِيرِهِ ، إِنَّمَا يَرِيدُ لِلْوُثْنِيِّ أَنْ يَنْجُوَ مِمَّا هُوَ فِيهِ ، وَمَا هُوَ مُعَرَّضٌ

له من غَضَب الله ، فإذا قَسَا عليه لِيَرُدَّهُ عن كفره ، فإنما يريد بذلك رَحْمته وهو معترف بأخوته كما قيل :

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا ، وَمَنْ يَكُ حَازِمًا فَلْيَقْسُ أَحْيَانًا عَلَى مَنْ يَرْحَمُ

وهذا الوثني الذي يحاربه المؤمن متى كان مُعْتَدِيًا ، يستحق من المؤمن جميع الحقوق بمجرد تسليمه لله ، ويصبح مساويا له تمام المساواة ؛ فهو إذا لا ينازعه لنكران أخوته ، أو لعدم الرغبة في رحمته ، بل لتام هذه الرحمة أو هذه الأخوة فنستطيع إذا أن نقول : إن الرحمة والإخاء أصلان من أصول الدعوة الإسلامية مقصودان لذاتهما ولأثرهما ، حتى في أشد حالات النزاع والخلاف والحرب ، وإن الأخوة العامة هي مقصد أسمى للرسالة المحمدية ، لا كما يدعى بعض الأجانب ، ولا كما يظن بعض الحَقَّيق من أن الإسلام دين حرب وقسوة وقهر .

وعليه فالإحسان أو العمل الصالح ، أن نسعى إلى الإخاء العام وأن تكون الرحمة شعارنا وهدينا في كل زمان ومكان .

وقد كان للدعوة المحمدية أثرها العظيم في هذا ، بل كان أكبر معجزاتها ما أحدثته من أخوة بين طوائف من البشر كانت أشد الأقوام تدابرا وتناكرا وشقاقا . ولو قلبنا صفحات التاريخ قبل الإسلام ، ونظرنا فيها إلى حال الأمم التي دانت بالدعوة المحمدية فيما بعد ، ما بين جبال الهملايا وجبال البرانس ، في طول الدنيا شرقا وغربا ، لأدركنا الأثر الهائل الذي أحدثته الدعوة إلى الأخوة والتراحم في نفوس مئات الملايين من البشر على ممر هذه القرون .

ولا تزال هذه الأخوة التي دعا إليها محمد صلى الله عليه وسلم أحسن ما بقي في نفوس مسلمي اليوم ، رغم ما هم عليه من بُعد عن روح الإسلام ، فهي

الإخاء معجزة
الإسلام

بقايا الإخاء في
العالم الإسلامي

متجلية فيهم لمن يرحلون في أطراف الأرض الإسلامية كما تجلت لابن بطوطة قبل سبعة قرون ، ولمن قبله ومن بعده .

ذكرى إخاء
في ألبانيا

وقد شعرتُ بها لأول مرة في شبابي في جبال الأرئوط بألبانيا ؛ فقد دخلت تلك البلاد ولا عهد لي بها ولا معرفة بأحد من أهلها . وكان طريقى إليها من بحر الأدريانيك ، فنزلت (بكاترو) وذهبت إلى (ستنجه) عاصمة الجبل الأسود وقتئذٍ ، وكان أهل الجبل في حالة حرب مع الدولة العثمانية ، وكنت مُتسكراً بصفة مراسل لجريدة إنجليزية ، أقصد التطوُّع مع المدافعين عن (أشقودره) من الترك والألبان ، فلمحت في المدينة اسماً إسلامياً على دكان ، فقدمتُ نفسى إلى صاحبه ، وكانما كنّا على موعد ! رغم أن حديثنا كان بالإشارة . وما لبث أن جاء لى بفقيره يعرف قليلاً من العربية ، فتفاهمنا ، وتولّى الرجل بعد ذلك أمري كله حتى وصلت إلى أشقودره ، وتنقلت في بلاد الأرئوط من الشمال إلى الجنوب ، يوصى بعضهم بعضاً بى . ولو كنتُ بين أهلى ما وجدت منهم حباً أكثر مما أوجدته لى الأخوة الإسلامية في تلك الأيام العصيبة ، أيام حرب البلقان . بل إنى لأزالُ أذكر أنهم أوجدوا لى في كل بلد من يعرف العربية ومن يُلازمى لخدمتى ومعاونتى .

وهذه الروح ذاتها هى التى وجدتها في شمال إفريقيا أثناء الحرب العامة من مصر إلى الجزائر . وهى التى لمستها في الهند حينما كان الناس يحفون بى ويستبشرون ، ولما علموا أن مصر صارت دولةً مستقلةً ، وأننى رسولها إلى الأفغان فرحوا كما نما أيام عزهم قد أقبلت !

هذه الروح التى خلقتها الدعوة المحمدية إلى الأخوة ، هى التى شهدتها كذلك في إيران والأفغان وتركيا والعراق والشام والحجاز وغيرها ، وفي كل جولة من جولاتى في بلد لا تزال للإسلام أو بقى فيها مسلمون ، وهى التى يخرج بها مُعترّاً الأفغانى من المشرق أو الفلاتى من أقصى إفريقيا الغربية فيطوى

آلاف الأميال سيرا إلى مكة، متوكلا؛ لأنه يمشي من أهل إلى أهل، ومن إخوان إلى إخوان، حتى يرد المكان الذي جهَرَ فيه محمد بالدعوة إلى هذه الأخوة العامة. كنتُ مرة قاصدا من الرياض عاصمة نجد إلى مكة، وبينهما سَفَرُ خمسة أيام بالسيارة، ففي اليوم الثاني لاح لي رجلان عُمَشان، فوجهت السائق ناحيتهما، وسألتُهما أصلُهما وقصدُهما، فلم يفهما لُجُمَتُهما، إذ أنهما كانا من (قندهار) بالأفغان، وكان موسم الحج مُقبلا، فأدركتُ أنهما يريدان الحجَّ فشَقَّ عليَّ أن أتركُهما وحلتُهما معي إلى مكة. وفي الليالي التي قضيناها بالطريق، رَغِمَ جهل بعضنا لغة بعض، كانت رُوح الأخوة ناطقة بكل حاسَّة. ولولا هذه الأخوة لما طَوَى هذان الرجلان الأرضَ، لا يَمْلِكُ كان شيئا من الدنيا إلا أن الدعوة المحمدية قد آخَتَ بينهما وبين البلوش والفرس والعرب ممن تنقلوا في أوطانهم. نعم إن هذه الأخوة تَضَعُ في أقطار المسلمين بضعف التدين وقيام النعرات الجنسية. وأعظم من ذلك يسيطر المادَّة على النفوس، فهي تكاد تُقْضِي على الأخوة في البيت والأسرة الواحدة.

وقد كان أثر الدعوة المحمدية إلى الإخاء والرحمة أعظمَ ظهورا في تاريخ المسلمين من أية دعوة مُمَثِّلَةٍ في التاريخ البشري. وإذا اعترض معترض بما بين اليهود من تعاون، فإن هذه حالة شاذة سببها دوام اضطهاد جماعتهم وتشتُّبها ووجودها في حالة أقلية، ولأن ما بين اليهود هو عصبية عنصرية جنسية مبعثها الدم وليس العقيدة التي تدعو إلى الإخاء الإنساني. أما الأخوة التي دعا إليها محمد صلى الله عليه وسلم وأقامها الإسلام في النفوس، فكانت أعزُّ أيامها أيام العزِّ السابق، وقد حملها العثمانيون إلى شَرْقِ أوروبا، كما حملها العرب من قبل إلى غرب أوروبا ومجاهل إفريقيا وآسيا، فكان الناس تحت رايَتهم سَوَاسِيَةً كأَسنان المُشْطِ، لا فضل لعربيٍّ على عجميٍّ إلا بالتقوى والعافية، ولا سلطان لمسلم على غير مسلم إلا بما تقتضيه حدود الله.

إخاء ليس له نظير

وقد كان أهل الملل الأخرى في الدول الإسلامية أهل ذمّة، لهم مالهم مسالمين
وعليهم ما عليهم، فلهم ما يقتضيه العدل والرحمة، وعليهم ما يقتضيه الإخاء.
والآن، وهذا العالم المضطرب، يأكل قويته ضعيفه، والناس في أنكر
صور القسوة يتقاذفون بالهول ليحجثوا مغاير وأسلاباً لا شك أنهم في أشد الحاجة
إلى التذكير بدعوة الإخاء والرحمة، ولظهور هذه الدعوة قوية عزيزة، كما كانت
ولله الأمر من قبل ومن بعد.

في اصلاح الاجتماعى

٢

في اصلاح الاجتماعى

التطهير الخلقى للفرد

نموذج الإنسان الكامل — أثر القدوة العملية — أثر العقيدة في توجيه
الخلق للخير العام — عبد الملك بن مروان وأبو حازم — التاجر الناصح القانع
نظرة عمرية لحقيقة الصلاح

كانت الدعوة الإسلامية ثورة اجتماعية مهمما قلبنا عن شبيه لها في الشرق والغرب، والقديم والحديث، فلن لا نجد لها مثيلاً.

وأعظم آثار هذه الثورة هو الانقلاب الخلقى والنفساني الذي أحدثته محمد صلى الله عليه وسلم بعمله ومثله وشخصه، وأحدثه بمبادئه، فكان نتيجة ملازمة ومباشرة لدعوته. وهو أساس مراتب الإصلاح الاجتماعى؛ لأن صلاح الفرد أساس صلاح الجماعة.

. يقول تعالى في وصف محمد صلى الله عليه وسلم «وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ» ويقول محمد صلى الله عليه وسلم «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ». «أَدَبِي رَبِّي فَأَحْسِنَ تَأْدِيبِي».

وحقاً تمثلت الأخلاق الفاضلة في شخصه الكريم؛ فالصدق والبر ومعرفة الواجب وأداؤه والحلم والحياء والصبر والشجاعة والعزة والتواضع والعفة والوفاء كل أولئك كان بعض صفاته البارزة التي قرَّبته إلى القلوب، فتعلق الناس به، وتركوا في حبه جاهليتهم وآباءهم وأبناءهم.

نموذج الإنسان
الكامل

وقد أدرك العلماء من غير المسلمين هذه الحقيقة في شخص محمد صلى الله عليه وسلم، ولكنهم لم يوفقوا للإيمان به رسولا من الله تعالى، ولعل ذلك أثر من آثار البيئة فيهم.

كنت مرة في (لندره) أتحدث في القطار إلى السير (دنسوف روس) وكان من العلماء المستشرقين فذكرنا محمداً صلى الله عليه وسلم. فسألت: هل يعتقد أن محمداً كان يُنَافِق ويكذب؟ فقال كلا. إن صدقه واستقامته

لا شك فيهما ، ولكنه كان هو مَحْدُوعاً ، يعتقد أنه يُوحَى إليه ولم يكن يعمل إلا بما يعتقد .

فهاهى ذى القرون تتابع ، وأخلاقُ محمد صلى الله عليه وسلم من الوُصُوح والقوة بحيث لا يستطيع أن ينكرها عليه جاحد برسالته . مُصَدِّقاً لقوله تعالى : « فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَحْجِدُونَ » .

كان لِمَثَلِهِ الشخصى أكبر الأثر فى الانقلاب الروحى والخلق الذى تم فى أيامه وبعد وفاته . وكذلك كان أثرُ المبادئ التى سنّها ، والعقيدة التى دعا إليها . فبادئ المساواة والإخاء والعدالة والحرية التى جعلها أجزاءً مُتَمِّمةً للإيمان قد فعلت فعلها فى إصلاح الأخلاق والسمو الروحى للجماعة . وكذلك فعلت

عقيدة الإيمان بالله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله السلطان ، بيده النفع والضرر والمنع والعطاء ، تتساوى الناس فى ملكوته وفى العبودية له ، فسمّا بالروح البشرية وحررها ووجهها إلى الخير العام وقصد وجه الله التقدير الذى بيده كل شئ ، وجعل مناط الأعمال النية التى يعلمها ويحيط بها علام الغيوب . فهياً بهذه العقيدة السبيل إلى الأخلاق الفاضلة .

فالذى يدين بها لا يكذب ، لأن الكذب لا يخفى على الله ولا ينفع صاحبه ، فصار الصدق من دعائم الأخلاق فى الدعوة المحمدية ، وصار الرياء والتفّاق يُبعد عن الله ، ولا يُكسب الأعمال إلا بواراً ، واستحال بذلك على المسلم المؤمن أن يكون كاذباً أو مُرائياً .

والمؤمن شجاع الرأى والقلب لا يهاب الموت ، لأن الذى يملكه هو الله وحده ، وبذلك ترتفع نفسه إلى العزة والإباء والاستشهاد فى الحق ، وترفض الظلم أو التحقير إن وقع عليه أو على إخوانه من عبيد الله .

والمؤمن بهذه العقيدة لا يكون جباناً مستسلماً ، بل يحياً مُناضلاً ، يدفع شرور الحياة عن نفسه وعن الناس بحياته .

أثر القدوة
العملية

العقيدة وأثرها
فى التوجيه للخير

المؤمن يعتقد أن الله هو الذى يُعطى وَيَمْنَع وَيَرْزُق من يشاء بغير حساب ، فلا يَبْخُل بما فى يده ، بل يَبْذُل إرضاءً لهذا الرازق وطلباً لبرّه وكرمه ، ويعيش سَخِيًّا كريماً سَمَحاً مع إخوانه عِبَادِ الله .

كذلك لا يَكُونُ المؤمنُ أَنَانِيًّا ، فإن عقيدته تمنّعه من أن يَحْتَصَّ نفسه بالمتاع ، وهو يعلم أن فى ذلك حرماناً لِعِيَالِ الله من المُشَارَكَةِ فى فَضْلِ الله ، فهو إنسانٌ يَكْمُلُ إنسانيته بالشعور بجنسه ، يعيشُ بنفسه وأهله وجيرته وأُمَّته والناس جميعاً .

هو حَسَنُ المعاملة والعِشرة وَفِي وَدُودٍ ، لأن كل ذلك من مِثْمَاتِ إيمانه ومُسْتَلْزَمَاتِ خضوعه للذاتِ العَلِيَّةِ التى رَفَعَتْه واستَخْلَقَتْه فى الأرض .

فالعقيدة الإسلامية التى دعا إليها محمد صلى الله عليه وسلم ، والتى مكّنها فى نفوس أصحابه وأتباعه هى بذاتها الدَّعَاةُ الكُبْرَى للإصلاح الاجتماعى ، فقد نَشَأَ عنها وترتّب عليها حياةٌ رُوحِيَّةٌ خُلُقِيَّةٌ فاضلةٌ ، لها المَقَامُ الأوّل فى نفس المسلم ، وما بعدها من مادّةٍ إنما يَكْسِبُ قيمته وأهميته بقدر صلاحه لإعزاز هذه الرُوح وتعميقها .

وفى المُجْتَمَعِ الإسلامى الذى تَسُوذُهُ العقيدةُ الصحيحة لا يمكن أن تُسَيِّطِرَ المادّةُ على الأفكار والأعمال والأخلاق والتصرّفات البَشَرِيَّةِ سيطرةً تشبه فى قليل أو كثير ما يُعَانِيهِ العالمُ اليومَ من سيطرة المادّة .

رَوَى أن سليمان بن عبد الملك الخليفة الأمويّ قَدِمَ المدينةَ للزيارة ، وبعث إلى أبي حازم ، فلما دخلَ عليه قال : تكلم يا أبا حازم قال : نعم أتكلم يا أمير المؤمنين : لا تأخذُ الأشياءَ إلا من محلّها ، ولا تَضَعُها إلا فى أهلها . قال : ومن يَقْوَى على ذلك ؟ قال من قَلَدَهُ اللهُ من أمرِ الرّعيّةِ ما قَلَدَكَ . قال : عِظْنِي يا أبا حازم . قال : اعلم أن هذا الأمرَ لم يَصِلْ إليك إلا بموت مَنْ كان قبلك ، وهو

سليمان بن عبد
الملك وأبو حازم

خارج من يديك بمثل ما سار إليك . قال : مالك لا تجيء إلينا ؟ قال وما أصنع بالمجيء إليك يا أمير المؤمنين ؟ إن أدنيتني فتنتني ، وإن أقصيتني أخزيتني ، وليس عندك ما أرجوك له ، ولا عندي ما أخافك عليه . قال : فارفع إلينا حاجتك . قال : قد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها ، فما أعطاني منها قبلت ، وما منعتني رصيت .

ذلك هو أثر الدعوة المحمدية في أخلاق الرجال ، ترفعها وتطهرها .
وتاريخ الصحابة والتابعين ، بل تاريخ المساميين في جميع الأقطار يفيض بصفحات من الأمثلة العالية في الورع وحسن المعاملة والبعد عن الفحش والإخلاص في النصيح لعباد الله .

يروى أنه كان عند يونس بن عبيد حُلَّةٌ مختلفة الأثمان ، ضرب قيمة كل حُلَّةٍ منه أربعمائة ، وضرب كل حُلَّةٍ قيمتها مائتان ، فرأى إلى الصلاة وخلف ابن أخيه في الدكان ، فجاء أعرابي وطلب حُلَّةً بأربعمائة ، فعرض عليه من حُلل المائتين فاستحسنها ورَضِيها واشتراها ، فضى بها ، وهى على يديه فاستقبله يونس فعرف حُلَّتَهُ . فقال للأعرابي بكم اشتريت ؟ فقال : بأربعمائة . فقال : لا تساوى أكثر من مائتين ، فارجع حتى تردّها . فقال : هذه تساوى في بلدنا خمسمائة وأنا أرَضِيها . فقال له يونس : انصرف فإن النصيح في الدين خير من الدنيا بما فيها ، ثم ردّه إلى الدكان ، وردّ عليه مائتي درهم وخاصم ابن أخيه في ذلك وقال له : أما استحييت ؟ ! أما اتقيت الله ؟ ! تبيع مثل الثمن وتترك النصيح للمسامين ! . فقال والله ما أخذها إلا وهو راضٍ بها . قال : فهلا رَضِيتَ له بما ترَضاه لنفسك ؟ ! وروى عن محمد بن المنكدر أن غلامه باع لأعرابي في غيبته شُقَّةً من الخمسيّات بعشرة ، فلم يزل يطلب ذلك الأعرابي طول النهار حتى وجده . فقال له : إن الغلام قد غلط فباعك ما يساوى خمسة بعشرة . فقال يا هذا قد رَضِيتُ . فقال وإن رَضِيتَ فإننا لا نَرْضى لك إلا ما نَرْضاه لأنفسنا ، وردّ عليه خمسة .

التاجر الناصح
الزاهد

تلك أخلاق من تمكنت الدعوة المحمدية من نفسه ، فعمل بقوله صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .
فالمسلم لا يخدع ولا يغش ولا يغبن .

قيل لعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه : ما سبب يسارك ؟ قال : ثلاث ما رددت ربحاً قط ، ولا طلب مني حيوان فأخرت بيعه ، ولا بعثت بنسيئة .
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رَحِمَ اللهُ أَمْرًا سَهْلَ الْبَيْعِ ، سَهْلَ الشِّرَاءِ ، سَهْلَ الْقَضَاءِ ، سَهْلَ الْاِقْتِضَاءِ » .

وكذلك كان أثر الدعوة المحمدية حاسماً فيمن اهتدوا بهديها ، وكان الدين المعاملة ، فلم يكن تنطعاً ولا تكلفاً ولا تظاهراً ، بل إيماناً وعملاً ظاهراً وباطناً ، لأن الله أحق أن يخشاه الناس من خشية بعضهم بعضاً .

شهد عند عمر رضى الله عنه ، شاهد . فقال : اتنى بمن يعرفك . فأتاه برجل ، فأثنى عليه خيراً . فقال له عمر : أنت جاره الأدنى الذى يعرف مدخله ونخرجه ؟ قال : لا . قال كنت رفيقه فى السفر الذى يستدل به على مكارم الأخلاق ؟ قال : لا . قال : فعاملته بالدينار والدرهم الذى يستين به ورع الرجل ؟ قال : لا . قال : أظنك رأيته قائماً فى المسجد يهيمهم بالقرآن ، يخفض رأسه تارة ويرفعها أخرى ؟ قال : نعم . فقال : اذهب فلست تعرفه ! . وقال للرجل اذهب فأتني بمن يعرفك

نظرة عمرية
لحقيقة الصلاح

التكافل

أمة واحدة — جماعة المسلمين تقوم على التكافل — مسئولية الفرد ومسئولية الجماعة — إيقاظ ضمير الفرد وضمير الجماعة — حراسة الرأي العام — عزائم الأمور بالمعروف والنهي عن المنكر — العلاج بالتشريع — مرد الإصلاح عامة إلى الإحسان — تكافل المهاجرين والأنصار — مثل من التكافل في قبائل الطوارق

يقول تعالى « إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون » ويقول صلى الله عليه وسلم « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عَضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى » .

والفرق بين الإسلام وأكثر الملل الأخرى أنه لم يكتفِ بتنظيم العبادات وترك ما وراء ذلك لقيصر أو لغيره من الناس ، بل نظم المعاملات والعلاقات والحقوق والواجبات بين أفراد الأسرة ، وأفراد الأمة ، وبين الأمم المختلفة ، وجعل هدفه الأول المجتمع وصلاحه ، حتى إن العبادات نفسها قد تكون من وسائل هذا الإصلاح . والأمة الإسلامية في المجتمع البشري وَحْدَةٌ مُؤَثَّقَةٌ العُرَى ، متساندة متكافلة متعاونة تدفع ما يتطرق إليها من الفساد بوحدة أعضائها ومجموعها .

هذا التكافل الاجتماعي واضح في جميع نواحي الدعوة المحمدية ، وأظننا لو قلبنا تاريخ البشر لانبجس حالة ظهر فيها التكافل والتعاون والتراحم بين جماعة ما ظهوره في جماعة المسلمين في العصور الأولى ، بل في كل عصر من العصور قبل أن تلتفت العقول وتفسد القلوب ويفتن الناس بالحضارة الأوربية الحديثة إن مسئولية الفرد في المجتمع الإسلامي عن الجماعة ، ومسئولية الجماعة عن الفرد ، مسئولية عظمى هي أمانة الحياة ومناط تكليفاتها ، ولذلك كره الإسلام ذلك في العبادة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ

مسئولية الفرد والجماعة

فيه برِّفَق فإنَّ المُنْبَتَّ لا أَرْضًا قَطَعَ ولا ظَهْرًا أَثْبَتِي « كما كَرِهَ للجماعة أن تهمل
العناية بالفرد وأوجب عليها أن تصوِّنَ مصالحه ، وتحترم حقوقه وحريته ،
وتوفق بين المصالح المختلفة ، وفضل الصلاة في جماعة على صلاة الفرد وحده
بـ سبع وعشرين درجة .

فالفرد في المجتمع الإسلامي جزء في كُُلِّ ، يكمله ويكتمل به ، ويُعطيه
ويأخذ منه ، ويحميه ويحتمي فيه .

هذه المسؤولية الفردية عن الجماعة ، وهذه المسؤولية الجماعية عن الفرد ، هما
أولى وسائل الإسلام في الإصلاح والتكافل الاجتماعي . وقد أكَّد الإسلام
معاني هاتين المسئوليتين في ضمير الفرد وضمير الجماعة ، ليضمن للمسلمين حياة
الجسم الواحد الصحيح القوي السعيد المنتج ، فقال للفرد : « أنت على ثغرة
من ثغرة الإسلام فلا يؤتَيْن من قبلك » الحديث .

إيقاظ ضمير الفرد
و ضمير الجماعة

« كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْأَمِيرُ رَاعٍ وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى
أَهْلِ بَيْتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ
عَنْ رَعِيَّتِهِ » الحديث .

« أَوْحِيَّ إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرْ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ » الحديث .
أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ . فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ . وَلَا يُحْضِضُ عَلَى طَعَامِ
الْمَسْكِينِ « الآية « وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ » .

وجعل في دعاء الفرد قوله : « وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا »
إلى آخر النصوص التي توجه قلب الفرد للجماعة وتُدْجِجُه فيها إدماجاً تاماً .

وقال للجماعة . « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ » الآية
« الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ ، وَيَسْمَعِي بِدِمَتِهِمْ أَدْنَاهُمْ ، وَهُمْ يَدْعُو عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ »
الحديث « انصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا » فقال رجل : أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا ،

أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصَرُّهُ؟ قَالَ: «تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ، فَإِنْ ذَلِكَ نَصَرُّهُ»
الحديث.

وضرب مثلاً رائعا لوصاية الجماعة على الفرد ومسئوليتها إزاء جنائياته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إِنَّ قَوْمًا رَكِبُوا سَفِينَةً فَاقْتَسَمُوا، فَصَارَ لِكُلِّ مِنْهُمْ مَوْضِعٌ، فَمَقَرَّ رَجُلٌ مِنْهُمْ مَوْضِعَهُ بِفَأْسٍ، فَقَالُوا لَهُ: مَا تَصْنَعُ؟ قَالَ: هُوَ مَكَانِي أَصْنَعُ فِيهِ مَا أَشَاءُ. فَإِنْ أَخَذُوا عَلَى يَدِهِ نَجَا وَنَجَوْا، وَإِنْ تَرَكُوهُ هَلَكَ وَهَلَكَوْا».

هذا التقابل بين الفرد والجماعة في المسؤولية العامة عن المصالح هو أساس مقاومة الآفات الاجتماعية، وجميع وسائل الإصلاح لا تُنتجُ نتائجها إذا لم تكن قبلها هذه الوسيلة.

وخلافة الإنسان عن الله في الأرض ووصايته على مقدراتها، لا تتحققان إلا بهذا التكافل الاجتماعي.

فعلى الذين يريدون مقاومة الآفات الاجتماعية أن يُوقِظُوا أولاً ضمير الفرد للجماعة وضمير الجماعة للفرد، وأن يؤكِّدوا معاني المسئوليتين السابقتين، حتى يُحسَّ الفرد إحساس البُنوة والبر بالجماعة، وتُحسَّ الجماعة إحساس الأُمومة والرعاية للفرد.

ينشأ من إدراك المسئوليتين السابقتين والاضطلاع بهما، ما يسمى حديثاً «الرأى العام» ذلك الحارس اليقظ لـسكيان الأمة إذا كان مبنياً على بصيرة ووَحدة في القصد والمهدف، وهو السلطة الرهيبة التي تقوم الحكام والأفراد، وبه تهتز الأمة وينتفض جسمها انتفاضة الغضب إذا أصابه سوء أو فساد، كما يهتز جسم الفرد وينتفض لما يُصيبه من مكروه، وهو أمضى سلاح للقضاء على الآفات الاجتماعية، يفعل ما لا تفعل القوانين. وهو العين الساهرة على تنفيذ

حراسة الرأى العام

القوانين ، واحترام القواعد الأدبية ، والسنن الصالحة التي أقرها المجتمع .
ولذلك غنى الإسلام بتكوينه كقريب يهذب من شذوذ الفرد ، ويحد
من غلو الجماعة ، فجعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أكبر عزائم
الإسلام وأعظم أسس الحياة الاجتماعية الصالحة .

عنازم الأمر
بالمعروف والنهي
عن المنكر

قال القرآن « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون
بالمعروف وينهون عن المنكر » وقال « ولتكن منكم أمة يذكرون إلى الخير ،
ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » وفي الحديث
النبوي الشريف « لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماءهم فلم ينتهوا ،
فجالسهم في مجالسهم وواكلوهم وشاربوهم ، فضرَب الله قلوب بعضهم ببعض ،
ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم ؛ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » . ثم
جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان مُتَكِنًا ، وقال « لا والذي نفسي
بيده ! حتى تأطروهم على الحق أطراً » أي تعطفوهم وتميلوهم .

فكل ما هو من حق الله أو حق الجماعة ينبغى ألا يجامل فيه إذا اعتدى
عليه مُقْتَدِرًا كائناً من كان .

وأكبر آفاتنا الاجتماعية ناشئة من أن الرأي العام الصالح لم يتسكون .
فكثيراً ما نرى أفراداً يجاهرون بالاعتداء على حرُمات الدين والدولة والحقوق
العامّة ، ومع ذلك لا يحرّك الجمهور ساكننا للإيـنكار أو الاعتراض ، ذلك لأن
الجماعة هنا تمشي في دُھول عن نفسها وحقوقها وواجباتها ؛ إذ هي جماعة مُوزَّعة
مشتتة الأهواء غير متجانسة التريسة والتعليم ، التريسة والثقافة فيها غير
مطبوعتين بطابع واحد ، قد صبّت فيهما جداول مختلفة بلبكت أخلاق الأمة
وتفكيرها وإيمانها ، وجعلت الشيء الواحد حسناً وقيحاً لديها في آن واحد :
حسناً لدى جماعة وقيحاً لدى أخرى .

فتقدير المسؤولية الفردية ومسئولية الجماعة ، وإيجاد الرأي العام الصالح

لا يكون إلا بالدعوة والإقناع ، ومتى أدرك الكل الحقوق والواجبات إدراكاً صحيحاً ظهر الرأي العام موحدًا وقويًا ، فيقوم المعوج ويصلح الفاسد .

فالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة التي تصل إلى أعماق النفوس فتبذر بذور الخير وحب الحق وتجتث أصول الشر وأسباب الآفات ، هي الفاتحة التي لا بد منها .

ومفتاح كل أمر من أمور الإصلاح هو الوصول إلى النفس أولاً . وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فقال « إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ » .

وقد كان الإرشاد الاجتماعي المبني على الإقناع أحد الأسلحة القوية التي لجأ إليها الإسلام للإصلاح الاجتماعي ؛ فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقرع الأذان بالقرآن والحديث ليصل إلى القلوب والعقول ، حتى تعرف الحق وتذكر الرشد ، وتقوم عليها الحجة ويسقط غدرها أمام نفسها وأمام الله ؛ ولذلك سبق عهد الدعوة عهد التشريع والإلزام ، ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس ثلاث عشرة سنة ، حتى تسربت دعوته إلى قلوب القوم واشتغلت بها أنديةهم فتساءلوا عن نبيها العظيم .

فلما انتشرت الدعوة ، ووجد الرأي العام لها في المدينة ، ابتدأت مرحلة العلاج بالتشريع والإلزام .

كذلك عالج الإسلام آفات المجتمع العربي وقتئذ بالدعوة ثم بالتشريع . واليوم ، على الذين يريدون علاجها أن يسلكوا هذه السبيل ، فيجب أن يتخذ الدعوة أساساً للإصلاح قبل التشريع ، ويجب أن يُلحظ التدرج في التشريع وترك الطفرة ، حتى يتهيأ الجو الصالح وتستمد أعصاب الجماعة لقبول ما يليق عليها من الأوامر والإلزامات .

وقصة تحريم الخمر في الإسلام بالدعوة أولاً ، وبالتدرج في التشريع

ثانياً ، تبين لنا أسلوب الإسلام في التوصل إلى أغراضه خطوة خطوة .

قلنا إن الإسلام اتخذ الدعوة وسيلة للإصلاح الاجتماعي ، ثم لجأ إلى التشريع لحماية مقاصد هذه الدعوة ، وقد جعل الحياة كلها ترمى إلى الإيمان والإحسان في العمل فهو يحدد للفرد والجماعة الحقوق والواجبات على أساس هذا الإحسان . فكل تكليف وكل حق ينشأ في المجتمع الإسلامي إنما ينشأ بسبب واحد هو الإحسان للفرد أو للجماعة . وأى عمل من شأنه أن يباعد من الخير أو يقرب من الشر ، سواء أعاد هذا العمل على صاحبه أم على غيره ، فهو محرم .

مرد الإصلاح
عامة إلى الإحسان

لذلك نجد الإسلام قد تناول جميع نواحي الحياة ، وحدد فيها المسئولية لتحقيق قصده ، وهو الحياة السعيدة التي يريدها للناس في هذه الدنيا ، والتي جعلها وسيلتهم لحياة أرقى وأسعد في الآخرة .

فمثلاً يقول نبي الإسلام « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » إلى آخر الحديث السابق . فلم يخل أحدًا من مسئوليته عن الآخر ، فأمر المؤمنين مسئول عن المؤمنين ، ووكلاؤه وأمناءه مسئولون عما بين أيديهم من سلطته ، ورب الأسرة مسئول عن أسرته ، والمرأة مسئولة عن بيتها ، والفرد مسئول عن نفسه وجاره ، وكل فرد في المجتمع الإسلامي مسئول عن حسن قيام المجتمع كله ؛ لأنه مكلف كما قلنا بالعمل والدعوة لإصلاح هذا المجتمع ، وبالتواصي بالحق والتعاون على البر والتقوى .

وهو مكلف بكل أولئك لغرض واحد ، هو الإحسان قاعدة الإسلام الثانية بعد الإيمان وليس أجمع لمقاومة الشر وآفات المجتمع من التربية الإسلامية التي جعلت هذه المسئولية تهبط من الأسمى إلى الأدنى ، وتصعد من الأدنى إلى الأعلى ، فهي التي تشد البناء الإسلامي وتمسكه من الخلل .

تكافل المهاجرين
والأنصار

اتخذت الدعوة الإسلامية لتدعيم التضامن والتكافل بين المسلمين وسائل
شقي، حتى آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار في المدينة ذلك الإخاء الذي
حل محل النسب والقربى.

ونشأت بالدعوة المحمدية جماعة متضامنة موحدة هي مصدر السلطات
جميعا، رأيها شرع، وقولها فصل، وأصبحت هذه الجماعة تكفل أفرادها كما
أصبح أفرادها قوًى حيّة مسئولة لا يتم إيمانها، ولا يكمل دينها إلا بالإخلاص
للجماعة والتفاني فيها، والفناء في سبيلها. « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله
أموالاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ».

وقد شهدت في بعض الجماعات الإسلامية التي احتفظت بتقاليد المسلمين
تضامناً وتكافلاً لا نظير له، لا يتمنى المصلح الاجتماعي أحسن منه لآية
جماعة بشرية.

مثل من التكافل
في قبائل الطوارق

رأيت بعض قبائل (الطوارق) في شمال إفريقيا يحيون حياة هذا التكافل
السعيد، فليس فيهم من يعيش لنفسه، وإنما لجماعته. وأعظم ما يفخر به ويعتز به، هو
ما يصنع لهذه الجماعة. وأول ما لفت نظري لحالتهم هذه أن رجلاً من أهل الحضر
هاجر من الفرنسيين ونزل بينهم في فزان، فجاورهم وعاش بفضلهم، ثم خرج
يطلب الرزق ويريد أن يردّ الجليل، وترك أسرته في جوار هذه الجماعة الإسلامية.
غير أن النحس لازمه ولم يستطع كسباً، فجاءنا في (مصراته) يستمدّنا فأعناّه
ليعود إلى أهله، ولما عاد إلى بعد نحو سنة مرة أخرى فظننت أنه رجع من
أهله، فقال لا، وإنما الآن أستطيع الرجوع إلى أهلي، فقلت وكيف ذلك؟
قال: بعد لقائنا الأخير اتجرت بما حصلت عليه وأصبح الآن في يدي ما أعود
به إلى جماعة الطوارق. فقلت: إلى أولادك أم إلى جماعة الطوارق؟ قال: إلى
الطوارق أولاً، فهم آوؤا أولادي في غيبتى، وأنا سأكفل أولاد من أجده
غائباً منهم، وأقسم ما أعطى الله بين أولادي وأولاد جيرانى.

فقلت : هل تعيش جماعتكم كلها كما تعيش أنت مع جيرانك ؟
قال : كلنا في الخير والشر سواء ، والفضل لصاحب الفضل ، والواحد
من جماعتنا يستحي أن يعود إلى التجمع خالياً ، لا حياة من أهل بيته ، بل حياة
من جيرانه الذين ينتظرون عودته كأهل بيته سواء بسواء .
ليست جماعة الطوارق هذه أو أضرابها من أهل البادية وسكان القفر
مختصة بهذه الروح الجماعية ولا هي من مستلزمات عصبيتها ، وإنما هي الروح
الإسلامية أكثر ظهوراً في هؤلاء الذين لا يزالون بمنزلة من الحياة الحديثة المادية
وقد وجدت هذه الروح في الدسائر والقري الإسلامية التي لا تزال مطبوعة
بالطابع الإسلامي ، سواء أكان أهلها عرباً أم عجماء ، أيضاً أم سوداً ، في المشرق
أم في المغرب . فقد رأيت جماعة المسلمين في كثير منها لا يزالون يحيون حياة
الخير والتضامن والتكافل والتعاون على البر .

لا يزالون أقرب إلى المجتمع الصالح كما أراده صاحب الدعوة من عشرات
الملايين الذين فتنوا بالحضارة الغربية المادية ، فهم يعيشون لأنفسهم ولو انقرضت
جماعتهم ، ويؤثرون شهواتهم على البر بأهلهم ، فضلاً عن جيرانهم .

البر

كلمة جامعة — نظرة الإسلام إلى مشكلة الفقر — الفقر لعلة والفقر لفقد
الوسيلة — العمل هو الأصل — مطاردة الترف والبؤس — القانون
والضمير — اشتراكية أبي ذر — محاربة الترف والاكتناز والربا —
سلطة واسعة لولي الأمر — المواساة بشعور المساواة — المساواة عقيدة
وشعور ونظام — الأشكال والمظاهر ليست غاية في الحسب — حق الفقير
حق الله — البر بغير المسلمين — فلننظم البر على طريقة الإسلام

البرُّ رُكْنٌ عَظِيمٌ مِنْ أَرْكَانِ الدَّعْوَةِ ، وَسَبِيلٌ وَاضِحٌ لِلِإِصْلَاحِ الْجَمَاعِيِّ .
وقد وردت كلمة البرِّ في القرآن على معانٍ شتى تحددها القرينة ، فهو الصدق
والخير والإحسان على أوسع معانيه ، وطاعة الله .

ونقصد بالبرِّ في هذا الحديث معنى الإحسان والمواساة للفقراء والمساكين
ومن تخلف من إخواننا في المجتمع عن السَّيرِ معنا إلى حياة مَرْضِيَّةٍ مُسْتَعِينَةٍ ،
لِعَجْزِهِ أَوْ يُتِمُّ أَوْ مَرَضٍ أَوْ مُصَابٍ أَوْ جَهْلٍ ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَعْزِضُ مِنْ
أَسْبَابِ الضَّعْفِ وَالْفَقْرِ .

وقد سبقت الدعوة المحمدية جميع الدعوات الصالحة في تحديد البر وتنظيمه ،
وفي تعيين واجبات الأفراد والأمة والدولة في هذا الشأن . وهي من هذه الناحية
ذاتُ نظامٍ اجتماعيٍّ شاملٍ يستحق من أهل الرأي والنظر في جميع الملل
عنايةً ودراسةً .

وهذه الحرب التي قامت بين النُظُمِ الفاشية والشيوعية والديقراطية ،
داعيةٌ إلى المسارعة في بيان القواعد الإسلامية ، والسَّيْرِ المحمديَّة ، لعلَّ في ذلك
هُدًى ونُجْرًا بما اختلف الناس فيه .

وقد بينا كيف حارب الإسلام الفساد الاجتماعيَّ بالدعوة والرأي العامِّ ،
وكيف يجهل من التكافل والروح الجماعية أساساً دينياً لا تستقيم السبيل إلى

الله إلا به ، ولا يَتِمُّ إيمان الفرد ، ولا تؤدَّى الأمة واجبها ، والدولة أمانتها إلا بالعمل المتواصل على تمكينه في النفوس ، وجعله نظاماً من نُظُم الحياة .

ولننظر الآن كيف عالج الإسلام مشكلة الفقر وهي أعظم آفات المجتمع البشري .

نظرة الإسلام
إلى مشكلة الفقر

لم يجعل الإسلام الفقر سبباً لازدراء صاحبه ، بل جعل أقرب الناس إلى الله أتقاهم ؛ فالفقير على حاجته قد يكون في نظر الإسلام أعلى من أي رجل آخر مهما كان ماله وجاهه ، وبهذا ابتدأ المواساة الأولى للفقير .

ثم نظر في حال الفقير ؛ فإذا أن يكون هذا الفقير عاجزاً عن الكسب لعلّة به ، وإمّا أن يكون عاجزاً عن الكسب لفقد الوسيلة إلى العمل .

فأما الذي يَعْجز لعلّة لا علاج لها فقد جعل مواساته حقاً على المجتمع لا تبرعاً وتطوعاً . قال الله تعالى « وفي أموالهم حقٌ معلومٌ للسائل والمحروم » فصان بذلك كرامته الإنسانية .

الفقر لعلّة والفقر
لفقد الوسيلة

وأما الذي يَعْجز لفقد الوسيلة إلى العمل فقد أوجب على الدولة إيجاد الوسيلة لتكسيبه . وقد قبّح الإسلام السؤال ودعا المسلم للترفع عنه ؛ فاليد العليا خير من اليد السفلى . وقد أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم سائلاً درهماً وأمره أن يشتري به فأساو حَبْلاً ويحتطب ، ولا يتعرض لذلّ السؤال .

والأصل في الإسلام هو العمل والتكسب ، وقد حضّ عليه بجميع الوسائل ، حتى لقد فضّله على الانقطاع لعبادة الله ، ولكنه كذلك أنصف المجتمع بإلزام الدولة أن تعين على إيجاد العمل لمن لا يجدّه ، وأن تحمّي من يَعْجز عنه .

العمل هو الأصل

وقد أراد الإسلام أن يجعل مستوى المعيشة متناسقاً ومتقارباً بين أتباعه ، فخارب الترف في أعلى المجتمع ، وطارد البؤس في أسفله ، واتخذ لذلك وسيلتين :

مطاردة الترف
والبؤس

وسيلة الضمير وهي أفواهما ، ووسيلة القانون ؛ فجعل الحياة السعيدة الخالدة لا تُنالُ إلا بالإنفاق على المستحقين من الأهل والأقربين والمساكين ، ولا ينال متاعها المترفون الذين جعلوا شهواتهم في هذه الحياة أهدافهم .

جعل ضمير المسلم لا يستريح إذا طعم ولبس وتمتع ، وجارهُ ومن حوله قد عجزوا عن القوت ، وحضه حضا قويا على البذل والقناعة والحد من شهواته في سبيل إغاثة الملهوفين والمحتاجين ، حتى لقد أمر أن يُطعم السيد الخادم مما يطعم ، ويكسوه مما يكتسى .

قال المعرور بن سويد : « رأيت أبا ذر رضي الله عنه عليه حلة وعلى غلامه مثله ، فسأله عن ذلك فقال : سمعت رسول الله عليه وسلم يقول : « هم إخوانكم وخولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه » .

ولم يكتف الإسلام بإيقاظ الضمير لهذا ، بل جعل للدولة أن تقتضى من فضلة مال الفرد مقادير لا يستهان بها لتكفل بوسائلها هي أيضا حاجات الفقراء والمساكين .

وفي الحقيقة حين يحارب الإسلام الترف والاكتناز والربا ، ويقول : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعباب آليم . يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » وحين يقول : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس » وحين يقول : « يمحوق الله الربا ويربى الصدقات » وحين يقتضى الزكاة على الأموال المكنوزة ويحرم الربا ، إنما يريد بذلك كله أن يرفع مستوى الطبقات الفقيرة ، ويخفض من مستوى المترفين ؛ ليجعل حياة الجميع سعيدة متناصفة .

فتحرّيم التّرف يوجّه الأموال إلى إنتاج أكثر فائدة للجميع ، وتحرّيم
كنزها يوجب تداولها ، وتداولها من غير ربّا يؤدى إلى المشاركة فيها . وإذا لم
يجد الناس في الترف لذّتهم وجأههم ، وجدوها في الإحسان والبر . وإذا لم يجدوا
في الكنز ضماناً لهم ، وجدوه في ضمانه المجتمع الإسلامى المتكافل الذى لم يهمل
أحدا ولم يحتقر أحدا ، وإذا لم يجدوه فى الربّا وجدوه فى لذة الكسب
والمشاركة مع إخوانهم الذين يعملون فى أموالهم .

هذا الإسلام الذى حارب آفة الفقر بإيقاظ الضمير وبالتشريع ، جعل العمل
أسس المقاصد ، فأمر بالسمى وفضّله على الانقطاع للعبادة ، وأمر بالجِدِّ والإتقان .
وذلك لا شك أفضل الوسائل لمحاربة الفقر ، ولم يجعل جزاء العمل مقصورا
على هذه الحياة ، بل وعده به فى الآخرة .

والإسلام يدفع الفقر بالدعوة إلى الأخلاق الفاضلة ، ويقاوم بالحجّة والحدود
الشُرور والرزائل . فلو أن وسائله استُخدمت فى ردّع أرباب الشرور والآثام ،
وفى الدعوة للفضيلة والخير ، لتماسكت الأسرة الإسلاميّة وأدرك كل عضو
فيها واجبه ، وكسب من نزعاته ، وكان ذلك من أمضى الأسلحة فى مقاومة
الفقر ؛ إذ أن أعظم أسباب الفقر هى الإسراف فى الشهوات ، وارتكاب الآثام
كتعاطى الخمر والمخدّرات ، وإهمال صحة البدن والأوامر الدينية التى من شأنها
تقويم الأرواح والأبدان . ولو اتخذنا وسائل الإسلام فى التراحم والتعاطف ،
ومبادئه فى الأخوة والتعاون ، وأيقظنا ضمير الأمة الدينى فى هذه الناحية ،
اطعنا الفقر طعنة تُعجزه عن أن يدخل أكثر البيوت .

ولو قامت الدولة بواجبها فى كفالة المتخالفين من إخواننا لما يُصيبهم فى
أنفسهم أو أبدانهم ، أو لما يُصيبهم من انقطاع السبل بهم مع رغبتهم فى العمل ،
وذلك بأن تكون سياستها قائمة على أساس التكافل الذى جاء به الإسلام فى

قول رسوله : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضاً » فوزَّعتُ الصدقةُ على مَنْ لا سبيلَ له غيرُ الصدقة ، ووزَّعتُ العملَ على الناس بقصد الخير العام ، ولو على سبيل الإجبار على عمل معينٍ للقادر عليه ، لقاتلت هي أيضا الفقر بوسائلها الفعالة .

وقد جعل الإسلام في هذا سلطات واسعة لولي الأمر ، فله في سبيل الإصلاح العام أن يحدث أفضيةً بقدر ما يحدث من المشكلات ، وله أن يكتيف الأحوال لتسير وفق الغرض الأساسي للإسلام ، وهو الإحسان .

وقد قرر الإسلام في وضوح وعزم مبدأ المساواة ، وهو أعظم المبادئ في مقاومة الشرور الاجتماعية وأخضها الفقر ، وجعل هذه المساواة مستقرّة في ضمير المسلم ، ومالكه زمام تصرفاته في العبادة والمعاملة والأدب .

ومن فضل الدعوة المحمدية على البشر أنها تُبغض في الاستعلاء والترفع على الناس ، حتى ليكاد المسلم أن يفرّ من مجرد الخاطر الذي يخطر بذهنه بأنه أفضل من غيره . والمسلم الصادق لا يضمّر في نفسه أنه خير من خادمه مع سيطرته عليه .

والله تعالى يشدُّ على الرسول نفسه ويعاتبه بالقرآن ، لأنه تصدّى لقوم من رؤوس العرب يرجو من وراء إيمانهم أقوام يتبعونهم ، وتلهي بهم عن رجل فقير ضعيف جاء راغبا في الإيمان فقال : « عَسَ وتولّى أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنبه الذكري . أمّا مَنْ استغنى فأنت له تصدى . وما عليك ألا يزكى . وأمّا مَنْ جاءك يسعَى . وهو يخشى فأنت عنه تلهي » .

ولست تجد في أي تشريع احتفالا بالفقراء واعتناء بشأنهم مثل ما جاءت به الدعوة المحمدية إذ تحضّ المسلمين على رياضة أنفسهم على احترام الغير وتقديره : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا »

سلطات واسعة
لولى الأمر

المساواة عقيدة
وخلق ونظام

منهم ، ولا نساء من نساء ، عسى أن يكن خيراً منهن ، ولا تلمنوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسمُ الفسوقُ بعدَ الإيمانِ .

ومتى رَسَخَ هذا المعنى في أذهان الملوك والأمراء والحُكَّامِ والعامة والفقراء والأغنياء والملّك والعمّال كما أرادته الدعوة المحمدية ، استحالَتِ الفرقة الاجتماعية وما يثيرها من حسد وبغض ، وما يترتب عليها من خلافٍ وشرٍّ ثم قتالٍ وحرب ، وما يكونُ من تسلُّطِ الأقوياء على المستضعفين ، أو ما يكونُ من ظهورِ المستضعفين واستدلالهم لمن كانوا أقوياء .

نعم قد يقال : إن مبدأ المساواة شائعٌ الآن في أوربا وأمريكا ، ومؤيدٌ بشرائع وقوانين ، ولكنه لم يمنع من القتال والحرب والفساد . وهو قول ظاهره فيه الحق ، وباطنه من قبله الباطل ؛ فإن الأناثية والمادية لم تبلغاً في عهد من العهود ما بلغته في عهد المساواة القائمة على القوانين الحديثة في الغرب ، ولم تصل القطيعة والأثرة حتى في العهد الإقطاعي إلى ما وصلت إليه اليوم ، ولم تسيطر روح الشرِّ بما فيها من غلٍّ وحسدٍ سيطرتَها في السنوات المائة الأخيرة ، مع شيوع حق المساواة في التصويت لانتخاب الهيئات البلدية والعامة ، ولم ينتظم الناس في مجموعات الطوائف والحرف لينازعوا غيرهم من الطوائف كما انتظموا في القرن الحالى ، والكل يتحدث بحق المساواة .

والسبب في ذلك ، أن التسليم بحق المساواة في الدعوة المحمدية مقرون بالعقيدة والإيمان ، فهو في صميم قلب المؤمن ، وهو المسيطر على ضميره ، فلا خداع فيه ولا نفاق .

« إن المنافقين في الدركِ الأسفلِ من النار ! » .

هذا فضلاً عن أن النظام الاجتماعى والإسلامى ليس قائماً على تنازع السلطات ، ولا على استقرار الأمر كنتيجة لهذا النزاع ، ولا على توازن القوى حتى يفسد باختلال هذا التوازن ، وإنما يقوم على التكافل بين أهل الملة ، وعلى

الروح الجماعية وعلى المقصد الأسمى للوجود ، وهو الكمال الروحي للفرد والأمة ، وعلى أن جميع الأعمال عمادها النية وقصدُها رضا الله .
فالنظام الاجتماعي في الدعوة المحمدية يجعل كفالة الحق في ضمير الفرد وضمير الجماعة وسلطة الدولة ، ويلعن الجماعة كلها إذا ضاع الحق بينها .

ولا يُخلى أحداً فيها من مسئولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
والأشكال والمظاهر في النظام المحمدي لا قيمة لها إلا بقدر ما تُصلح من العمل وتؤكد من حسن النية في ذلك العمل .

الأشكال
والمظاهر ليست
غاية في الحكم

فلم يُعَنَّ المسلمون بطرائق الحكم ولا بكونه مملوكياً أو جمهورياً أو أوتوقراطياً أو ديمقراطياً ، وإنما عُنُوا كُلَّ العناية بتحقيق الغاية من الحكم ، وهي التكافل الاجتماعي ، وأن يكون الناس سواسية ، لا فضل لأحد ولا لأجناسهم إلا بالتقوى والعافية ، ولا خير في أحد ولا خير فيهم جميعاً إن لم تكن الغاية من حياتهم هي الخير العام .

وكل نظام يحقق الغاية من الدعوة المحمدية ، وهي مصلحة الكافة وضمن حقوق الأفراد ، فهو نظام إسلامي .

فإذا كانت المساواة على النظام الغربي لا تُحْدُ من الأثرة والمادية والشهوات والهوى ، ولا تمنع نزاع الطبقات ، ولا حرب الأجناس ، فإنها صورة لاحقة للإسلام يريد الحقائق لا الصور « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم » .

ظاهر إذاً أن مبدأ المساواة بالمعنى الإسلامي هو من أكبر دعائم البر وأفتك الأساحة بآفة الفقر .
وقد دعا الإسلام إلى البر بكل وسيلة ، ودعا إليه بالترغيب والترهيب ، ودعا إليه بقوة القانون والدولة ، فقال تعالى : « يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ »

وقال: «لن تَمَلُّوا البرَّ حتى تُنفِقُوا مما تُحِبُّون» وقال: «أرأيتَ الذى يُكَذِّبُ بالدينِ . فذلك الذى يَدْعُ اليَتيمَ ، ولا يَحْضُرُ على طعامِ المسكينِ » وقال: «كَلَّا بل لا تُكْرِمُونَ اليَتيمَ ولا تَحَاضُّونَ على طعامِ المسكينِ » .

وكتاب الله وحياءُ رسوله يفيضان بفضل الإنفاق فى سبيل الله ، واتخاذ الدنيا مَطِيَّةً لِلآخِرَةِ . ولم يكتفِ صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم بأن تكون دعوته مُوجَّهَةً بكل قوتها للبر بالفقراء والمساكين والضعفاء والمصابين والمُعوزين ، بل جعل البرَّ بهم حقاً مفروضاً لا سبيل إلى المُعَاظَلَةِ فيه ؛ حتى إن العرب لما ارتدَّتْ عن دفع الزكاة عَقِبَ وفاة الرسول ، ونَصَحَ الخليفةُ الأوَّلُ بأن يداريهم ، وقد تفاقمَ الشرُّ ، قال رضى الله عنه : « والله لو مَنَعُونِي عِقَالَ بَعِيرٍ كانوا يُوَدُّونَهُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلْتُهُمْ عليه » . أى أنه يوجه كل قوى الدولة لقتال قوم يَمْنَعُونَ حقَّ الفقير فيما قِيَمَتُهُ قيمةُ حبلٍ يُعْقَلُ به بَعِيرٌ ! فحقوق الفقراء فى الدولة الإسلامية مَصُونَةٌ ، وليس لأحدٍ أن يَمْنَحَ بها ، فهي حقُّ الله فى ماله وكَسْبِهِ ومِلْكِهِ . وقد بينت الشريعة الزكاة وأنواعها وكَيْفِيَّةَ أدائها ، كما بينت مستحقيها وما لهم وما عليهم بتفصيل دقيق . وكان من أثرِ الدعوة المحمدية للبر والإحسان تلك الأوقاف المحبوسة على الخير فى المَشْرِقِ والمَغْرِبِ ، وكان من أثرها أن تطهرت نفوس المسلمين ، حتى جَبَسُوا من أَمَلٍ كَهِم على القِطْطِ والكَلابِ والحِيواناتِ . ومن أمثلة هذا أن نور الدين محمود وقف أرضاً فى دمشق لتكون مأوى للحيوان المَهرَمِ ، يرمى فيها حتى يَمُوتَ .

وتاريخ المسلمين فى كل أوطانهم يفيض بالبر والعطف والرحمة بالبوَّساء والغُرَباء ، وما السَّكْرَمُ الذى كان به فَخْرُ البيوت والأسر والشعوب إلا أثر من آثار روح البر والإحسان الإسلامى .

ولم يكن البر فى الدعوة المحمدية خاصاً بأهل الجنس أو الدين ، ولكنه

حق الفقير حق الله

البر بغير المسلمين

كان عاملاً للمساكين من البشر ، فما منع اختلاف في الدين دون البر قال تعالى :
« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يُنْخِرْ جُوعُكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ
وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » ، « إنما الصدقات للفقراء والمساكين
والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل » .

فلننظم البر على
أسس الإسلام

وتنظيم البر في العصر الحاضر يجب أن يقوم على نفس الأسس والوسائل
التي جاءت بها الدعوة المحمدية ، لأنها أفعال وأدوم ، ولكن يجب كذلك
أن نتصرف ونجتهد كي نحقق المقصد والغاية ، وأن ننظر في عصرنا ،
وموارد الثروة فيه ، ومصادر الغنى ، وحالات الناس لنكفل الخير للجماعة
ونرضي الله سبحانه وتعالى ، حتى يعود للظهور بيننا من كانوا يأتون أن
يتعرضوا لوجوب أداء الزكاة عليهم بإتفاق أموالهم كلها ، حتى قيل لبعضهم :
كم يجب من الزكاة في مائتي درهم ؟ فقال : أما على العوام بحكم الشرع فخمسة
دراهم ، وأما نحن فيجب علينا بذل الجميع .

لهذا المعنى تصدق أبو بكر رضي الله عنه بجميع ماله ، وعمر رضي الله
عنه بشطر ماله .

ولا عجب فإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة .
ورُوح الدعوة المحمدية واضحة في أن الزكاة وحدها لا تُبرئ أموال
المسلمين من حقوق المحتاجين فيها ، فما دام هناك محل للبر والصدقة فهي
واجبة ، وحق المسلم على المسلم لا ينتهي بأداء الزكاة .

يجب إذاً أن نستلهم من شريعة الإسلام الهدى ، وأن نستوحي من رُوح
الدعوة المحمدية نظاماً للبر تقوم عليه الدولة ، لتوازن بين الثروات والحاجات ،
وتقيم التكافل الاجتماعي ، وتقضي على حرب الطبقات « فن يعمل مثقال ذرة
خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

العدالة والحُرّية

صور جاهلية — العالم بين الفرس والرومان — تحطيم القبود وإزالة
الفوارق — مبادئ في السياسة وعقائد في الدين — خليفة يبيع في الأسواق
— خليفة يلبس المرقع — نجر العدالة الدولية — ميزان الخليفة — ميزان
الشريعة — كفالة الحريات جميعها — الدفاع عن الحريات

نتحدث في هذا الفصل عن مبدأين أساسيين لا بد منهما لصلاح حال المجتمع
وتوجيه الحياة في طريق الخير العام ، وهما : الحرية والعدالة .

وكان الناس قبل الإسلام يعيشون إمّا على نظام القبيلة ، كالحال في بلاد
العرب ، وإمّا رعايا لدول أو أمراء ، كما كان الأمر حول شبه الجزيرة العربية في
ملك الرومان والفرس والأحباش . وقد كان لكل أرض حال ونظام حسب
ظروفها لا تنظمه مبادئ جامعة ، وأصول ثابتة مسلم بها ؛ ففي البلاد العربية
تسود مبادئ القوة ، وتتجلى الأثرة والأنانية ، ويعتز الناس بالفتك
والسلب ، ويفتخر كثير منهم باستباحة حقوق الغير والتسلط على ما في
أيديهم ، ينكرون الإخاء البشري والقوى والجنسى ، ويرفضون المساواة
خارج القبيلة مع الموالى وغيرهم من العرب ، ويستخرون من العدل الذي
لا يقوم على ما تبيحه القوة ، ويحبون الحرية المطلقة ويتمشقونها ، بل
يموتون موتاً كريماً في سبيل التمتع بها . على أنها حرية خاصة بهم لا يتمتعون
أحداً بها .

صور جاهلية

وكان الفرس والرومان البيزنطيون جيران العرب ، يحقرون العرب ،
ولا يعترفون بحق لهم في مساواتهم أو عدلهم ، وكان ملك الفرس يقوم على
رجل له كل الحقوق هو كسرى ، وعلى جماعة لهم من هذه الحقوق ما يمنع كسرى
أو يعطى ، إذ يُستخر له ما في الأرض جميعاً ليكون ملك الناس جميعاً ، وحوله

العالم بين الفرس
والرومان

أعوان وأمراء. وجند يَسْنِدُونَ العرش ، ويحظون ببعض المتاع . إلا أنهم
عُرِضَتْ في كل لحظة لإباحة أرواحهم وأموالهم وأبنائهم . نعم كانت
الإمبراطورية الفارسية ثابتة القواعد ، دأمة الملك ، فقد عاش حكم آل ساسان
أربعة قرون ، ولكنه عاش على نظام عسكري ، وحكم عُرفي ، لا على مبادئ
العدل والحرية والمساواة والإخاء . وكذلك عاشت (بيزنطة) ألف سنة
ولم تكن عقليتها بأحسن حالا من عقلية (المداين) ، فكان قيصر إمبراطور
المغرب ، بل على دعواه إمبراطور العالم ، وكان كسرى خصيمه في المشرق .
وما كان لعبادة النار أثرٌ يذكر في هذه ، ولا للمسيحية أثر في الأخرى ،
بل كانت مسيحية بيزنطة مما لا يشرف المسيحيين ، بعيدة كل البعد عما جاء به
سيدنا عيسى عليه السلام من إخاء وسلم ورحمة . وبلغ الغرور بسلاطين بيزنطة
أنهم كانوا لا يعترفون لدولة بالوجود المستقل ، فسيادتهم عالمية في نظرهم ،
والناس إما مُعْتَرَفٌ بذلك ، وإما جاهل لا يدري أنه في نطاق هذه السيادة .

ومن أظرف ما يُروى أن سفير شارلمان في القرن التاسع كان في حضرة
الإمبراطور في بيزنطة ، فذكر له أن سيده شارلمان مشغول بحرب السكسون
وأن هؤلاء السكسون برابرة دأمو الشغب . فقاطعه الإمبراطور قائلا : مَنْ
هؤلاء الهَمَج الذين لم أسمع باسمهم ، ولا قيمة لهم ليتعبوا سيدك كل هذا
التعب ؟ ! إني قد وهبتك إياهم ، وبذلك أرحت سيدك منهم . فلما رجع سفير
شارلمان حدث سيده بما وهبه الإمبراطور ، فقال شارلمان : لو وهبتك هذا
بدل السكسون لأعانك به على سفرك الشاق الطويل !

كذلك كان العالم في تصور قيصر وكسرى ، وفي مخالب الفوضى القبليّة
حين جاءت الدعوة المحمدية تذكر الناس بأنهم من آدم وآدم من تراب
« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن
أكرمكم عند الله أتقاكم » .

تخطيط القيود
ولإزالة الفوارق

وكذلك كان العالم لما بعث (عمر) مقوَّضُ مُلْكٍ قيصر وكسرى إلى واليه
يوتجّه لاستكبار ابنه على قبطنى مسيحي ويقول له «يا عمرو متى تعبدتُم الناس
وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا» .

جاءت الدعوة المحمدية بالطريف الغريب من الدعوة إلى العدل
والمساواة والحرية .

فأصبحت الشريعة ينبوع الحريات والحقائق ، تحدد الحقوق والواجبات
للأفراد والجماعات . فقام المستضعفون وسخر الطغاة المتجبرون وقالوا
ما قال أسلافهم من قبل « إن نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي »
وما دروا أن الله أراد أن يقوِّض عالم الأثرة والأنانية والظلم والاستبداد
وأن يُحقِّق الحق ، ويُطيل الباطل . وأن الشريعة مبادئ واضحة كريمة تنظم
ما بين الناس ، أوحى بها العليم الخبير إلى أفضل رجل عرفه البشر في تاريخهم
الطويل ، هي المبادئ التي أقرت العدالة والحرية في ضمائر المؤمنين وجعلتها
جزءاً لا يتجزأ من عقيدتهم وصميم نفوسهم .

مبادئ في
السياسة وعقائد
في الدين

جعل الإسلام هذه المبادئ جزءاً من العقيدة لا ينقسم منها وبذلك تميّزها
وخلدها وصانها من عبث التحايل والرياء والتظاهر والدعوى المغرضة
أو الموقوتة .

فالمسلم لا يكون مسلماً إذا شك في أن أقلّ إخوانه وأعجزهم يعادله في
الحقوق ، فهما في حضرة الله في الدنيا والآخرة عبدان ، أكرمهما أتقاهما .
هذه العدالة هي التي جعلت الصدقة على من يستحقها ، حقاً في أموال من
يقدّر عليها لا منّة في رقبة مستحقها .

خليفة يبيع في
الأسواق

وكانت هذه العدالة والمساواة واضحة في العهد الإسلامي الأول ، وقت
سيادة العقيدة وتملكها النفوس ؛ فهي التي جعلت من أبي بكر ، وقد انتخب
للخلافة رجلاً يخرج إلى السوق عقب البيعة له ليعمل كما يعمل أي فرد من

الناس فيها لكسب قوته وقوت عياله . فلما كَلَّمَ في ذلك ، تشاور المسلمون في الأمر واعتبروه أجيراً لعملهم ، ومنعوه من العمل ، ورتَّبوا له راتباً حدَّده بالحاجة ، وكانت في عرفهم بضع دراهمات ، لبیت الخليفة لاجعله في زيَّه ومطعمه أكثر حُطوة من سواد رعيتِه .

وجاء بعده عمر والعقيدة الإسلامية في أعزَّ أيامها ، وأمكن سلطانها ، فكان خليفةً مختاراً من الشعب ، غلب الفرس والرومان وهو يرفع ثوبه بيده ويخصِّف حذاه بنفسه ، ولم يخطر بباله ولا يبال المسلمون أن الخلافة تميَّزه عنهم بشيء غير ما أعطته من حق الأمر والزمته من حق الطاعة ما دام ولياً للأمر .

كانت العدالة والمساواة عقيدة لا تصنعها يتكلفها الناس أو يُلزمونها بقانون رادع ، فكانت حقيقةً نفسية تعمل في الظاهر والخفاء لإقامة مجتمع صالح مستقر . وفي هذا المعنى قال شوقي بك رحمه الله في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم :

أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى فالكلُّ في حق الحياة سواء
فلو أنَّ إنساناً تخيَّر ملةً ما اختار إلا دينك الفقراء
الإشترأكون أنت إمامهم لولا دعاوى القوم والغُلواء
داويت مُتَّيِّداً ودأوا طفرةً وأخفُّ من بعض الدواء الداء
والبرَّ عندك ذمةٌ وفريضةً لا منةٌ ممنونةٌ وجبَّاء

وقد قدَّمنا أنَّ الشريعة قررت أنَّ المؤمن أخو المؤمن ، وأنه في مَشْرِق الأرض أو مَغْرِبها له من الحقِّ ما لا سبيل لنكرانه . له البرُّ ، وله النصرة والحماية ، وله الولاء والإخلاص والنُصح . له هذا كله بمقتضى العقيدة والشريعة لا نزاع ولا جدال ، فله النصفُ غاب الحاكم أم قام ، وُجِد القانون أم اختفى ؛ لأنها

خليفة يلبس
المرقع

حق يؤدّيه من ضميره بمقتضى إيمانه . هذا العدل قضى على القومية والعصبيّة والوطنية ، وجعل المساواة فوق كل اعتبار ، فللمسلم ما للمسلم في كل زمان ومكان .

وقد سبق الإسلام كل نُظم العدالة الحديثة . حين قال : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » وقال « يا أيها الذين آمنوا كونوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » وقال : « ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا . اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى » .

قبح العدالة
الدولية

وقال « وإذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ » .
وقال « وإذا قُلْتُمْ فاعْدِلُوا ولو كان ذا قُرْبَى » .

وفي الحديث القدسي « يا عبادي إني خَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وجعلته بينكم مُحَرَّمًا فلا تَظَالَمُوا » .

بل جعل العدل أساس نظام الخليفة كلها فقال : « والسماء رَفَعَهَا ووضَعَ الميزان . أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ . وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ » .
فالإسلام قد جعل العدل فوق كل شيء ، فهو يَرَبُّ بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمَ بَيْنَ الْكَافِرِ وَالْمُسْلِمِ ، وَالْعَدُوِّ وَالْمَوَالِي وَالْمُعَاهِدِ ، فهم جميعا في نظره أمام العدالة سواء .

ميزان الخليفة

« وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى » .
والشريعة الإسلامية في هذا الباب تستحق من جميع الناس ، آمنوا بها أم لم يؤمنوا ، نظرة صادقة ؛ فإنها لا تزالُ سابقةً في زمننا على ما به من تقدم الحضارة الحالية في هذا الشأن .

انظر إلى أقوال بعض أئمة المسلمين قبل مئات السنين . يقول ابن القيم :
« إن الله سبحانه وتعالى أرسل رسله وأنزل كتبه ليُقَوِّمَ النَّاسَ بِالْقِسْطِ وهو العدل الذي قامت به الأرضُ والسموات ، فإذا ظهرت أمارات العدل وأسفر

ميزان الشريعة

وَجْهَهُ بِأَيِّ طَرِيقٍ كَانَ قَتْمٌ شَرَعُ اللَّهِ وَدِينُهُ . ويقول الإمام الشاطبي « إن أحكام الشريعة ما شُرِعتْ إلا لمصلحة الناس ، وحيثما وُجدت المصلحة قَتْمٌ شَرَعُ اللَّهُ » .

فأئمة المسلمين متفقون على أن العدل هو غاية الشريعة ، وإنما تقيّد الأحكام بالعدل الذي يريدُه الله قبل أن تقيّد بشيء آخر .

وأما الحرية في الإسلام فهي من أقدس الحقوق : الحرية السياسية ، والحرية الفكرية ، والحرية الدينية ، والحرية المدنية ، كلها كفلهما الإسلام ، وخطأها خطوات لا تزال الحضارة الحديثة متخلفة عنها . ولا يزال التاريخ يحدثنا بأمثلة منها وقعت في مجالس الخلفاء والأمراء حتى بعد أن صار الحكم في الإسلام مُدْكَ عَضُوضًا ، فكان الناس في أيام عمر بن عبد العزيز يتكلمون في حضرته في استحقاق بيته للملك والخلافة ، وكذلك رُوي عن مجالس المأمون ما كان يجري فيها من نقاش حول بيت الخلافة وأحقية بها . وهذا دَعْبَلُ بْنُ عَلِيٍّ الْخُزَاعِيُّ الشاعر ، هجا جماعة من الخلفاء العباسيين واحدا بعد آخر وهم في عنفوان سلطانهم ، وانتصر لخصومهم العلويين دون أن تُصَادَرَ حريته أو يناله أحد . ولما بُويع لإبراهيم بن المهدي في العراق وخلع المأمون في غيبته قال دَعْبَلُ :
نَعَقَ ابْنُ شَكْلَةَ بِالْعِرَاقِ وَأَهْلِهِ فَهَفَا إِلَيْهِ كُلُّ أُخْرَقَ مَائِقِ
أَتَى يَكُونُ ! - وَلَا يَكُونُ - وَلَمْ يَكُنْ يَرِثُ الْخِلَافَةَ فَاسَقٌ عَنْ فَاسِقِ
وما أظن أن مثل هذه الحرية سُمِحَ بها في عهد ملك من الملوك في زمن من الأزمان الحاضرة أو الماضية . وتقديس الإسلام للحرية هو الذي جعل من المسلمين في أحسن أيامهم ، وخصوصا العهد العربي لُقْرَبَهُ من ظهور الدعوة ،

قوماً يَسْعُونَ في مُلْكِهِم بين المشرق والمغرب من الصين إلى الأندلس جميع
الملل والنحل تعيش في جوارهم وأمنهم .

بل أقام الإسلام بشرعه من المسلمين حُماةً لأرباب العقائد المخالفة لهم ،
وألزم أهله أن يقاتلوا لصيانة حرية العقيدة وقُدسية أماكن العبادة لمن دَخَلُوا
في عهدهم وجوارهم من مخالفين في الدين .

تشبعت نفوس المسلمين بمعنى الحرية ، فلم يَضْطْهِدُوا بمقتضى شريعتهم ،
ولا إرضاءً لعقيدتهم رجلاً نظر في السكُون واستنبط لنفسه نظرية من
النظريات ، أو ادَّعى رأياً من الآراء ، فكانت الحرية العلمية مكفولة للصَّابِئِ
والمَجُوسِ والنصراني واليهودي ، يقول ويكتب ما يشاء . كذلك كان المسلمون
أحراراً في هذا لا تعترضهم شريعتهم . ولا أعرف أن حرية الرأي والعقيدة
والعلم قد اعترضها معترض في الدول الإسلامية ، إلا خشية الفتنة ، أو حيث
كانت سبباً في فتنة أو عرَّضت سلامة الدولة لخطر .

وكان أمراء المسلمين وحكامهم على وجه العموم لا يعبأون في سياستهم
بالنظر إلى الأفكار والآراء والمعتقدات والأبحاث العلمية إلا بقدر أثرها
المباشر السريع على سلطانهم ؛ فخاض المسلمون وغيرُ المسلمين في الكلام ، وفي
نظريات علمية ودينية في العصور الوسطى بحرية لم تتسع لها صدور الأوربيين
والأمريكيين إلى يومنا هذا .

تلك بعض المبادئ العامة المتفق على ضرورتها وفضلها ، والتي بها يصلح
المجتمع ، أقامها الإسلام في ضمائر الناس ، وناضل عنها وحماها بسلطانها ، لأنه
يعلم آثارها الصالحة في إقامة مجتمع صالح .

الدفاع عن
الحریات

في العلاقات الدولية

الدولة الإسلامية الأولى وعلاقاتها

من تاريخ علاقات المسلمين بالمناهضين للإسلام — أول معاهدة «دولة»
بين المسلمين واليهود والوثنيين — نموذج قديم لعصبة الأمم — الإذن بالحرب
الدفاعية — حرب للأغراض السامية — تنظيم علاقات الشر خير !

من تاريخ
علاقات المسلمين
بالمناهضين
للإسلام

ابتدأت الدعوة إلى الإسلام سرّاً ، فلما جهر بها اشتدت الخصومة ، وترتب على ذلك اضطهاد المسلمين اضطهاداً تمثّلت فيه جميع أنواع الأذى ، فأشار الرسول على أنصاره المستضعفين بالهجرة إلى الحبشة فهاجروا إليها . وبهذه الهجرة ابتدأت أولى الصّلات الدولية ، وبقي هو بمكة في منعة من قومه ، يدعو إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة ، فلم تستطع قريش صبراً على دعواه ضدّ آلهتها ، بل ضدّ حياتها الاجتماعية والاقتصادية ، فتشاورت في قتله ، وفأوضت بني هاشم في ذلك على أن تدفع إليهم ما يرضيهم ديةً له فأبوا ، فتحالف أهل مكة على قطيعة بني هاشم ، وكتبوا بذلك صحيفة علّقوها في الكعبة ، فاجأ بنو هاشم ومعهم بنو المطلب إلى شعب من شعاب مكة واعتصموا فيه ضد أصحاب الصحيفة الذين تعاهدوا على أن يقاطعوها محمداً ومن يمنعه منهم ، فلا يزوجهم ولا يعاملوهم ولا يؤاكلوهم ، واشتد الكرب بمن دافعوا عن الرسول ممن آمنوا به أو نصروه عصبيةً وأنفةً ، ودام هذا الحال سنين ، فلما خرجوا من الشعب ذهب الرسول إلى (الطائف) مستنجداً طالبا حماية بعض زعمائها ، ليمضي في دعوته فرجع مهيبض الجناح ، وقد ردّ على أشنع صورة ، يتبعه الصغار ، وهو يمشي دامي القدمين ، يقيّمونه كلما قعد ، فلا يستريح إلى ظل ولا يأوي إلى كهف ، حتى دخل مكة في حماية أحد المشركين ، يسخر منه أهلها ويبكي لحاله أتباعه المستضعفون .

وجاءت فترة من الهدوء ظن فيها المهاجرون المستضعفون من الرجال والنساء والولدان أن مكة تؤويهم فرجعوا ، فاشتد الكرب مرة أخرى ،

وأمرهم الرسول بالهجرة الثانية إلى الحبشة، ولقوا بلاءً شديداً حتى في مَهْجَرِهِمْ، فقد أوفدت قريش رُسُلَهَا، وعلى رأسهم عمرو بن العاص (فاتح مصر فيما بعد) يحمل الهدايا إلى النجاشي وأهل الحبشة ليُغَرِّوهم على تسليم المهاجرين إليهم، فدافع المسلمون عن أنفسهم بالحجة وتمسكوا بحق الجوار للملتجئ، وأسسوا بذلك أول علاقة دولية بين الأمة المحمدية والدولة الحبشية.

واستمرت قريش تَكِيدُ للمستضعفين في مكة حتى استقر رأيها على قتل محمد وتوزيع مسؤولية قتله على بطونها، فتمعَّج بنو هاشم عن المطالبة بثأره. وفي الليلة التي تمَّ فيها التآمر على قتل النبي خرَّج من مكة ومعه رفيقه أبو بكر، فلما أحسَّ القوم بذلك تبعوها، وكانا مختفين بغار ثور، فضلَّوا ثم خابوا في إدراكهما.

أول معاهدة
دولية بين
المسلمين واليهود
والمشركين

ووصل المدينة فوجد فيها من سبقه من المهاجرين ومن يبعوه من الأنصار، وما لبث أن عقد أول معاهدة دولية بين المسلمين واليهود والمشركين، وهي من أنفس العقود الدولية وأمتعها وأحقها بالنظر والتقدير من الناس كافة، وأولاهها بأن تكون نبراً ما للمسلمين في أصول العلاقات الدولية بينهم وبين مخالفينهم من أهل الأديان الأخرى. هذا فضلاً على أن عقدها ابتدأت به الدولة الإسلامية حياتها، وابتدأ الاعتراف بالمسلمين كدولة.

هذه الوثيقة هي عقد حسن جوار وتحالفٍ دفاعيٍّ، وتعاون ضدَّ العدوان، قصدَ بها صيانة مجموعة من دُوِيَّلاتٍ، كل منها يتمتع في نطاق الميثاق بسيادته الخاصة على قومه، وبحرية الدعوة لدينه.

ويتكافل الموقعون عليها على نُصْرَةِ بعضهم بعضاً، وحماية عقائدهم ممن يريد أوطانهم أو جماعتهم بسوء. وهم بذلك يكفلون حرية العقيدة وحرية الدعوة لأعضاء الميثاق على تباين معتقداتهم. وإليك الميثاق^(١):

(١) نقلاً عن كتاب «الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة» للدكتور محمد حميد الله الحيدري أبادي أستاذ الحقوق الدولية بالجامعة العثمانية بميدان أباد دكن.

بسم الله الرحمن الرحيم

- (١) هذا كتاب من محمد النبي [رسول الله] بين المؤمنين والمسلمين من قريش و [أهل] يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم .
- (٢) أنهم أمة واحدة من دون الناس .
- (٣) المهاجرون من قريش على ربعتهم^(١) يتعاقلون بينهم وهم يفتدون عانيهم^(٢) بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
- (٤) وبنو عوف على ربعتهم ، يتعاقلون^(٣) ، معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
- (٥) وبنو الحارث [من الخزرج] على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
- (٦) وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
- (٧) وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
- (٨) وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
- (٩) وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
- (١٠) وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
- (١١) وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(١) أمرهم الذي كانوا عليه . (٢) أسيرهم . (٣) يأخذون ديات القتلى ويعطونها . وأصله من العقل وهو ربط لابل الدية لدفعها لأهل القتل .

(١٢) وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَتْرَكُونَ مُفْرَحًا^(١) بَيْنَهُمْ أَنْ يَعْطُوهُ بِالْمَعْرُوفِ فِي فِدَاءٍ أَوْ عَقْلٍ .

(١٢ ب) وَأَنْ لَا يَخَالَفَ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنًا دُونَهُ .

(١٣) وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ [أَيْدِيهِمْ] عَلَى [كُلِّ] مَنْ بَغَى مِنْهُمْ أَوْ ابْتَغَى دَسِيعَةً^(٢) ظَلَمَ أَوْ إِثْمًا أَوْ عَدْوَانًا أَوْ فُسَادًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنْ أَيْدِيهِمْ عَلَيْهِ جَمِيعًا وَلَوْ كَانَ وَلَدًا أَحَدُهُمْ .

(١٤) وَلَا يَقْتُلُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنًا فِي كَافِرٍ وَلَا يَنْصُرُ كَافِرًا عَلَى مُؤْمِنٍ .

(١٥) وَأَنْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَاحِدَةٌ يُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَدْنَاهُمْ ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ مَوَالِي بَعْضٍ دُونَ النَّاسِ .

(١٦) وَأَنَّهُ مَنْ تَبِعْنَا مِنْ يَهُودٍ فَإِنَّ لَهُ النَّصْرَ وَالْأُسُوءَةَ غَيْرَ مَظْلُومِينَ وَلَا مُتَنَاصِرِينَ عَلَيْهِمْ .

(١٧) وَأَنَّ سَلِمَ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدَةٌ لَا يُسَالِمُ مُؤْمِنٌ دُونَ مُؤْمِنٍ فِي قِتَالٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا عَلَى سَوَاءٍ وَعَدَلٍ بَيْنَهُمْ .

(١٨) وَأَنْ كُلَّ غَازِيَةٍ غَزَتْ مَعَنَا يَعْقِبُ^(٣) بَعْضُهَا بَعْضًا .

(١٩) وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُبَيِّئُ^(٤) بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ بِمَا نَالُ دِمَائِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

(٢٠) وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ عَلَى أَحْسَنِ هَدًى وَأَقْوَمِهِ .

(٢٠ ب) وَأَنَّهُ لَا يُجِيرُ مُشْرِكٌ مَالًا لِقَرِيشٍ وَلَا نَفْسًا ، وَلَا يَحُولُ دُونَهُ

عَلَى مُؤْمِنٍ .

(٢١) وَأَنَّهُ مَنْ اعْتَبَطَ^(٥) مُؤْمِنًا قِتْلًا عَنْ يَدَيْهِ فَإِنَّهُ قَوْدٌ^(٦) بِهِ إِلَّا أَنْ يَرْضَى

وَلَّى الْمَقْتُولَ [بِالْعَقْلِ] ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ كَافَّةٌ وَلَا يَحِلُّ لَهُمْ إِلَّا قِيَامُ عَلَيْهِ .

(٢٢) وَأَنَّهُ لَا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَقْرَبُ بِنَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَأَمِنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

(١) هُوَ مَنْ أَثْقَلَ الدِّينَ وَالْغَرَمَ فَأَزَالَ فَرَحَهُ .

(٢) الدَّسِيعُ الدَّفْعُ . وَالْمَعْنَى : طَلَبَ دَفْعًا عَلَى سَبِيلِ الظُّلْمِ أَوْ ابْتَغَى عَطِيَّةً عَلَى سَبِيلِ الظُّلْمِ .

(٣) أَيْ يَكُونُ الْغَزْوُ بَيْنَهُمْ نَوْبًا يَعْقِبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِيهِ .

(٤) مَنْ أَبَاتَ الْقَاتِلَ بِالْقَتْلِ إِذَا قَتَلْتَهُ بِهِ .

(٥) قَتَلَهُ بِلَا جُنَايَةٍ أَوْ جَرِيرَةٍ تَوْجِبُ قَتْلَهُ .

(٦) فَإِنَّ الْقَاتِلَ يَقَادُ بِهِ وَيُقْتَلُ .

أَنْ يَنْصُرَ مُحَدِّثًا أَوْ يُؤْوِيَهُ ، وَأَنَّهُ مَنْ نَصَرَهُ أَوْ آوَاهُ فَإِنَّ عَلَيْهِ لَعْنَةَ اللَّهِ وَغَضَبَهُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ .

(٢٣) وَأَنْكُمْ مَعَهُمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ مَرَدَّهُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى مُحَمَّدٍ .

(٢٤) وَأَنَّ الْيَهُودَ يُنْفِقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا مُحَارِبِينَ .

(٢٥) وَأَنَّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أُمَّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ
مَوَالِيَهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ أَوْ أَثِمَ فَإِنَّهُ لَا يُؤْتِغُ^(١) إِلَّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ .

(٢٦) وَأَنَّ لِيَهُودِ بَنِي النَّجَّارِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ .

(٢٧) وَأَنَّ لِيَهُودِ بَنِي الْحَارِثِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ .

(٢٨) وَأَنَّ لِيَهُودِ بَنِي سَاعِدَةَ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ .

(٢٩) وَأَنَّ لِيَهُودِ بَنِي جُشَمٍ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ .

(٣٠) وَأَنَّ لِيَهُودِ بَنِي الْأَوْسِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ .

(٣١) وَأَنَّ لِيَهُودِ بَنِي ثَعْلَبَةَ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ فَإِنَّهُ
لَا يُؤْتِغُ إِلَّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ .

(٣٢) وَأَنَّ جَفْنَةَ بَطْنٍ مِنْ ثَعْلَبَةَ كَأَنْفُسِهِمْ .

(٣٣) وَأَنَّ لِبَنِي الشُّطَيْبَةِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ وَأَنَّ الْبَرِّ دُونَ الْإِثْمِ .

(٣٤) وَأَنَّ مَوَالِي ثَعْلَبَةَ كَأَنْفُسِهِمْ .

(٣٥) وَأَنَّ بَطَانَةَ يَهُودٍ كَأَنْفُسِهِمْ .

(٣٦) وَأَنَّهُ لَا يُخْرِجُ مِنْهُمْ أَحَدًا إِلَّا بِإِذْنِ مُحَمَّدٍ .

(٣٦ ب) وَأَنَّهُ لَا يَتَحَجَّزُ عَلَى ثَارٍ جُرْحٍ ، وَأَنَّهُ مَنْ فَتَكَ فَبِنَفْسِهِ وَأَهْلَ
بَيْتِهِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ، وَأَنَّ لَهُ عَلَى أَبَرِّ هَذَا .

(٣٧) وَأَنَّ عَلَى الْيَهُودِ نَفَقَتَهُمْ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ نَفَقَتَهُمْ وَأَنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْرَ عَلَى

مَنْ حَارَبَ أَهْلَ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ ، وَأَنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْحَ وَالنَّصِيحَةَ وَالْبَرَّ دُونَ الْإِثْمِ .

(٣٧ ب) وَأَنَّهُ لَا يَأْتِمُ امْرُؤٌ بِخَلِيفِهِ ، وَأَنَّ النَّصْرَ لِلْمَظْلُومِ .

(١) يُهْلِكُ وَيُفْسِدُ

- (٣٨) وأن اليهود يُنْفِقُونَ مع المؤمنين ما داموا مُحَارِبِينَ .
- (٣٩) وأنَّ يَثْرَبَ حَرَامٌ جَوْفُهَا لِأَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ .
- (٤٠) وأنَّ الْجَارَ كَالنَّفْسِ غَيْرِ مُضَارٍّ وَلَا آثِمٍ .
- (٤١) وأنه لَا تُجَارُ حَرَمَةٌ إِلَّا بِإِذْنِ أَهْلِهَا .
- (٤٢) وأنه مَا كَانَ بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ مِنْ حَدَثٍ أَوْ اسْتِجَارٍ يُخَافُ فُسَادُهُ فَإِنَّ مَرَدَّهُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، وَأَنَّ اللَّهَ عَلَى أَتَقَى مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَأَبْرَهُ .
- (٤٣) وأنه لَا تُجَارُ قَرِيشٌ وَلَا مَنْ نَصَرَهَا .
- (٤٤) وأنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ دَهَمَ يَثْرَبَ .
- (٤٥) وإذا دُعُوا إِلَى صَلَاحٍ يُصَالِحُونَهُ وَيَلْبَسُونَهُ فَإِنَّهُمْ يُصَالِحُونَهُ وَيَلْبَسُونَهُ ، وَأَنَّهُمْ إِذَا دُعُوا إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ فَإِنَّهُ لَهُمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا مَنْ حَارَبَ فِي الدِّينِ .
- (٤٥ ب) عَلَى كُلِّ أَنْاسٍ حِصَّتُهُمْ مِنْ جَانِبِهِمُ الَّذِي قَبْلَهُمْ .
- (٤٦) وأنَّ يَهُودَ الْأَوْسَ وَمَوَالِيَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ عَلَى مِثْلِ مَا لِأَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ
- مع الْبِرِّ الْمَحْضِ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ ، وَأَنَّ الْبِرَّ دُونَ الْإِثْمِ لَا يَكْسِبُ كَاسِبٌ إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَى أَصْدَقَ مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَأَبْرَهُ .
- (٤٧) وأنه لَا يَحُولُ هَذَا الْكِتَابُ دُونَ ظَالِمٍ أَوْ آثِمٍ ، وَأَنَّهُ مَنْ خَرَجَ آمِنًا وَمَنْ قَعَدَ آمِنًا بِالْمَدِينَةِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ ، وَأَنَّ اللَّهَ جَارٌ لِمَنْ بَرَّ وَأَتَقَى ، وَمُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) .

دستور الدولة
المحمدية

نموذج قديم
لعصبة الأمم

فِي هَذَا الْمِيثَاقِ وَضِعَ أُسَاسُ الدَّوْلَةِ الْمَحْمُودِيَّةِ وَأَصْبَحَ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمَسَامُونَ رِعَايَا هَذِهِ الدَّوْلَةِ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِمْ وَعَصَبِيَّاتِهِمْ ، أَسْيَادًا أَوْ مَوَالِيًا أُمَّةً وَاحِدَةً دُونَ النَّاسِ هَذِهِ الْأُمَّةُ تَتَعَاقَدُ فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ مَعَ أُمَّةٍ أُخْرَى مِنْ دِيَانَاتٍ أُخْرَى ، فَيَنْشَأُ فِي أَوَّلِ تَعَاقُدِهَا مِيثَاقٌ « لَجَمْعِيَّةِ أُمَّةٍ » أُسَاسُهُ النَّصْرُ لِلْمَظْلُومِ وَالنُّصْحُ وَالنَّصِيحَةُ ، وَالْبِرُّ دُونَ الْإِثْمِ ، وَحَرَمَةُ الْأَوْطَانِ الْمَشْتَرَكَةِ وَحَرَمَةُ مَنْ يَدْخُلُ فِي الْمِيثَاقِ وَيَقْبَلُ جَوَارَهُ ، عَلَى أَنْ تَصَانْ عَقَائِدُ الْمُتَعَاقِدِينَ وَشَعَائِرُهُمْ وَحُرِّيَّتُهُمْ

في الدعوة لدينهم مهما تباينت هذه الأديان ؛ فهو ميثاق من الأمم الإسلامية واليهودية بل والوثنية ، لما في يثرب وقتئذ من الوثنيين الداخلين مع طوائف الميثاق المسكونين لأطراف العقد . ولو كان في المدينة حينئذ مسيحيون لنص عليهم الميثاق . ولقد سبق الإسلام بهذا الميثاق عهد « عصبة الأمم » الحديثة بأكثر من ثلاثة عشر قرناً . وهذا التحالف ابتداء به رد الفعل لاضطهاد وظلم دام أربع عشرة سنة ، لم تمنع منه عظمة حسنة ، ولا لين رلاً قربى ولا رحيم ولا هجرة .

سلطت قريش ومن معها جميع أنواع الأذى والظلم ، فأصابت المسلمين في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ومزقتهم وشتتهم في الأرض ، وهم يأبون الرد ، ويدعون إلى تحكيم العقل ، وينظرون ليتبين الرشد من الغي ، لا يدفعون قوة بقوة ، ولا يلجأون إلى عنف .

فأما بلغ السيل الزبى جاء أمر الله وأذن بالقتال وأحلت الحرب للدفاع عن النفس وعن الوطن وعن حرية العقيدة ، ونزل حكم الله في هذه الآية الجليلة . « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلاوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمرُوا بالمعروف ونهوا عن المنكر » . وضع الرسول الأساس المتين للدولة العالمية وللعلاقات الدولية في الميثاق الذي ذكرنا على أساس الحرية للمشاركين فيه والاستقلال .

الإذن بالحرب
الدفاعية

ثم نزل حكم الله بإباحة الحرب لأغراض سامية محدودة ، منها ما هو سلبى ، وهو دفع العادية ومنع الظلم ، ومنها ما هو إيجابى وهو الخير العام أو الصالح العام فقال تعالى : « الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمرُوا بالمعروف ونهوا عن المنكر » .

حرب للأغراض
السامية

فتبين الواجب بعد النصر ، وحُدِّد المقصود منه ، فليس توسعاً في الملك كما تفعل الدول المستعمرة ، وليس تعجيزاً للآخرين وإنها كانوا لهم ليضعفوا عن المزاومة في العيش ، ويُطردوا من الأسواق وميادين التجارة ، ولا لوضع اليد على موارد الثروات وكنوز الأرض وخامات الصناعة ليستأثروا بها ، ولا علواً واستكباراً في الدنيا ، لكي تكون أمة أرَبِي من أمة ، وجنس أعلى من جنس ، ولكن لغاية واضحة محدودة ، هي أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويأمرُوا بالمعروف وينهَوْا عن المنكر .

ولما حاول الأوروبيون والأمريكيون بعد أن أكلتهم الحرب الماضية أن يبينوا الحالات التي تكون الحرب فيها مشروعة ، وأن يحددوا أغراضها ، ويسيطروا على شهواتهم ، فعقدوا لذلك المواثيق في عصبة الأمم وفي ميثاق (كيلوج) ، استبشرونا وقلنا إن سنين محمد صلى الله عليه وسلم قد أخذت تسود التفكير العالمي . وإننا نرجو أن تكون الحرب الأخيرة خاتمة الضلال ، وأن يجد الناس في قواعد العلاقات الدولية التي سننتها الشريعة المحمدية هدىً ومخرجاً مما هم فيه . فميثاق محمد مع اليهود والمشركين في المدينة هو أول عهد دولي في سبيل صيانة السلم على أساس المنفعة العامة والحرية للجميع .

خير تنظيم
علاقات الشر

ومشروعية الحرب لدفع الظلم وضمان الحرية ، وتحديد الغرض منها بالخير العام ، هما أيضاً الأساس الصالح الذي يجب أن تبني عليه العلاقات الدولية في المستقبل . أتت الشريعة المحمدية قبل ثلاثة عشر قرناً بنظام كامل من عهود التحالف والتكافل والتحكيم ، وجعلت الحرب ضد المعتدين زَجْراً وتاديباً لا تحوُّ وتعذيباً « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » « وأن احكم بينهم بما أنزل الله » « فقاتلوا التي تبغى حتى تفي إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » .

وسيتبين في الفصول التالية هدى الاسلام في سبيل التنظيم الدولي وإقرار السلم الدائم على أساس العهود المقدسة الصالحة .

الحرب المشروعة

تحديد أسباب الحرب وأغراضها — الحرب الدفاعية هي المباحة — وصايا
وتحميس إذا وقعت الحرب — الإسلام دين عمل — فريضة الجهاد على المسلم
والمسلمة — الحرب الهجومية غير مباحة — الحرب لأغراض مادية غير
مشروعة — ضرورة تقدر بقدرها — الضعف والذل ظلم للنفس .

أشرنا إلى ما كان من اضطهاد وظلم للمسلمين استلزم الإذن بالقتال ، وقد
أصبحوا في منعة بالهجرة إلى المدينة وبالميثاق الذي عقده مع جيرانهم من
أهل الملل والنحل الأخرى .

والآن لننظر في الحرب من الوجهة الإسلامية : أسبابها وملايساتها
وأغراضها ؛ فإن ذلك مما يعين على تصوّر حالة قد يكون فيها العلاج لداء العالم
الحاضر ، ويفتح الأذهان إلى الهدى والتبصر .

تحديد أسباب
الحرب
وأغراضها

أذن بالقتال في هذه الآية الكريمة « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ،
وإن الله على نصرهم لقدير » . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا
ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات
ومساجد يؤذون فيها اسم الله كثيرا . ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي
عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا
بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور . »

فالإسلام حين أباح الحرب قد علل هذه الإباحة ، وحدد المقاصد
والأغراض منها : فهي دفع الظلم ، واحترام حق الإقامة ، والحرية في الوطن ،
ومنع الفتنة في الدين ، وكفالة حرية العقيدة للناس جميعا .

وهذه الحرية للناس جميعا واضحة من تعدد أماكن العبادة لمثل مختلفة ،
من صوامع وبيع للنصارى وصلوات لليهود ، ومساجد للمسلمين ؛ فقد أباح

الحرب لصيانتها من عدوان المعتدين . كذلك يقول تعالى :
« وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ . فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ
إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ » .

ففي هذه الآية الجليلة تعلو الدعوة المحمدية على جميع الدعوات ؛ لتحديد
الغرض من الحرب برد الطغيان ، وبإسقاط مشروعية الحرب بمجرد أن ينتهي
المعتدى من إسرافه وإغوائه في فتنة الناس ، وعندئذ لا يتجدد القتال وتستمر
الحرب إلا على ظالم ، يُصرُّ على الظلم ، ممن يُكرِّهُون الناس على ترك دينهم .
والفتنة والإكراه وسلب الناس حريتهم في دينهم أبعض إلى الله حتى من
إزهاق النفوس « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه . قل قتال فيه كبير » .
وصدَّ عن سبيل الله ، وإخراج أهله منه أكبر عن الله ، والفتنة أشد من القتل ،
ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » .

الحرب الدفاعية
هي المباحة

وإذا تفحصنا آيات الكتاب الكريم في القتال ، ورجعنا إلى ظروف
التنزيل ، وتتبعنا الحوادث في حياة الرسول وحروبه وسراياه ، حربا حربا
وسرية سرية ما خالجنّا شك في أن الحرب المشروعة في الإسلام هي الحرب
الدفاعية . ولا يسمح المقام باستقصاء وتفصيل للحوادث ؛ ففي كتب السنة
والكتاب الكريم وكتب السيرة من البيان والتفصيل ما يُعين الباحث على
الاطمئنان لما ذكرنا من أغراض الحرب المشروعة الإسلامية ، ومن التزام
الإسلام جانب الدفاع . وما جاء من قتال المشركين حيث وجدوا ، والإغلاظ
عليهم ، والعودة لهم كل مرصد ، والتنكيل بهم من خلفهم ، وشد الوثاق ، هو
ما كُلِّفنا به بعد وقوع الحرب ، فهو نتيجة لها لا سبب لإعلانها .
فأقواله تعالى :

وصايا وتحميس
إذا وقعت الحرب

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ، وَمَأْوَاهُمْ
جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » . « وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً » .

«فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون . ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول ، وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم ، فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين . قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء ، والله عليم حكيم . » «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . » «واقتلوهم حيث تفتشموهم وأخر جوم من حيث أخر جومكم . » «انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله . » «يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون . » «وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين . »

هذه الأقوال إنما هي آيات توحى إلى القارئ بنفسها أن حالة الحرب قائمة ، وأنها تحريض على الاستمرار فيها والصبر عليها والترغيب في الوصول بها إلى خاتمة يُطمأن إليها ، من الأمن والسلام للمؤمنين ، والحصول على ثبات واستقرار للدين ، ومنع من الفتنة والارتداد بضغط المشركين وقهرهم ، وأمل في أن ينتهي المعتدون عما هم عليه .

ومن مزايا الشريعة المحمدية الجليلة أنها شريعة عملية تواجه الحقائق البشرية والفطرية ، وتجاوبه المعضلات بالحل العملي ؛ فما دامت الموعظة الحسنة لا ترد الظلم والاعتداء ، وما دام أعداء الإسلام لا يرضون حسن الجوار والعهد القائم على الإنصاف وحرية العقيدة ، وما دام أهل الشر ذوى سلطانٍ خطير ، فإن الحرب واقعة بين الناس ؛ فلم يقف الإسلام أمام هذه الحقائق مكتوف اليدين بل واجهها بالحزم والعزم اللذين لازما الرسول في دعوته طول حياته ، فأمر بالاستعداد لها : «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون

الإسلام دين
ممل

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين

به عدو الله وعدوكم» فجعل العدو نفسه للإرهاب الذي قد يمنع الحرب ويحفظ السلم.

وحين لم يبق للمسلمين سبيل إلا الحرب ، وأصبح حقهم في ذلك واضحاً ، أيسح القتال وكانت السلم هي المقصد الأسمى له ، لقوله تعالى « فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » ولقوله تعالى « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » .

وما أحسن قول (شوقي) في هذا المعنى :

والحرب في حقّ لديك شريعةٌ ومن السُّمومِ الناجعاتِ دواءُ

فريضة الجهاد
على المسلم
والمسلمة

فإن قامت الحرب الدفاعية المشروعة وقد استحكمت أسبابها ، وجب القتال على الناس كافة ، وأصبحت فريضة الجهاد على كل مسلم ومسلمة تؤدّي من صميم الوجدان وفق أوامر القيادة الإسلامية المُمثلة في شخص ولي الأمر ، وعندئذ تتجلى الهمة العالية التي يريد بها الإسلام ، فيجرّم النكوص والفرار ويطلب الصبر والمصابرة والفداء والاستبسال وبذل الأرواح والأموال بسخاء ، وهجر المنازل والأوطان في حالة استيلاء العدو عليها .

« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار . ومن يؤلّهم يومئذ ذُبره إلا مُتَحَرِّفاً لقتالٍ أو مُتَحِيزاً إلى فئة فقد باء بغضبٍ من الله ومأواه جهنّم وبئس المصير » .

ولا يكلف الإسلام الناس بقتال عنيفٍ يستحقون على الفرار منه لعنة الله وغضبه وعذابه إلا إذا كان هذا القتال حقاً مشروعاً ، دفاعاً عن أقدس ما يدين له المؤمن . وهو في هذا التكليف يأمر المؤمن ، بالصبر والثبات والأيّوي الكفار ذُبره ، حتى ولو كان يقاتلُ بنسبة واحدٍ لعشرة ! والتكليف بهذا هو التكليف بالمستحيل إن لم يقتنع المقاتل تمام الاقتناع بأنه يقاتل عن حقٍّ لا محل للشك فيه ، هو حقّ الدفاع عن النفس والعقيدة ضدّ من يعتدى عليهما .

ولا يمكن في حرب العدوان أن يُحمَلَ الناس على الصبر واحداً لعشرة ، وهم يعرفون أنهم هم الذين اعتدوا وأضرُّوا نار الحرب ؛ فإنهم عندئذ لا يجدون من أنفسهم صبراً ؛ إذ لا داعي للفداء بالنفس والرغبة في الموت دون الحياة .

فتلك الآيات الجليلة التي تحرِّض على القتال والاستبسال والاستشهاد والتشديد على العدو ومفاجأته والغلبة عليه والتربُّص له ، وسدَّ جميع المسالك والمنافذ في وجهه ، والتي تدعو إلى بذل الأموال وهبة النفوس وهجر الأوطان في سبيل نصر الله ، واضحة في أنها تحرِّض على حربٍ دفاعيةٍ مشروعةٍ بشرعة الإسلام .

وإذاً يظهر لنا من مجموع آيات الكتاب الكريم الواردة في القتال ، ومن عمل النبي نفسه في سُنَّته ، ومن السيرة وتاريخ حروبه ، أن الإسلام لا يُبيح حرب الاعتداء ، ولا يُحلُّ الحرب لِعَرْضِ الحياة الدنيا ؛ فعند الله مغايرٌ كثيرة . أما الغايات الأخرى التي يقاتل من أجلها الناس ، كسيادة عنصرٍ على شعب ، أو استعلاء ملكٍ على ملك ، أو طبقة من الطبقات الاجتماعية على طبقة أخرى ، أو توسيع رقعة مملكة ، أو أغراض حرية واستراتيجية ، أو الأغراض الاقتصادية ، أو الاستئثار بالمواد الخام والأسواق التجارية ، أو تمدن المتخلفين عن الحضارة ، أو غير ذلك مما تتخذه الدول وسيلة لإشعال الحرب وتقض العهد وهدم السلم الدائمة ، فليس ذلك كله في شيء مما أباح الإسلام القتال لأجله ؛ ذلك لأن غايات الإسلام إنسانية سامية يُعْمُ نفعها الناس جميعاً ، ونظرته عُلوِيَّة تتقع على البشر جميعاً كأشربة واحدة متكافلة . والله تعالى ليس ربَّ المسامين وحدهم ، بل ربُّ العالمين ...

الحرب الهجومية
لا يبيحها
الإسلام

الحرب لأغراض
مادية غير
مشروعة

«يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم » «كلكم من آدم وآدم من تراب » «ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا » «لا ينهاكم الله عن

الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب الْمُقْسِطِينَ . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم . ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون . « فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا . »

فالإسلام على استعداد دائم لعقد اتفاقات منووعة مع جيرانه والأمم الأخرى تكفل دوام السلم ، ولا تكلف هذه الأمم أكثر من أن تكون لها رغبة حقيقية في السلم ، ونية صادقة للوفاء بالعهد ، وهو مع هذه الرغبة الأكيدة في دوام السلم لا يستعجل الحرب ولا يباغت بها ، بل يقيم حجته ويبسطها لمنازعه ويُنذِرُه ، ويضع أمامه المَخَارِجَ من مآزقه ، فإذا عاند وأبى إقتالا وأصرَّ على عدوانه ، كانت الحرب ، وكان ذلك التحريض عليها والاستبسال والفتك بمن اعتدى ، والصبر والمصابرة والبذل والتضحية والهجرة وكل ما ينطوي عليه الفداء بالأموال والأنفس مما جاءت به الآيات الجليلة التي ذكرنا بعضها ، والتي يتخذها بعض الناس ، وخصوم الإسلام وسيلة لتصوير الدعوة المحمدية بأنها دعوة دموية جعلت الحرب عنصراً دائماً لقهر الناس واستباحة أموالهم وأنفسهم .

فالدعوة المحمدية واضحة النهج مستقيمة ، ابتدأت بتحريم القتال ، فلما ظلم أهلها واستحال ظهورها بغير دفع القوة بالقوة ، أباخته ، فلما أذنت به أمرت بأن يكون على أكل وجه يؤدى للنصر ، فلما كان لها النصر نادَتْ بأن « لا إكراه في الدين قد تبين الرُّشْدُ من الغي » .

وهي دعوة موفقة تُواجه الحق بالحق وبالصراحة والإخلاص . فإدام أهل الشر لا يريدون إلا شراً فإن من ظلم النفس أن يصبر الناس على الضيم ، وأن يُستضعفوا في الأرض .

الضعف والذل
ظلم للنفس

« إن الذين تَوَفَّاهُم الملائكة ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ ، قالوا فِيمَ كُنْتُمْ ؟ قالوا كُنَّا
مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ . قالوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ؟ فَأُولَئِكَ
مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا . إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ
لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا . فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ » .
فَكَأَنَّ الدَّعْوَةَ الْحَمْدِيَّةَ بَغَضَتْ أَتْبَاعَهَا فِي الْعُدْوَانِ إِذْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى
« وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » ، أَمَرَتْ كَذَلِكَ بِالْهَجْرَةِ عَنِ الْأَوْطَانِ ،
بَلْ بِالْإِسْتِشْهَادِ وَالْمَوْتِ دُونَ قَبُولِ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ .

فَكَأَنَّ الدَّعْوَةَ الْحَمْدِيَّةَ بَغَضَتْ أَتْبَاعَهَا فِي الْعُدْوَانِ إِذْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى
« وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » ، أَمَرَتْ كَذَلِكَ بِالْهَجْرَةِ عَنِ الْأَوْطَانِ ،
بَلْ بِالْإِسْتِشْهَادِ وَالْمَوْتِ دُونَ قَبُولِ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ .

الحرب لنصرة المظلوم

مبدأ شريف في الجاهلية والإسلام — قصة حلف الفضول — حلف مرغوب فيه دائماً — لا تحالف في الإثم والعدوان — وصايا قرآنية بالعدالة المثالية — حرب أخرى مشروعة — حلف جاهلي آخر يحدد بروح إسلامية — المسيحية والحرب — اختلاف المسيحيين فيها — الحرب العادلة عند بعض المسيحيين — لجوء المسيحيين إلى شبيهه بالنظرية الإسلامية .

مبدأ شريف
في الجاهلية
والإسلام

مما يشرفُ الدعوة المحمدية أنها أباحت القتال ، بل جعلته من الفضائل لردِّ المظالم ودفع العدوان عن الضعيف ، سواء كان فرداً أم جماعة ، رغبة منها في إقامة صرح العدل الذي يريده الله على الأرض .

وقد جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم لردِّ المظالم ، كما جلس لذلك خلفاؤه من بعده ، ويده سلطان الدولة لقهر المعتدي ودفع الظلم .

قصة
حلف الفضول

وأقرَّ صلى الله عليه وسلم (حلف الفضول) ، وهو ذلك الحلف الذي عقد في الجاهلية لنصرة المظلوم ، وقال لو دُعيتُ إليه في الإسلام لأجبتُ .

وسبب ذلك الحلف أن رجلاً من اليمن قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها منه رجل من بني سهم ، قيل إنه العاصي بن وائل ، وامتنع بسلطانه عن أن يدفع للرجل ثمن بضاعته ، أو يردَّ إليه ماله ، فقام الرجل بجوار الكعبة وصرخ بأعلى صوته :

يَا لَقْصَى لِمَ ظَلَمَ بَضَاعَتَهُ بَيْطُنِ مَكَّةَ نَائِي الدَّارِ وَالنَّفَرِ !

فقام نفر من قريش وردوا عليه ماله ، ثم اجتمع بنو هاشم والمطلب وأسد بن عبد العزى وزهرة ابن كلاب وتيم بن مرة في دار عبد الله بن جدعان وتحالفوا على ردِّ المظالم وإنصاف المظلوم من الظالم . وكان النبي صلى الله عليه وسلم معهم ، وسنه وقيمتهم خمس وعشرون سنة ، وكان إذا ذكر

حلف الفضول يقول « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلف الفضول ، أما لو دُعيتُ إليه في الإسلام لأجبتُ ، وما أحبُّ أن لي به حمر النعم وأني نقضته ، وما يزيدُه الإسلامُ إلا شدة » .

فإذا قد أقرَّ النبي صلى الله عليه وسلم حلفاً تعاقداً فيه طائفةٌ من الناس على القتال لنصرة المظلوم وقال إنه يفضلُه على خير ما في دنياه .

وبذلك أصبحت الدولة الإسلامية مكلفةً شرعاً برد المظالم ، بل والقتال لنصرة المظلوم .

ونستطيعُ إذاً أن نقرر أن الإسلام الذي أباح الحربَ للأسباب الواردة في الآية الجليلة : « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنْ اللَّهُ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ » . وما بعدها — وقد ذكرناها في الفصل السابق — يبيحُ القتال كذلك لنصرة المظلوم فرداً أو جماعةً ، مسلماً أو غير مسلم ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي نَزَّهَهُ اللهُ عَنْ ضَلَالَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ منذ صباه قد اشترك في حلف الفضول قبل بعثته ، وأقرَّه في الإسلام ، وقال إن الإسلام لا يزيدُه إلا شدة .

فكما أن الحربَ تقعُ للدفاع عن النفس من مظلومٍ ضدَّ ظالمٍ ، إنها تقعُ كذلك من قوَى على قوَى لنصرة مظلوم لا ينتمي لأحدهما . وإذاً يجوزُ لدولة إسلامية أن تتحالف مع دولة أو دولٍ أخرى لدفع الاعتداء والظلم عن المظلومين .

فارتباطُ مصرَ كدولة إسلامية في ميثاق (هيئة الأمم المتحدة) مثلاً لا ضررَ فيه من الناحية الشرعية . ومتى حُسِنَتِ النيةُ وكان الميثاقُ قائماً على حب الخير والعدل والإنصاف وحماية المظلوم ومنع الاعتداء بالقوة فإنه يكونُ ميثاقاً مرغوباً فيه من المسلمين ، حكمه حكمُ حلف الفضول الذي لم يزدْه

حلف مرغوب فيه دائماً

الإسلام إلا توثيقاً وشدةً ، والذي كان من أحبِّ الأشياءِ إلى قلبِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم .

لا تحالف في
الإثم والعدوان

أما إذا كانت المواثيقُ للتعاونِ على الظلم ولقهرِ المغلوبين واستباحةِ المستضعفين ، فإن الإسلامَ يَعدُّها تعاوُنًا على الإثم والعدوان الذي يَنْهَى عنه ، وُبعداً عن التقوى والبر الذي يدعو إليه . قال تعالى « وتعاونوا على البرِّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . والأعمالُ في الإسلامِ كُلُّها مَرَجِعُها النيةُ فهي التي تُصلِّحُها أو تُفسدُها ، والعبرةُ فيها بما تَقْصِدُ إليه من خيرٍ ، وما تريدهُ من العدلِ الذي هو أساسُ نظمِ الخليفةِ كُلِّها . يقول تعالى « والسماءَ رَفَعَهَا ووضَعَ الميزانَ » ويقول تعالى « يا أيُّها الذين آمنوا كونوا قوَّامينَ بالقسطِ شهداءَ لله ولو على أنفسِكُم أو الوالدينِ والأقربِين » إلى آخر الآيات التي ذكرناها في فصل سابق .

فكتابُ الله وسنةُ رسوله وأئمةُ المسلمين متفقون على أن العدلَ هو غايةُ الشريعةِ . وعليه فإن القتالَ لنصرةِ المظلوم من عبادِ الله هو أمرٌ يستحقُّ ثوابَ الله ، وللدولةِ المسماةُ أن تُعلنَ الحربَ وهي في حدودِ الشريعةِ ما دام مَقْصِدُها الإِنصافَ ودفعَ الظلمِ عن الغيرِ .

حرب أخرى
مشروعة

وفي نظري أن هذه هي الحالةُ الوحيدةُ التي تكون فيها الحربُ مشروعةً ولو لم تكن دفاعيةً بالنسبةِ لجماعةِ المسلمين الذين هم في مَنعَةٍ بقوتهم عن أن يُعتدَى عليهم .

وعلى هذا الأساس يجوزُ للدولة الإسلامية كما قلنا أن تشتركَ في ميثاقِ كميثاقِ (هيئة الأمم المتحدة) أو ميثاقِ (كيلوج) مثلاً متى ثبت لها أن ذلك يقيمُ العدلَ بين الناسِ ، كما أن لها أن تدعوَ إلى ميثاقٍ أو حلفٍ لردِّ المظالم وإِنصافِ المستضعفين .

وليس لها بالطبع أن تقا تلَّ أو تشتركَ في قتالٍ تُدعى إليه ما لم تبينَ

بكيفية لا محل للريب فيها أنها تقاتل دفاعاً عن النفس ، أو دفعاً لظلم يبين يقع على مُستَضْرَحٍ مستضعف لا يكون العدل والإنصاف إلا بإغاثته ونصرته ، كالحالة التي أشرنا إليها في حلف الفضول .

وإليك حلفاً آخر عُقد في الجاهلية وجُدِّد في الإسلام ، وهو بين في إباحة الحرب لنصرة المظلوم ، وبين في منع التعاون على الباطل والاعتداء .

في هدنة الحُدَيْبِيَّة بين قريش والرسول صلى الله عليه وسلم ، كان الشرط الرابع من شروط الهدنة « أن من دخل في عهد قريش دخل فيه ، ومن دخل في عهد محمد دخل فيه » وبناءً على هذا الشرط تحالف بنو بكر مع قريش ، وتحالفت خزاعة مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت قبيلة خزاعة حليفة في الجاهلية لعبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم ، فأرادت خزاعة أن يكون ميثاقها مع الرسول مُجَدِّداً كما كان مع آبائه .

وهذا نص محالفتها مع عبد المطلب « باسمك اللهم . هذا حلف عبد المطلب ابن هاشم لخزاعة حلفاً جامعاً غير مفرق ، الأشياخ على الأشياخ ، والأصاغر على الأصاغر ، والشاهد على الغائب ، وقد تعاهدوا وتعاهدوا أو كدَّ عهداً وأوثقَ عقدٍ لا يُنْقَضُ ولا يُنْكَتُ ما قام الأخشيان (جبلان بمكة) واعتمر بمكة إنسان . وإن عبد المطلب وولده ورجال خزاعة متضافرون يتعاونون ، وعلى عبد المطلب النصرة لهم ، وعلى خزاعة النصرة لعبد المطلب وولده على جميع العرب في شرق وغرب وحزن وسهل ، وجعل الله على ذلك شهيداً وكفى به وكيلاً » .

فأقر النبي صلى الله عليه وسلم نصوص هذه المحالفة وجَدِّدَ عهداً ؛ غير أنه زاد فيها شرطين : الأول ألا يُعين خزاعة إذا كانوا ظالمين ، والثاني أن ينصر خزاعة إذا ظلموا ، وبعد أن زاد هذين الشرطين كتبت نسختان من هذه المعاهدة تسلم كل طرف نسخة منها .

لم تكن خزاعة وقتئذٍ قد أسلمت بل كانت لا تزال على شركها ، وكلُّ

حلف جاهلي آخر
يحدد بروح
إسلامية

ما بينها وبين الرسول هو تلك العلاقة الجاهلية التي كانت مع جده ، وكان أساسها تحالفاً على الحق والباطل . فشرطاً الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه المحالفة يدلُّ على عدة أشياء .

أولاً — أنه لا يُقرُّ المحالفة على أساس تعاونٍ غير معيَّن قد يجرُّه إلى باطل ، وهو الذي بعثه الله لإقامة العدل ، بل اشترط فيها صراحةً ألاَّ يُعين خزاعة حليفته إذا كانت ظالمة .

ثانياً — أنه لا يمتنع عن نصرته مظلوم ولو كان مشركاً .

ثالثاً — أنه تعهد بنصرة هذا المظلوم ولو أنه مشركٌ مخالفٌ في الدين .

رابعاً — أن أساس الحرب المشروعة هي الحرب الدفاعية ، سواء أكانت هذه الحرب دفاعاً عن النفس أم دفاعاً عن طرف ثالث يستحق النصر ، وهي مباحة في حالة عدم الالتزام بها وواجبة في الحالة المماثلة لحالة خزاعة ، إذا كانت لنصرة معاهدٍ مظلوم .

لقد حاولت بعض الأديان الأخرى قبل الإسلام أن تخفف من ويلات الحرب ، وأن تضعف من شرِّها وأن تحدِّد بلاءها ، حاولت محاولات صادقة ولكن مع الأسف قد طغت طبيعة الشر .

جاءت المسيحية بتحريمها الحرب بتاتاً بقول السيد المسيح عليه السلام في إنجيل متى «أما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشرَّ بالشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحوِّلْ له الآخر أيضاً ، ومن سخرَّك ميلاً واحداً فاهرب معه ميلين» .

ويستند كذلك أنصارُ الرأي القائل بتحريم الحرب تحريماً مطلقاً إلى قول المسيح عليه السلام للقديس بطرس «أعد سيفك إلى مكانه ؛ لأن كلَّ

الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون» وعلى هذا تكون المسيحية تحرم .
الحرب بل التسليح أيضا .

اختلاف
المسيحيين

ولكن المسيحيين اختلفوا فيما بعد ؛ فبينما كان رجال الكنيسة الغربية في القرون الأولى للمسيحية يقاومون بكل سلطانهم الحرب حتى ولو كانت دفاعاً عن النفس ، فإن رجال الكنيسة الشرقية في بيزنطة قد خلطوا بين شخص الإمبراطور سيد العالم وبين الرئاسة الدينية ، فجمعوا في ذاته سلطان الله وسلطان الدولة ، وسارت بيزنطة في طريق مخالف تماماً لرأى رجال الكنيسة الغربية ، فلم تكتف بتحليل الحرب التي حرّمها المسيح ، ولا هي اتخذت طريقاً وسطاً فأحلتها للدفاع عن النفس أو نصرة المظلوم كما فعلت الشريعة المحمدية ، ولكنها رَضِيَتْ أن يكون حق إعلان الحرب حقاً مطلقاً للإمبراطور ، لا يحدّه إلا المصلحة التي يراها ذلك الإمبراطور جامع كل السلطات .

لقد كان ظهور المسيحية في العصور الأولى خيراً وبركةً على البشر ، فقاومت أصول الشر في نفوس أتباع المسيح ، وصانت دماءً غزيرةً كان يُريقها السلب والنهب والعدوان والطغيان . ولا شك أن المسيحية استمرت طويلاً تكافح إلى أن نسي الناس دين المسيح ودعوته ، وأقاموا من شهواتهم وأغراضهم ومصالحهم كل الأسباب لحروب الطغيان التي اكتوى البشر بنارها في الشرق والغرب طول العصور الوسطى وما بعدها إلى يومنا هذا .

الحرب العادلة
عند بعض
المسيحيين

ولقد بذل رجال من المسيحيين حياتهم في سبيل التسك بتحريم الحرب بل تحريم صناعة الجندية ، وبذل آخرون جهوداً جبارة في سبيل التوفيق بين نص الإنجيل وضرورات الدولة ، فخرجوا بالتفريق بين الحرب المباحة والحرب الممنوعة ، وأثاروا البحث فيما هي الحرب العادلة ؟ فحدّوها بأن يعلنها الأمير ،

وأن تكون عادلةً ، واشتروا فيمن يعلنها أن يكون سليم النية صادقاً بلا طمع ولا وحشية .

والحربُ في نظر هؤلاء المصلحين من المسيحيين تعتبر وسيلة لتنفيذ حكمٍ عادلٍ قضى به قاضٍ ، فلا تبغها الأنانية وإنما يجذبوها العدلُ وتلبسها الرحمة . ولا يسمحُ المقامُ بسردِ النظرياتِ المسيحية وتطورها ، فيمكن للراغبين في التفصيل الرجوعُ إليها في مراجعها .

ولكننا نستخلصُ من ذلك الجدلِ وتلك الأبحاثِ ، بعد أن دامت أكثرَ من ألفِ سنةٍ ، أنها اهتدت إلى مبادئٍ هي أشبهُ شيءٍ بالقواعدِ الإسلامية للحربِ المشروعةِ والحربِ العادلةِ التي أشرنا إليها في هذا الفصل وما قبله .

وفي اعتقادي أن القواعدَ الإسلامية هي الأسسُ الصحيحةُ التي جمعت بين ما يقتضيه إقامةُ صرحِ العدلِ العالميِّ ، وما تقتضيه الرحمةُ والأخوةُ البشريةُ ، وما يقتضيه الإنصافُ وكبحُ أهواءِ النفوسِ الشريرةِ ، وما يقتضيه صونُ الدماءِ وإقامةُ السلمِ الدائمةِ على حرمةٍ مقدسةٍ .

لجوء المسيحيين
إلى شبيهة بالنظرية
الإسلامية

لذلك فإنني أدعو ذوي البصيرة والنظر لاستمداد الشريعة المحمدية في وضع نظامٍ للعلاقات الدولية والسلم العالميِّ ؛ فعلى ضوء المبادئ السامية العملية التي دعا إليها محمد صلى الله عليه وسلم يمكن تجديد ميثاق جامعة الأمم ، ويمكن اجتنبُ اتخاذ الحرب وسيلة لتحقيق الأغراض والمطامع البشرية .
« ولتكن منكم أمةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » .

ولتكن روح هذه الآية الكريمة روح الميثاق الدولي :
وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفي إلى أمر الله ، فإن فأت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين .

ولا شك أن هذا النظام للمؤمنين يمكن أن يكون نظاماً للناس جميعاً ،
ويمكن للدول الإسلامية أن تتعاهد عليه ، وأن تقا تل احترامه ورد من
يتنكب حرمة .

«وبعد» فالجرب لنصرة المظلوم لا يراد بها أغراض دنيوية ولا تحقيق مطامع
دولية ، ولا شفاء حسد أو حقد ، وإنما تقع لمجرد إحقاق الحق ودفع الباطل .
وهي حالة ظاهرها التدخل بين طرفين آخرين والاعتداء على أحدهما لنصرة
الآخر ، إلا أن حقيقتها الدفاع ، لأن المقصود منها رد العدوان عن مستضعف .
وإذا اعتبرنا أن التكافل البشري سبب العمران ، وأن العدل أساسه ، فالحيلة
بين المعتدى وبين نقض أساس العمران هي دفاع عن العمران نفسه ، وهو على
هذه الصورة دفاع حتى عن المعتدى بمنعه من شر نفسه . وإذا قيل إن هذا
يأذن بالتدخل المستمر في شئون الغير ، والتدخل اعتداء من الدولة الإسلامية ،
وقيل إن الدولة غرضها نفسها ، وليس لها أن تقيم من نفسها شرطياً عالمياً ،
قلنا إن هذه هي الحالة الوحيدة في نظرنا ، وهي مبررة ، وإن العالم يحس
من أعماق نفسه الحاجة إلى من ينصف المستضعف ، وإن الدول الأوروبية بعد
أكثر من ثلاثة عشر قرناً من حلف الفضول وحلف خزاعة ، حاولت أن
تقيم في ميثاق عصبة الأمم عهداً مماثلاً لما أراده الإسلام من نصرة المظلوم ،
فأقرت مبدأ التدخل الإجماعي للسلامة الإجماعية ، وإحقاق الحق وإزهاق
الباطل . والعبرة في الأعمال بالنية ، فهي التي تخلص الأعمال أو تفسدها .
ولا شك في حسن نية الدولة الإسلامية مادام الباعث لها على التدخل الذي
يجر إلى الحرب هو ما يوصى به الضمير وتستلزمه العقيدة من غرض سام
يقصد به وجه الله وحده وإحقاق الحق .

نصرة المظلوم
ضرب من
التكافل

أدب الحرب

الحرب والرق والقضاء عليهما تدريجيا — أدب عام وأدب خاص —
 بين الإنذار والمباغلة — حماية حقوق المستأمن المنتسب للعدو — من سماعة
 الفقهاء — واصل بن عطاء والحوارج — مسالة غير المحاربين — الغارات
 العصرية على الأمنين — فرار إلى وصايا الرحمة في الأديان — التخريب
 القاسى — حوادث ونصوص — نظرات في أحكام الأسر والاسترقاق —
 حادثة بنى قريظة ونموض بعض ظروفها — لا قتل بسبب الشرك أو الكفر
 وحده — احترام للنفس البشرية لا يعرف التخصيص — آداب أخرى للحرب

الحرب والرق
 والقضاء عليهما
 تدريجيا

أجازت الدعوة المحمدية الحرب في أضيق نطاق كما تغاضت عن الرِّق لأنه
 كان أيضا نظاما عالميا، وعملت تدريجيا على منع الحرب ومنع الرق بأساليبها
 المختلفة، وجعلت القاعدة العامة بالنسبة للأسير المَنّ أو النداء، فصار تشريعها
 العام بالنسبة للأسير مانعا للرق. وبالخصّ بجميع الوسائل على تحرير
 الرقيق، وتخصيص سهم من الزكاة لفك الرقاب، وبالإحسان إليه وفقا
 لأداب خاصة تستلزمها الشريعة ويستلزمها الورع، قاومت الدعوة المحمدية
 الرق مقاومة كانت بالتدريج أفعال في تهينة الضمير البشرى للقضاء عليه من
 المفاجأة بالتحريم البات.

كذلك الحرب، جاءت الدعوة المحمدية والقتال نظام عام متأصل في
 نفوس البشر وفي حياتهم الاجتماعية، فلم يبدأ الإسلام بتحريمها، ولكنه
 حصرها في دفع العدوان ونصرة المظلوم فحدد أغراضها، ثم أمر بوقفها بمجرد
 جنوح الخصم إلى السلم، وأنهاها بالمهود والمواثيق التي لها حرمة الإيمان،
 حتى جعل حق الميثاق فوق حق صلة الإسلام، فأحاط الحرب بحدود ونظم
 وأسباب وأغراض وعهود وعرف في أثناء القتال، مما يقلل وقوعها ويخفف

من ويلها . ولو أن المسلمين وُفِّقوا في هذه كما وفقت الدعوة المحمدية في مقاومة
الرق لشمس العالم سلام دائم كما شمله اليوم النفور من الرق . وإنا لنرجو أن
تُذكر هَدَفُها في العصر الآتي ، وقد طغى شر الحرب إلى درجة غير مسبوقة .
ولا يزال أمام العالم مجال إذا اهتدى بهدى الإسلام .

أدب عام وأدب
خاص

عرفت الدعوة المحمدية الحرب شرًا واقعا متصلا فأحاطتها بأدب عام من
تعيين غرضها ، وحصرها في دفع العدوان وحماية حرية العقيدة ، وإنهاؤها
بالمهود المصونة العادلة ، وإحاطتها كذلك بأدب خاص في أثناء الحرب نفسها ،
وفيما يجب أن يكون بين المتحاربين من عُرفٍ يَرَعُونَه ؛ فتى وقع بين المسلمين
وغيرهم ما يستوجب الحرب ، وجب على المسلمين أن يُنذِرُوا عَدُوَّهُمْ بِنَيْتِهِمْ ،
ويُمهِّلُوهُ للرد والتفاهم إن أراد . وقد قال بعض الفقهاء إن هذه المهلة التي تعقب
ما يسمى اليوم بالإنذار النهائي يجب أن تكون كافية ليُخبر العدو بها أطراف
أهله ودولته ، وهو أدب يتفق مع القانون الدولي الحديث . ولكن بعض
الدول في هذا العصر تختار المِباغَةَ بالحرب والهجوم على الخصم من غير إنذار ،
بل قد بلغ من احتياط بعضها لتتمكن من تمام المفاجأة للدولة الأخرى أن
تتظاهر بالرغبة في دوام السلم ، وأكثر من ذلك أن تُخْفِي غَضَبَها وتُظهِرَ عدم
اهتمامها بالنزاع الذي تنوى الحرب من أجله !

الإنذار

افتنَّ أهل الحضارة الحديثة في الخديعة إلى درجة غير مسبوقة في تاريخ
الأقوام ، حتى صاروا يعقدون عهودا المقصود منها تغفيل المعاهد وطمأنته ، حتى
تكون مباغتته وأخذُه على غِرَّةٍ كاملة .

ذلك أدب جديد ، أو سوء أدب جديد في الحروب ، ليس أبغض إلى
الإسلام منه ، والشريعة المحمدية تأباه رُوحًا وفعلاً ، وتعدُّ فاعله آثماً مستحقاً
غضب الله .

حماية حقوق
المستأمن المنتسب
للعُدو

والشريعة الإسلامية بعد أن تُنذِرَ الخصم بالحرب ، وبعد أن تنقطع الحجة ، لا تلجأ إلى مثل ما تلجأ إليه الدول في العهد الحاضر من مفاجأة المستأمنين في ديارها من رعايا الدولة أو الجماعة التي أعلنت عليها الحرب ؛ فلمُستأمن في الشريعة الإسلامية حقوق لا يمكن العدوان عليها لمجرد وقوع الحرب بين قومه والقوم الذين ينزل ديارهم ، أو يقع في متناول سلطانهم ، فلا يجوز الاعتداء عليه بمصادرة ماله ، أو الإضرار بعمله أو شخصه ، وله كفالة كل ذلك حتى شهياً له العودة إلى وطنه الأصلي ويدخل في حماية قومه . عندئذ وعندئذ فقط يجري عليه ما يجري على المحاربين ، وذلك بنص القرآن بقوله تعالى (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه) وقد بلغ من حرص المسلمين على احترام حق المقيم في ديارهم والنازل بها عن رضا منهم قبل الحرب أو حتى أثناء الحرب ، أن قرر فقهاؤهم أنه يجب على الإمام إذا وقت للمستأمن مدة ألا يجعل هذه المدة قليلة كالشهر أو الشهرين ، فإن في ذلك إلحاق الضرر به ، خصوصاً إذا كانت له معاملات يحتاج في اقتضاها إلى زمن طويل . . .

من سماحة الفقهاء

بفتح طاء
بضم عا

وقد بلغ من إنصافهم هذا الأجنبي المقيم في ديارهم ، والذي يقاتلون أهله ودولته ، أن أباحوا له التمتع بكامل حرّيته ، كأن لم تكن بينهم وبين أهله حرب ، ما دام خاضعاً لأحكامهم ، مستقيماً في سيره وعمله ولم يزكن إلى أذاهم بحال من الأحوال .

أقام الإسلام هذا الأدب مع المستأمن في حالة الحرب على أساس العدل والإنصاف . وما الحروب في مجملها إلا نتائج مباشرة لفقدان العدل والإنصاف . ومن أظرف ما قرأته مما يدل على مقدار ما للمستأمن من حرمة ، ما روى من أن واصل بن عطاء (زعيم المعتزلة) وقع هو وبعض أصحابه في أيدي الخوارج ،

لطيفة بين واصل
ابن عطاء
والخوارج

وهم كما هو معلوم من أشدّ المسلمين تمسّكا بأهداب الدين وتعصبا في آرائهم ،
نفخى واصل وأصحابه شرهم ، فقال لأصحابه : دَعُونِي وَإِيَّاهُمْ ، وكانوا قد أشرفوا
على العطب ، فقالوا : شَأْنُكَ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ ، فقالوا : مَا أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ ؟
قال : مُشْرِكُونَ مُسْتَجِيرُونَ لِيَسْمَعُوا كَلَامَ اللَّهِ وَيَعْرِفُوا حَدُودَهُ . فقالوا :
قَدْ أَجْرْنَاكُمْ . فَجَعَلُوا يَعْلَمُونَهُ أَحْكَامَهُمْ ، ثُمَّ قَالُوا : امْضُوا مُصَاحِبِينَ فَإِنَّكُمْ
إِخْوَانُنَا . قال واصل : ليس ذلك لكم فإن الله تبارك وتعالى يقول : « وَإِنْ
أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ »
فَأَبْلَغُونَا مَأْمَنَنَا . فنظر بعضهم إلى بعض ثم قالوا : ذلك لكم . فسادوا بأجمعهم
حتى بَلَّغُوهُمْ الْمَأْمَنَ .

تلك القصة تدل على أن الحُرمة التي للمستأمن كانت في نظر بعض أنصار
الدعوة المحمدية أعظم من الحُرمة التي للمسلم على المسلم ، حتى إن أحد علماء
المسلمين وجد فيها خلاصاً لنفسه ومَن معه من يدِ مسلمين أشرارٍ يقطعون
طريق السابِلة ويعصون الإمام .

ومن القواعد الأساسية التي بُني عليها أدب الحرب في الدعوة المحمدية
ذلك المبدأ السامي ، وهو الامتناع عن محاربة غير المحاربين وقصدهم بالأذى ؛
فهو لا يُجيز قتل الشيخ أو الصبي أو المرأة أو العجزة ، أو من انقطعوا للعبادة
أو العلم وامتنعوا بذلك عن أن يشتركوا في القتال ، أو العامة من الضنّاع
والزّراع والتجار الذين لا يقاتلون ، أو بعبارة أعمّ ، تلك الطبقات التي نطاق
عليها اليوم : المدنيّين .

هؤلاء المدنيون لا يجوز قتلهم ، وقد بلغ من حرص الشريعة على تجنبهم
وَيْلَاتِ الحروب وإبعاد شرها عنهم ، وحصر الضرر في القوّات المقاتلة أن
الفقهاء قالوا بوقف القتال إذا وقع بين صفوف المقاتلين من لا يجوز قتله ،
وكان هلاكه محققا بالاستمرار في القتال .

بعضهم
بعضهم
بعضهم

بعضهم

مسألة غير
المحاربين

بعضهم
بعضهم
بعضهم

أين هذا الأدبُ وتُبل الفروسية مما نحن فيه وما صار الناس إليه في الحرب
الأخيرة والتي قبلها من إلقاء القنابل على غير هدى ، تصيب النساء والأطفال
والزراع والصناع والسيوخ والعجزة فتتسبف بهم الأرض نسفا ، أو تحرقهم
وديارهم حرقا ؟ !

أين تلك الحرمة للنفوس البشرية ؟ وأين تلك النظرة للحرب على أنها
تحكيم للسيف بين حامليه وخدم من هذا الأدب الحديث الذي لا يشبهه من
قرب إلا ما قيل عن المغول أيام (جنكيز خان) ومن بعده ، مما لا يزال مثلا
في الغابرين لأقصى ما وصلت إليه وحشية الهمج في قتل غير المحاربين ، وتخريب
المدن والقرى ؟ !

ليس لما يأتية اليوم المتحضرون بغاراتهم الجوية ، أو مدفعياتهم الأرضية
شبيهة في الشؤم والقسوة إلا ما كان أيام ذلك الطاغية المغولي قبل سبعة قرون ،
بل إن ما يحدث اليوم من استباحة كاملة لكل الحُرُمات بالغارات الجوية منقطع
النظير . والشرعية الإسلامية تحرمه وتأباه في سلطانها وضعفها غالبية
أو مغلوقة . وإن أباح الفقهاء الرد على أعمال التخريب والتقتيل غير المباحة
بمثلها متى ابتدأ بها الخصم ، مستندين على قوله تعالى « فن اعتدى عليكم فاعتدوا
عليه بمثل ما اعتدى عليكم » وقوله « وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح
فأجره على الله » فهم متفقون على تحريم الابتداء بهذه الأعمال . وواضح من
نص الآية وروحها أن المقصود الرد بالمثل لإنذار الخصم وإقناعه بالعدول عما
أقترف من إثم . وقوله « فمن عفا وأصلح فأجره على الله » هو تأكيد كذلك
لرغبة الشارع في ألا يجاب على أعمال العدوان المخالفة للرحمة والأدب إلا إذا
قضيت الضرورة القصوى .

أين هذا العرف الدولي والأدب الحربي الذي تريد تثبيته الدعوة المحمدية ،
فتجمله جزءا من العقيدة والإيمان مما تفعله الدول اليوم من التعويل على وسائل

قتل المدنيين وتخريب العمار وحرق الناس وأموالهم وثمرات الأرض لتُخضع
خصومها وتجبرهم على إلقاء السلاح !

بل أين هذا مما فعلته بعض دول الحضارة الحديثة من استخدام الأسلحة
الجوية بقنابلها ومدافعها الرشاشة لقتال بدو لا يملكون من وسائل الحرب
غير بنادق من بقية القرن الماضي ، وتسليط هذه المدافع الرشاشة على بيوت من
الشعر ، وعلى السائمة من الإبل والغنم في مراعيها ؟!

حقا لقد آن أن يفزع الناس إلى عقائدهم .. إلى ما جاء به موسى وعيسى
ومحمد ، لتكون للحرب حرمة وآداب تخفف من ويلها ، وقد كان الهنج
يعرفون بعضها ويرعونونه .

وأي ما نحن فيه مع شديد الأسف والحزن مما وصلت إليه الدعوة المحمدية
من الآداب في الحرب ، وتقريرها أن ليس المقصود من الحرب التشكيل
والتخريب ، بل أن تكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الله لا تكون إلا حقا وعدلا
وإنصافا شاملا للناس جميعا ؟!

هذا المبدأ مبدأ الرفق والرحمة حرّم على المسلمين في حروبهم أن يلجأوا
لقهر عدوهم بتجويع الأمة المحاربة ، أو منع أسباب الحياة من قوت أو دواء
أو لباس من الوصول إلى غير المحاربين منها .

ولقد بلغت القسوة في الحروب الحديثة أن الجيوش إذا انسحبت من أرض
دمرت ما بها ، ولو كان في ذلك هلاك أهلها فضلا عن أعدائها ، وهو عمل
لا تبيحه الشريعة المحمدية بحال من الأحوال ، فهي فوق أنها لا يمكنها أن
تتصور الاعتداء على ممتلكات أهلها ممن تتركهم الجيوش الإسلامية وراءها ،
ممنوعة قطعاً بدنيها من أن تحرق الزرع أو تقطع الشجر أو تحرم المدنيين
المقيمين وسائل العيش في الأرض التي صارت ساحة للجيوش المتقدمة والمتأخرة .
ولا خلاف بين المسلمين في أنه يجوز في الحرب قتل المشركين الذكرا

الفارات العصرية
على الأمنين

فرار إلى أخلاق
الرحمة في الأديان

التخريب القاسي

البالغين المقاتلين ، وكذلك لا خلاف بينهم في أنه لا يجوز قتلُ صبيانهم ، ولا قتل نساءهم ما لم تقاتِل المرأة أو الصبي ^(١) ، وإن اختلفوا فيما عدا هؤلاء . والنَّهَج الواضح هو أنه لا يصحُّ القصد بأذى لمن ليس شأنه القتال ممن نسميهم اليوم المدنيين ، ولا تخريبُ العمار وحرقُ الزرع وقطعُ الشجر .

روى رباح بن ربيعة : أنه خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها ، فرّر رسول الله وأصحابه على امرأةٍ مقتولة ، فوقف عليها ، ثم قال « ما كانت هذه لتقاتل ! » ، ثم نظر في وجوه أصحابه وقال لأحدهم « الحق بخالد بن الوليد فلا يقتلن ذرية ولا عسيفاً (أجيراً) ولا امرأة » .

وروى مالك عن أبي بكر الصديق أنه قال « ستجدون قومًا زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله ، فدعوه وما حبسوا أنفسهم له ، ولا تقتلن امرأة ولا صبياً ولا كبيراً هَرِمًا » .

وقال زيد بن وهب ، « أتانا كتاب عمر رضي الله عنه ، وفيه « لا تغلوا ولا تغدروا ولا تقتلوا وليداً ، واتقوا الله في الفلاحين » ، وروى كذلك عن عمر أنه قال « لا تقتلوا هَرِمًا ولا امرأة ولا وليداً وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند شئ الغارات » . ويقول الإمام ابن رشد « إنه ثبت عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال لا تقطعن شجراً ، ولا تخربن عامراً » . ولا يجوز لأبي بكر أن يخالف رسول الله مع علمه بفعله من قطع نخْل بني النضير . والفقهاء يفسرون ذلك بأن أبا بكر رضي الله عنه كان يعلم أن حادثة بني النضير التي تشير إليها سورة الحشر كانت خاصة ببني النضير ، كما أنه لا يعرف عن رسول الله أنه قتل حيواناً ، والمسلمون متفقون على تحريم المثلثة ؛ ولم يذكر الكتاب الكريم حادثة بني النضير في سورة الحشر بتفصيل غير الإشارة إليها في سياق القصة والموعظة ، كما لم يُشر إلى حادثة بني قريظة إلا على سبيل العظة كذلك بهذه

(١) انظر بداية المجتهد ونهاية المقتصد للإمام ابن رشد .

الآية في سورة الأحزاب : « وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ
صِيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا . وَأُورَثَكُمْ
أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّوها وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا . »
وليس في القرآن الكريم نص واحد على قتل الأسير ، ولا على استرقاقه ،
ولم يُرَوَّ عن رسول الله أنه استرق أسيرا ، والنص الصريح هو تخيير الإمام
بين أمرين لا ثالث لهما : المن والفداء . يقول تعالى : « حَتَّى إِذَا أَنْخَسْتُمُوهُمْ
فَشُدُّوا الوثَاقَ ، فَإِمَّا مِنْأَ بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا . »
ويقول الإمام ابن رشد رواية عن الحسن بن محمد التميمي ، إن إجماع الصحابة
على أنه لا يجوز قتل الأسير .
فالتشريع العام إذاً هو أنه لا يجوز قتل المدنيين ، ولا قتل المحاربين بعد
تسليمهم ؛ وما شذَّ عن ذلك في الماضي ، أو ما يشذُّ عنه في المستقبل من عمل
الإمام المسلم العادل ، إنما يكون لظروف وأسباب خاصة تقتضي تخصيصاً
في الحكم . وحادثة بني قريظة تحيط بها أسباب معلومة وأسباب مجهلة . أما
المعلوم فهو أنهم خانوا عهدهم واستغلُّوا ظروف كرب وقع للمسلمين لما حَصَرَتِ
الأحزابُ المدينة ، وقد زَاغَتِ الأبصارُ وبلغت القلوبُ الحناجرَ ، فنَقَضُوا
عهدهم ، وَطَعَنُوا المسلمين من خلفهم .
وسبب آخر ، هو أنهم نزلوا على حكم سيِّد الأوس سعد بن معاذ ، وهم
من مَوَالِيهِ فحكمَ فيهم بما حكم ؛ فهم سَلَمُوا على شرط ، وكان الشرط عليهم .
وقيل كذلك ، إن ما حكم به عليهم من القتل جاء موافقاً لشريعة اليهود ، وإن
سعداً حكمَ عليهم بشريعتهم . والحادث في جملة يُشْعِرُ بَغْمُوسٍ يَكْتَفِيهِ ، مما
يدعونا إلى الظن بوجود أسباب أخرى مجهولة لنا .
وما يبرر به بعض الفقهاء قتل المشركين أو مَنْ في حكمهم بَعْلَةُ الْكُفْرِ
أو الشُّرَكَ وَحْدَهَا ، لا يستقيم في نظرنا مع نصوص الكتاب الكريم وروحه

نظرات في
أحكام الأسر
والاسترقاق

حادثة بني قريظة
وغموض بعض
ظروفها

لا قتل لبعلة
الشرك أو الكافر
وحدها

في موضوع القتال ، ولا مع عمل النبيّ والمسلمين في فتوحاتهم أربعين سنة من الهجرة إلى نهاية أيام الخلفاء الراشدين .

والقول بالقتل لعلّة الكفر لا يستقيم في دين يجعل لقتل رجل مشرك من قوم لهم ميثاق ما للمؤمن من حق . يقول تعالى « وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة » . بل ميزه على المؤمن من قوم ليس لهم ميثاق .

ولو كان القتل لعلّة الكفر أصلاً كما يقول بعض الفقهاء لقتل النبيّ مشركي مكة أثناء فتحها ، ولقتل مشركي هوازن بعد (حنين) ، ولما حالف النبيّ صلى الله عليه وسلم خزاعة وهي مشركة ، ولما كان المسلمون في فتوحاتهم من الهند إلى فرنسا وباء على العالم ، ما تركوا على ظهر هذه الساحة من الكفار حياً . وقد روى عن رسول الله حوادث كثيرة في العفو والرحمة مع خصوم أشداء ومع قتلة أعز أصحابه وأهله . ويكفي أن تقرءوا في كتب السيرة معاملته بعد فتح مكة لعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية ، وهما عدوان وابننا عدوين له ، وعقوه عن وحشي قاتل عمه حمزة ، ولم يكن إلا عبدا حبشياً لا في العير ولا في النفير ، وصفحه عن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، بعد أن أسرف في خصومته وهجوه . فهذه أمثلة واضحة على العدل الذي يأبى قتل المدنيين ، أو قتل الأسرى ، أو من جنحوا إلى السلم .

رفع إليه صلى الله عليه وسلم بعد إحدى الوقعات أن صبيّة قتلوا بين الصفوف ، فحزن حزناً شديداً ، فقال بعضهم : ما يحزنك يا رسول الله وهم صبية للمشركين ؟! فعضب النبي وقال مامعناه : إن هؤلاء خير منكم ، إنهم على الفطرة . أو لستم أبناء المشركين ؟ فإياكم وقتل الأولاد إياكم وقتل الأولاد !

ويروى البخاري عن جابر بن عبد الله قال : مرت بنا جنازة فقام لها النبيّ

وَقُمْنَا، فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّهَا جَنَازَةٌ يَهُودِي. فَقَالَ «أَوَلَيْسَتْ نَفْسًا! إِذَا رَأَيْتُمُ الْجَنَازَةَ فَقُومُوا».

فهذا احترام للنفس البشرية لا يعرف التخصيص ، ولا يمكن أن يُحِيز قتلَ غير المحاربين ، أو قتل الأسرى لعلّ الكفر وحدها .

احترام للنفس
البشرية بدون
تخصيص

فمن مطمئنون تمام الاطمئنان لما ذكرنا من تحريم قتل المدنيين وتجويعهم
ومن تحريم تخريب العمار والزرع والشجر ، وقتل الأسرى ، وتحريم المثلة
والإجهاد على الجرحى .

ونعتقد أن الوسائل الحديثة من الغارات الجوية وما يترتب عليها، والرماية بالمدفعية على غير هدى ومن غير إنذار على المدنيين أطفالا ونساءً، شيوخا ومرضى، زُرَّاعا وأجْرَاء، في البر أو البحر أو الجو، لا تبليحها الشريعة المحمدية.

وقد جاءت السنة والعرف بأداب أخرى كثيرة للحرب ، من مجاملة رُسل العدو وعدم التعرض لهم بأذى ، ومن الإحسان للأسرى بما جعلهم مستحقين للبر ، مُتساوين في ذلك مع أيتام المساكين وفقرائهم . يقول تعالى « وَيُطْعَمُونَ . الطعام على حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا » .

آداب أخرى
للحرب

السلم الدائمة

السلم دائمة والحرب طارئة — دفع تهم وأوهام — من أسباب اضطراب
السلام — نصوص في تدعيم حياة السلام — روح سلمية واحدة في مكة والمدينة
شهادة الأجانب — شهادة التاريخ

السلم دائمة
والحرب طارئة

لِنَنْظُرْ في أساسِ العلاقاتِ الدوليةِ في نظرِ الدعوةِ المحمديةِ ، هل هو قائمٌ
على فرضِ أن الحربَ هي الحالةُ الدائمةُ بين جماعةِ المسلمين وغيرهم؟ أو أنها
حالةٌ عارضةٌ والسلمُ الدائمةُ هي أساسُ العلاقاتِ الدوليةِ ، يَنْقُضُها العدوانُ
والظلمُ وحدهُ؟

يظن بعضُ الناسِ ، لِمَا صَحِبَ الدعوةَ المحمديةَ في العصرِ الأولِ من
الفتوحاتِ والحروبِ ، أنها دعوةٌ قامت على السيفِ وتقوم به ، ويظنون كذلك
أن الإسلامَ بصفتهِ دينًا وبصفتهِ دولةً ، في حالةِ نزاعٍ دائمٍ مع مَنْ يخالفونه في ديارهِ
وخارج ديارهِ ، وأنه يُشَبِّهُ بعضَ الأديانِ الأخرى في اختصاصه بآلِهِ هو للمسلمين
خاصةً ، وهو معهم دون سواهم ، أو كبعضِ الأديانِ التي جاءت في أولِ عهدها
برسالةِ السلامِ على أشملِ معانيها فحرمت الحربَ وأيضاً صناعةَ الجنديةِ ، ثم
انقلب رؤساؤها الدينيونَ وانقلبت مؤسساتُها اللاهوتيةُ إلى النقيضِ ،
فأباحَت الحربَ وباركت الحِرابَ والمدافعَ فضلاً على الجنديةِ ، ووصل بها الغلوُ
في عهودٍ طويلةٍ إلى إهدارِ دماءِ المخالفين في الدينِ ، بل إهدارِ دماءِ المخالفين في
بعضِ مظاهرِ الدينِ وطقوسه لأهلِ الطائفةِ الواحدةِ ، بل وصل الحال بهؤلاءِ
الرؤساءِ الدينيينِ أنهم حرموا على الأمراءِ من دينهم أن يهادنوا مخالفينهم في
المذهبِ فضلاً على مخالفينهم في الدينِ ، فجعلوا لأنفسهم حقَّ فسحِ العقودِ
والمواثيقِ ونقضِ الأيمانِ التي يرتبط بها أميرٌ مع أميرٍ أو ملكٌ مع ملكٍ آخرَ ،

أو دولة مع دولة ، وإن كان من شأنها أن تصون الدماء وأن تقيم العدل بين طوائف متناحرة ، فلم تكن للمواثيق والأيمان في نظرها حرمة ، لأن الملحد والكافر ، بل المنشق والمخالف في المذهب مهدور الحق ، فلا حرمة لعهد معه إذا جازت مفاوضته ومعهده.

وبذلك اختل نظام الاجتماع كله ، بل استحال قيام نظام دولي ، لأن زعماء الأديان كانوا يملكون حل الناس من أيمانهم وعهودهم ، وكانوا يفترضون أن الأصل هو الحرب مع المخالف ، وأن السلم عرض يُنقض بمجرد القدرة على نقضه ، وأنه لا ذمة لكافر أو منشق على الإطلاق .

من أسباب
اضطراب السلام

وذلك كله عكس ما جاءت به الدعوة المحمدية ؛ فهي أولاً تدعو إلى إله هو رب العالمين ، منزّه عن الغرض والهوى ، خلق الجميع على فطرة واحدة ، يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، وهو القاهر فوق عباده ، لا سلطان لهم مع سلطانه يقول « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة » .

هذه الدعوة من شأنها أن تفرض أن حالة السلم بين الناس دأمة ، وأنها هي الأصل ، وأن عدوان بعضهم على بعض هو وحده الذي يُزجج هذه السلم ، ويُضرم لظى الخصومة ، ولذلك اعتبرت الحرب حالة ضرورة يُطلقها من عقابها العدوان والظلم ، ويُبيحها التكافل البشري ، فتقع كذلك لنصرة مستضعف مظلوم مستصرخ .

وقد بينا فيما سبق كيف كان الإذن بالقتال ، وما هي أسباب الإذن ، كما بينا ماهية الحرب المشروعة ، مما يعين على تفهم الدعوة المحمدية ، ومما يبين أن الحرب التي أباحها الشريعة تقع استثناء للقاعدة العامة ، وهي السلم الدائمة بين البشر .

والسكيم أدلة أخرى من الكتاب والسنة ، وما جرى عليه المسلمون .

نصوص في تدعيم
حياة السلام

يقول صلى الله عليه وسلم « لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَسَلُّوْا اللَّهَ الْعَافِيَةَ » .
فهو ينهى عن الرغبة في الحرب وتمنيها ، حتى مع العدو ويسأل الله أن
يديم نعمة السلم .

وفي البخاري أن رجلاً جاء إلى النبي ، فقال : الرجلُ يقاتل للمغنم ،
والرجلُ يقاتل للذكور ، والرجلُ يقاتل ليُرى مكانه ، فمن في سبيل الله ؟ قال
صلى الله عليه وسلم : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » .
وهذا واضح في نقض معظم أسباب الحروب التي قاسى العالم ويلاتها ،
وحصرها في الحق والعدل الذي يريده الله ، وواضح في أن الأصل هو السلم .
وكان صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب ، والحرب قائمة ، ينقل التراب ،
وقد وارى التراب بياض بطنه ، ويحفّر مع أنصاره الخندق ويُنشد :

لَا هُمْ^(١) لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
فَأَنْزَلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبَّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَا قَيْنَا
إِنْ إِلَّا هُمْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَيْنَا

ففي هذا النشيد تتجلى روح التقوى والتزهد عن البغى الذي يفعله الخصوم
والدفاع عن حقه في اختيار دينه الذي تريد الأحزاب أن تفتنه فيه وتردّه عنه .
فلولا هذا البغى لاستمرت السلم التي هي الأصل .

ثم انظروا وتبصروا في هذه الآيات الجليلة بروحها ونصّها .
يقول تعالى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ
الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ » ، ويقول تعالى « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا
وَكَكُلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ
حَسْبَكَ اللَّهُ » ، ويقول تعالى « وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا
تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » .

(١) بمعنى اللهم .

ويقول « لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ». « فَإِنْ اعْتَذَلُوا فَلَمْ يَغْفِرْ لَهُمْ وَتَقَاتِلُوا إِلَيْهِمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ». ثم انظروا إلى رُوح السِّلْمِ والمحبة التي تَشِعُّ من هذه الآيات الجليلة .

يقول تعالى خطاباً لرسوله « فذلِكَ فَادْعُ ، وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ، وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ، اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ، لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، لَا حِجَةَ بَيْنُنَا وَبَيْنَكُمْ ، اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ » .

« وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ؟ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ » .

« قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ، لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » .

« وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ » ويقول « لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا . » « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا . أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ! »

(وما أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) .

قد يقول بعضُ الناسِ ممن آمنوا أو ضلُّوا : إن الآياتِ المكيةَ تَقِيضُ بهذه الروحِ ، بينما الآياتِ المدنية تَشْتَدُّ على الكفار والمنافقين ، وَتَحْضُ على القتل والفتك ، وهو قولٌ باطلٌ لأن كتابَ اللَّهِ لا يَتَجَزَأُ ، وقد سبق أن بيَّنا أن الحُضَّ على الحرب في معظم آياتِ الحرب هو تحريضٌ على الصبر والاستشهاد والفتك في حربٍ واقعةٍ فعلياً ، ولم تنتهِ إلى مَسْتَقَرٍّ من السِّلْمِ

روح سلمية
واحدة في مكة
والمدينة

يُطْمَئِنُّ إِلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ ، فهي نتيجة للحرب لا دعوة إليها . ومع ذلك فإنكم
بعض الآيات المدَّيَّة :

« لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » .

« قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإن تولَّوا فإنما عليه ما حُمِّلَ وعليكم
ما حُمِّلْتُمْ ، وإن تطيعوه تهتدوا ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين » .
ويقول تعالى لرسوله « ولا تزال تَطَّلِعُ على خائنة منهم إلا قليلاً منهم
فاعفُ عنهم واصفح إن الله يحبُّ المحسنين » .

فالإسلام في جميع أدوار الدعوة في المدينة أو في مكة لم يُعَوَّلْ إلا على الحجة
ولم يلجأ للسياط إلا دفاعاً ، بل إن تاريخ انتشار الدعوة المحمدية واضح في أن
هذه الدعوة قد انتشرت في الآفاق ، وانتصرت انتصارات باهرة في المشرق
والمغرب في أضعف أيام الدولة الإسلامية ، بل في الانحطاط العسكري
والمسلمون سائمة في يد برايرة المشرق ومتوحشى الفرنج في المغرب .

وفي ذلك يقول السيرتوماس أرنولد في كتابه (انتشار الإسلام) : إن الفتح
الروحي الإسلامي لم يتأثر بسقوط الدولة الإسلامية ، وبضعف القوى
السياسية ؛ ففي أيام هزيمته السياسية نال أعظم انتصاره الروحي .

وفي تاريخ الإسلام حادثان عظيمان يُثَبِّتان ذلك ؛ خين وضع الكفار
المتوحشون من المغول والأتراك السلجوقيين أقدامهم على رقاب المسلمين في
القرن الثالث عشر الميلادي غزا الإسلام قلوبهم فاعتنقوا ، وهم الغالبون ، دين
المغلوبين ، ولم يكن للإسلام عونٌ من سيفٍ أو سلطان .

وإذا رجعنا البصر إلى صلح الحديبية ، ذلك الصلح الذي حزن له المسلمون
لقبولهم شروطاً مُدَلَّةً ، والذي قرر وضع السيف في غمده عشر سنين ، رأينا أن
أعظم فتح معنوي للإسلام كان في أيام هدنة الحديبية ، وفتح الحديبية السلمي
هو الذي هباً لفتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجا .

شهادة الأجانب

شهادة التاريخ

هذا ولم يفكر المسلمون في إقامة جيش دائم ، ولا اعتباروا الجندية صناعةً إلا تقليداً لعدوهم ، وقد صارت له معهم حدود وثغور لا بد للسلامة من الرِّباطِ فيها .

فلم تكن الدعوة المحمدية في حاجة لنقض السلم لتعيش ، ولا كانت في وقت من الأوقات مُعَوَّلَةً على الإكراه في الدين لتنتشر ، ولا رَضِيَتْ بالحرب لِعَرَضِ الدنيا ومنافعها وسلطانها وبَسْطَتِها ، ولا لسيادة جنسٍ على جنسٍ ، ورُجِحَانِ طبقةٍ على طبقةٍ .

فالْحَرْبُ عند المسلمين طارئةٌ وللسلم الحياةُ الدائمةُ ، ولذلك كله قامت العلاقاتُ الدوليةُ في نظر المسلمين على أساسِ سلمٍ دائمةٍ بينَ البشرِ يَنْقُضُها العدوانُ وحده ، فَعُنِيَتْ الدعوةُ المحمديةُ كُلَّ العنايةِ بإقامة هذه السلمِ الدائمةِ على حرمةِ الذِّمَّةِ وحرمةِ الأيمانِ والعهودِ .

العهود والمواثيق

السلم والمعاهد ومن لا عهد له — رأى في مسألة التخيير بين الإسلام والحزبية
والسيف — السلم بين المؤمنين — الإسلام وطن المسلم — لا إقليمية في
الإسلام — عالمية شاملة — يسعى بدمتهم أديانهم — أخوة الذمة والعهد —
حقوق الذي وواجباته — الغنم أكثر من الغرم — بين الذمة الإسلامية
ونظام الحماية الحديثة — الاستعمار الحديث لا يعرفه الإسلام — كفالة الله
وشهادته على العهود — الذي في كفالة الإسلام أينما كان من بلاد المسلمين —
عهود الأمان والمنافع — من وصايا الراشدين — إلى الأخوة والوفاء —
حق واحد للغالب — موجهات الصالح — من حرب سنة ١٨٧٠ إلى حرب
سنة ١٩٣٩ — حرمة العهود فوق صلة الدين — عاهد يعاهد وخليفة يقر
عهده ! — امرأة تحب والرسول يقر جوارها — تكريم للفردي — مثل
رائع لاحترام كلمة لم تكتب — متى يجوز نقض العهد .

السلم والمعاهد
ومن لا عهد له

أقامت الدعوة المحمدية قواعد العلاقات الدولية بين الناس على افتراض
أنهم إما مؤمنون ، وإما معاهدون ، وإما لا عهد لهم . فأما المؤمنون فأخوتهم
تامة ، وأما المعاهدون فيعاملون بمقتضى عهدهم ، وأما من لا عهد له فأمره
يختلف باختلاف أحواله ، ومصير العلاقات معه يتبع أحواله كثيرة . وعلى
كل حال لا يجوز قتاله مفاجأة من غير إنذار ، ولا يكون هذا الإنذار من
غير سبب ، ولا يكون السبب هو الطمع في ملك أو سلطان أو استغلال
لخيرات أرضه ، أو تحكم في منافعه وتجارتها ، أو استئثار بما عنده من المواد
الخامسة والمعادن ، أو أغراض عسكرية واستراتيجية ، أو تهذيبه وتمدينه كما يدعى
أهل الغرب في العصور الأخيرة ، أو كي تكون أمة هي أربي من أمة ، أو جنس
أعلى من جنس ؛ فليست هذه الأسباب صالحة لمهاجمته حتى بعد إنذاره الذي
تشرطه القواعد الدولية الإسلامية ، وليس هناك في الحقيقة سبب للخلاف في
نظر الإسلام بينه وبين الناس إلا الفتنة ومنع الدعوة .
وقد قررنا سابقا باطمئنان أن الإسلام حصر أسباب الحرب في كفالة حرية

الدعوة ، فهو يكتفى بضمان حريتها ليكون في عهد يُقرُّ السلم الدائم مع أى طائفة من البشر . وتاريخ الدعوة المحمدية واضح في هذا الشأن ، فليس لازماً كما يظنُّ بعض الناس أن من قضت الظروف بنزاع وخصام معه ملزَّم بالاختيار بين ثلاثة : الإسلام والجزية والسيف .

رأى في مسألة
التخيير بين
الإسلام والجزية
أو السيف

ولست هذه الحالات الثلاث التي كانت تُعرض على الأعداء آتية في عمل المسلمين على سبيل الحصر ، فإننا نجد اتفاقات وعهوداً وحالات سلم قائمة بين المسلمين وجيرانهم أو دول أخرى ليس لها جوار بغير أن يُشترط لذلك حالة من الحالات الثلاث . وهذه النظرية نظرية الخيار بين ثلاثة أمور يظنها بعض الناس من القواعد العامة ، لأنها كانت شائعة في العهد الأول من الفتوحات الإسلامية ، بينما الحقيقة أنه قد سبقها عهود للرسول ولحقها اتفاقات وعهود للدولة الإسلامية لم تستلزم إحدى الثلاث . وحق إمام المسلمين وجماعتهم في عقد ما يرون فيه المصلحة من العقود متفق عليه ؛ فصلح الحديبية مثلاً لم يشترط شيئاً منها ، بل بالعكس كان فيه شرط اعتبره عمر رضى الله عنه إعطاء للديانة في الدين وإذلاً للمسلمين قبل مشركي محاربين ، ولم يرض به إلا طاعة وتفويضاً للرسول صلى الله عليه وسلم .

وإذا رجعنا للعهود المتنوعة والبيعات والمحالقات التي عقدها النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه ، رأينا فيها أمراً واحداً مُطَرِّداً ، هو القصد إلى نشر دعوته ، والوصول بهذه الدعوة إلى الظهور ، وألا يعترض شيوعها وظهورها قوة . وكثيراً ما كان الوصول إلى حالة سلم مستقرة هو الهدف الأسمى لتمكين الدعوة من الحرية اللازمة لظهورها ، فلا يُشترط له شيء آخر ، بل يكون شرط الجزية أو الإسلام مؤخراً ومانعاً للتفاهم ، فتُصدَم الدعوة ، ويُؤجل انتشارها .

ففي هذه الحالة يصبح شرط الجزية أو الإسلام مضرراً ويكون فاسداً ، وعلى ذلك ليس حقيقياً أن إمام المسلمين أو جماعتهم ملزمون بإقامة السلم على

شَرْطِي الإسلام أو الجزية ، وإلا كانوا في حالة حرب دائمة مع أكثر البشر
وامتنع ظهور الإسلام كدعوة عالمية .

قلنا إن العلاقات الدولية الإسلامية قائمة على افتراض أن الناس مؤمنون
أو معاهدون أو لا عهد لهم . فأما المؤمنون فالسلم بينهم أبدية لا ينقضها إلا الكفر
والردة ، فإن بَغَتْ طائفة على أخرى فهم جميعا على الفئة الباغية حتى تَفِيءَ إلى
أمر الله وتقبل التحكيم ، فإذا قبلته كان الإنصاف والقسط ، لا الغلب والقوة ،
هما الميزان الذي توزن به شرائط الصلح . يقول تعالى :

« وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا
عَلَى الْأُخْرَى فَمَا تَلَوَا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا
بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » .

فالمؤمنون في جميع أطراف الأرض إخوان لا تفرقهم الأوطان ولا العصبية
ولا المذاهب ولا المنافع ولا الخوف ولا المنعة ولا العبودية ، ولا سبب من
الأسباب ، للمسلم حق الأخوة على المسلم أينما حلَّ وأينما كانت الدار ، فلا
جنسية غير الجنسية المشتركة التي يكفي لثبوتها شهادة أن لا إله إلا الله وأن
محمدًا رسوله .

فالمسلم في أي وطن من أوطان المسلمين وطني له جميع حقوق (المواطن)
وعليه جميع الواجبات المفروضة على المواطن أينما وجد ؛ فإن فرض مثلاً أنه
وُجد ماراً إلى الحج في مصر وهو آتٍ من المغرب ، أو وُجد في العراق وهو
قادم من الصين ، وكانت مصر أو العراق في حرب ، وجب عليه الجهاد مع
أهلها كما يجب عليه لو كان في بلده وقد هُوِجَتْ . كما أنه لو انقطع به السبيل ،
أو شق عليه الأمر ، فله في زكاة هذا البلد فريضة ، وجماعة المسلمين تكفله ،
بل له كافة ما لهم من حقوق . فالأخوة الإسلامية كاملة بين الأسود والأبيض

والعبد والحرّ ، ليس في ذلك أدنى ريب ولا شك لدى أى طائفة من المسلمين
أو أى مذهب من مذاهبهم .

وعلى ذلك فالملايين الأربعمائة من المسلمين في الأرض هم إخوان لا يمكن
بعقضى الشريعة الإسلامية تصوّر حالة حرب بينهم يخوضونها في سبيل الله
أو الوطن أو الدولة ، فإذا وقع فيها بعضهم فالحكم لكتاب الله ، ولا بد
للمسلمين من التدخل لإنهاء القتال ، ولا تستقرّ ضمائرهم حتى ينتهى على صورة
مرضية بالقسطاس المستقيم .

ومن هذا يتضح أن الإسلام عالمي ودولي ، بمعنى أنه يضع قواعده على
أساس علاقات بشرية عامّة ، ومنفعه بشرية مشتركة ، وهو كذلك ينظر بهذه
النظرة العالمية للمخالفين في العقيدة ، فهم في نظره بشر ، وتكاد تكون مسئولية
الفرد في نظامه العالمي كمسئولية الدولة ، فمُعْهدة الفرد كمُعْهدة الجماعة ، وحقوق
هذا كحقوق هؤلاء ، وللأفراد في نظامه شخصية وسيادة تكاد تماثل شخصية
الجماعة وسيادتها .

فمثلاً يسمح النظام الإسلامى للفرد أن يجير ويؤمّن ويعطى عهداً للفرد
أو جماعة من الناس ، وأمانه وعهده محترم ، لقوله صلى الله عليه وسلم « ذمة
المسلمين واحدة يسعى بها أذانهم » . فإذا تصورنا العالم الإسلامى اليوم وهو
ممتد من المشرق إلى المغرب ، وتصورنا أممه وطوائفه وأفراده ، وتصورنا
ما لهؤلاء من العلاقات مع جيرانهم ومواطنيهم ، وما بينهم من عهود واتفاقات ،
وعلمنا أن هذه الصّلات والعهود مرعية من المسلمين جميعاً ، أمكن أن نتصور
أن البشرية كلها كادت أن يشملها نطاق واحد من الأمان المشترك .

هذه هي الأخوة الإسلامية ، لها من القوة ما يكفل السلم الدائمة بين
أقوامها وأجناسها وأوطانها ومذاهبها . أما ما بين المؤمنين وغيرهم فالمعاهدون
منهم إما أن يكون لهم عهد ذمة ، وإما أن يكون لهم عهد أمان أو تبادل منافع ؛

عالمية شاملة

يسعى بدمتهم
أذانهم

أخوة الذمة
والعهد

فأما عهد الذمة فهو عهد أبدي لفرد أو جماعة في دار الإسلام قبلها المسلمون في جوارهم وأعطوها ذمة الله ورسوله والمسلمين مقابل ضريبة سنوية تسمى الجزية . وهؤلاء هم الذين سرى عليهم لفظ الذمة ولو أنه مع شديد الأسف أصبح ثقيلا فإن أصله نبيل ، فالتسمية جاءت من ذمة الله ، وهي أكبر تأكيد لحقه في أن يتمتع بكامل حريته الدينية والإدارية والسياسية ، وأن تُصان له هذه الحقوق مقابل الولاء وقدر يسير من المال يشفق عليه لنفقات الدولة .

حقوق الذي
وواجباته

هذا الذي المعاهد هو جار المسلم يواليه ويؤاخيّه ، لا ينقص من حقه شيئا ولا يتدخل في الشئون التي له بعهدده ، فإن احتكم إليه فعليه العدل الذي عليه للمسلم سواء بسواء . ظلمه حرام ، واضطهاده حرام ، وإهانتة حرام ، وحرمانه من حقه حرام ، له دينه وللمسلم دينه ، وعلى المسلم أن ينصره ويمنعه ويحوط حريته الدينية والشخصية وحرية جماعته ويكفلها بقوته ، وليس له عليه إلا الوفاء والامتناع عما يضر المسلمين في عقائدهم أو سلامتهم .

وليس أدل على إدراك المسلمين هذه الحقيقة وعملهم بها مما فعل خالد بن الوليد مع نصارى (حمص) فإنه لما علم أنه لا قبل له بدفع الرؤوم عنهم ، رد ما كان أخذه من الجزية إليهم ، وقال : إنما أخذناها جزاء منعتكم والدفاع عنكم وقد عجزنا ، وكذلك فعل صلاح الدين الأيوبي في حروبه مع الصليبيين حيث رد الجزية إلى نصارى الشام حين اضطر إلى الانسحاب منها ، فلم تكن الجزية حقا تعطيه القوة للغالب على المغلوب ، وإنما كانت منفعة جزاء منفعة ، وأجرا جزاء عمل .

المنفعة
من غنمه أكثر

وإذا فجرد الاتفاق ودفع الجزية يكفل للفرد أو الجماعة المعاهدة ما للمسلم من الحقوق ، بل لو دققنا النظر نجد أن هذا المعاهد بدفعه هذه الضريبة ، وهي رمز ولائه ورضاه ، يتمتع بكافة الحقوق ، وليس عليه كل التكاليف كتكليف الجهاد والزكاة ، فتبقى ضريبة الدم حملا على المسلم وحده ، وضريبة الزكاة حملا عليه كذلك وحده ، مع جواز حق المعاهد فيما جمع الإمام من هذه الزكاة ، فإنما الصدقات للفقراء والمساكين مسلمين وغير مسلمين .

المنفعة
من غنمه أكثر

فإذا أراد المعاهد أن يقاتل في صفوف المسلمين كان له ما لهم في الغنيمة .
وإذا نظرنا في عهد الذمة وعهود الحماية لبعض الدول اليوم في بلاد
المسلمين وغيرهم ، تبين لنا الفرق العظيم بين عهد يقوم على أساس الأخوة
البشرية ، يرحاه دين يدعو إلى عبادة الله رب العالمين ، ويسوى بين الناس جميعاً
فكلهم من آدم وآدم من تراب ، لا يكتفت للعنصرية ولا للجنسية ولا للغة
ولا للثقافة والأدب والعرف بل للحق الإنساني ، وبين عهد يقيمه الغلب
ويصونه القهر وتحدوه المنفعة ويديمه الاستغلال ويصعبه الاحتقار .

بين الذمة
الإسلامية ونظام
الحماية الحديثة

فهذا له حرمة من صميم الوجدان والعقيدة ، وذلك له قوة الغلب وشهوة
الهوى والاشرة . وقد كان أثر الأول الحب ، فدخلت الأكثرية العظمى من
أصحاب عهود الذمة في دين الجماعة الإسلامية راغبة متطوعة ، لأن نظام الإسلام
عالمي ، واعتناقها لمبادئه لا ينافي كرامتها الإنسانية ولا عزتها القومية .

وقد بلغ من ذلك أن والى مصر في زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز شكاً
إليه أن نصارى مصر وأهل الذمة فيها يتركون دينهم ويدخلون في الإسلام
فتناقضت إرادات الجزية ، واستأذنه في منعهم ، فكتب إليه الخليفة بتلك
العبرة النيرة « قَبِّحَ اللَّهُ رَأْيَكَ ! ما بعث الله محمداً جانياً ولكن بعثه هادياً »
إذاً كان الهدف الهداية لا الجباية ، والمساواة لا القهر والتفريق .

ولم تكن عهود الذمة ذات صلة بما يسمونه الاستعمار في هذا العصر ، فهذا
المعنى لم يدرُ بخلد المسلمين في فتوحاتهم ، ولا تعرفه الشريعة الإسلامية ، وإنما
تعرف حق المساواة لصاحب عهد الذمة له ما للمسلم وعليه ما عليه ، وله أن يعيش
في حرية تامة بقوانينه وعرفه ونظمه . له أرضه وله ما تُغل هذه الأرض . له
ما على ظهرها وما في بطنها ، وليس عليه ضرائب غير الجزية مقابل المنّة وكفالة
نظامه الذي يختاره ويقيمه بكامل حريته ، غير مُضَارٍّ لمعاهدته من المسلمين .
فشتان ما بين النظام الإسلامي من حرية وإنسانية وما في الاستعمار من

الاستعمار
الحديث لا يعرفه
الإسلام

سلب للحرية ، واستباحة لكل ما يملك المغلوب وما يُنتج .

كفالة الله
وشهادته على
العهود

لا قيّد في الاستعمار لإرادة الغالب ، وقيّد الإسلام المسلم بعهدته ، فلا يُنقض ولا يُتجاوز « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً » .

الذي في كفالة
الإسلام أينما كان
في بلد إسلامي

وكما أن للمسلم حقاً مساوياً لحق كل مسلم آخر في أي وطن من أوطان المسلمين ، فإن الدّمي المعاهد له مثل ذلك ، فعهدّه محترم في مشارق الأرض ومغاربها ، لما بين المسلمين من التكافل . وعلى ذلك فالمعاهدون أينما كانوا في سلم دائمة لا ينقضها إلا النكث والعدوان ، وكذلك تمتد ساحة السلم البشري وتستقرّ بصفة خالدة بين الأجناس والأديان في ساحة البشرية بهذه المساواة التي عليها الشريعة وتكفلها العهود .

عهود الأمان
وتبادل المنافع

ليست العهود من نوع واحد ، ولا هي جميعاً كعهود الذّمة التي أشرنا إليها ؛ فقد تكون عهود أمان ، وقد تكون عهود حسن جوار ، وقد تكون معاهدات صداقة أو تجارة أو أي نوع من أنواع التعاقد الدولي لإقرار السلم وتبادل المنافع .

فهي جميعاً في نظر الدعوة المحمدية عهود مقدّسة هي موثيق جعل الله عليها شهيداً وكفيلاً ، لها حرمة دينية لا تسمح بالتخديعة والتدليس والكذب . كتب عثمان ، رضى الله عنه ، إلى عماله ووولاته عقب توكّله إخلافة هذا الكتاب :

من وصايا
الراشدين

« أما بعد ، فإن الله خلّق الخلق بالحق ، فلا يقبل إلا الحق . خذوا الحق وأعطوا الحق ، والأمانة الأمانة قوموا عليها . لا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم . الوفاء الوفاء لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد ، فإن الله خصم من ظلمهم » .

ونظام العالم الذي يقوم على مثل هذه الروح ، وبعبود لها مثل هذه
الحرمة ، هو نظام سليم حقيقية ، يستمر ما شاء الله ، وإذا اضطرب فلا يعم
خطره ولا يدوم شره . أما ما نحن فيه من عهود تُعقدُ لتُنقض ، وذمم مخفورة
وأثرة موفورة ، وأم تتعالى على أم ، وأقوام تتسامى على أقوام ، فقد
لقينا جزاءه في تلك الحروب العالمية التي لا تبقى ولا تذر ، هلك فيها البشر ،
وعم الشر .

فإلى الأخوة البشرية التي تعلمو على الجنس والقبيلة ، وإلى الوفاء للعلاقة
الدائمة التي يريد بها رب الناس بين الناس : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي
خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالا كثيرا ونساء
واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام » .

إلى الأخوة
والوفاء

وقد تبين أنه ليس للحرب نتيجة ولا خاتمة يرضاها الله إلا السلام الذي
يستقر على العدل والإنصاف والأخوة البشرية ، وأنه ليس للغلب إلا حق
واحد هو منع الظلم . وكل ما يُعقد من المهود نتيجة للحرب يكون مخالفا
للروح الإسلامية إن أقام ظلما أو استعبادا ، أو أقر استغلا واستباحة
لما هو من حق الإنسان بصفة كونه أخا في البشرية . يقول تعالى : « ولا تكونوا
كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن
تكون أمة هي أربى من أمة » .

حق واحد للغالب

أى لا يجوز أن تقوم عهودكم على الدّخل ، أى الفساد والغش الخفى لى
تكون أمة هي أربى من أمة ، أى أكثر مالا ورجالا وقوة وصولة مما
يجعلها أرجح .

وليس المراد من معاهدات الصلح في نظر الإسلام استدامة حالة الغلب
الذى تنج عن حرب اقتضاها العدوان بدوام الحرمان والإذلال للمغلوب ، بل

الغرض الوصول إلى إقامة العدل الذى يريده الله ويطلبه لأعدائنا وأصدقائنا على السواء . يقول تعالى :

« وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ، اَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ »
ولو أن دول الأرض فى العصور القديمة والحديثة اهتمت بهدى القرآن فى هذا المعنى لحصرت الحرب فى أضيق دائرة ، ولزالت معظم الأسباب التى تحرك الفتنة من مَرَقِدِهَا ، وتثير النار من مَكْمِنِهَا .

وما يقوله اليوم كثير من الساسة وقادة الشعوب ، وما قالوه من قبل من أن الغرض من حربهم هو إقامة العدل والإنصاف ومنع الطغيان يتفق مع الدعوة المحمدية ولو أنه لا يستند إلى مثل الإيمان والتدين الذى استندت إليه ؛ ففى الشريعة المحمدية كما بينا سابقا لا تجوز الحرب إلا لدفع الظلم والعدوان ، ولا تنتهى إلا بمنع الظلم والعدوان وإقرار العدل والحق الذى يريده الله لا الذى تُزَوِّقُه وتنمقه المطامع والشهوات ، ولا الذى يوجب الخوف من العودة إلى الظلم والعدوان .

ويقول تعالى « وَإِنْ يَرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنْ حَسِبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدِكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ » .

فلا تُمَلِّ شرائط الصلح عواملُ الخوف ولا عواملُ الطمع ، لأن الله الذى نصر الحق وأيده بالمؤمنين كفيلٌ بالنصر ما دام المراد وجه الله والبر والعدل .

• فلو كانت الدول الأوربية وغيرها تُقْسِطُ وتُنْصِفُ ما انتهت حرب سنة ١٨٧٠ بما سبب حرب سنة ١٩١٤ ، ولا انتهت هذه بما سبب حرب سنة ١٩٣٩ ، وكنا نرجو أن تعقب الحرب الأخيرة حالة تسود فيها روح الدعوة المحمدية أفكار الناس وتستقر مبادئها فى نفوس الزعماء والقادة لتكون خاتمة المآسى . أما الرِّيَاءُ وابتغاء حسن السمعة والدعاوى التى يراد بها الدَّخْلُ والغشُّ فلن تزيد أصحابها إلا وَبَالًا والعالمُ إلا شَتَاتًا والحضارةُ إلا ضَعْفًا والعُمرانُ إلا

من حرب سنة
١٨٧٠ إلى
حرب سنة
١٩٣٩

خراباً ، وهى على النقيض تماماً مما جاءت به الدعوة المحمدية . ولست فى هذا متهماً قوماً دون قوم ، ولا مُدّعياً بأن المساميين الآن أحسنُ حالا وأصدقُ قولاً ورأياً من أهل الملل الأخرى ، فليس هؤلاء وهؤلاء على شىء من روح الدعوة المحمدية ، ولا صدق الإيمان بمبادئها .

وقد حرم الإسلام الخيانة فى العهد سرا أو جهرا كتحريره الخيانة فى كل أمانة مادية أو معنوية ، فلا مجال عنده لإباحة نقض العهد بالخيانة فيه وقت القوة ، كما أنه لا يرضى العهد الذى يعليه الغلب والظلم . فهل رأيتم أو سمعتم فى الزمن الذى نعيش فيه بعهد عُقد وكانت له الحرمة التى يريدها الإسلام ؟ ألا ترون وتسمعون كل يوم بالذمّ المخفورة ، والعهود المباحة متى قدّر أحد المتعاقدين على استباحتها ، أو ظن فى ذلك نفعاً له ؟

ما قيمة العهود والأيمان تعقد لتُنقض ويحتال فى تفسيرها والخلاص منها متى لاحت مصلحة ، أو بدت منفعة من قريب أو بعيد ، أو ضمن قوى بسُلطانة وقدرته العسكرية أن يفسرها كما يشاء أو ينقضها كما يشاء ؟

أمّا ذلك الأدب المحمدى الذى جعل حرمة العهود فوق حرمة الدين فضلاً عن عَرَض الحياة الدنيا فلسنا نحن ولا غيرُنا على شىء منه ؛ فقد جعلت الشريعة حق الميثاق فوق حق الدين نفسه ؛ فلمشرك من قوم بينهم وبين المسلمين عهدٌ حقّ الذية تدفع إلى أهله ، وليس للمسلم من قوم ليس لهم مع المساميين ميثاق دية .

حرمة العهود
فوق صلة الدين

وقد حرمت كذلك الشريعة نُصْرَةَ المسلم للمسلم على من بيده ميثاق وهو غير مسلم ؛ يقول تعالى « وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصرُ إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » .

هذا هو التقديس للعقود والمواثيق ، وهذا هو الوفاء للأعداء الذى يَبْقَى أبَدَ الدهر للناس فيه الهدى ، هو الأدب العالى فى علاقات الدول وعلاقات البشر ، هو الأدب العالى فى السلم والحرب .

عبد يماهد
وخليفة يقر
عهده ١

وقد بلغ من احترام المسلمين للعهد أن أقرّوا عهد الفرد من المسلمين بل عهد العبد منهم يُؤمّن به طائفة من المحاربين : كتب أبو عبيدة رضى الله عنه وهو قائد الجيش إلى عمر رضى الله عنه وهو الخليفة أن عبدا آمن أهل بلد بالعراق وسأله رأيّه ، فكتب إليه عمر « إن الله عظم الوفاء فلا تكونون أوفياء حتى تقوا ، فوفوا لهم وانصروا عنهم » . وقد استمد عمر هذا الرأي من قوله صلى الله عليه وسلم « ويسمى بذمتهم أدناهم » .

امراة تجير
والرسول يقر
جوارها

وكذلك أقر المسلمون أمان المرأة ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ » . وإن اختلف المسلمون في قيمة العهد الذي يعطيه العبد أو تعطيه المرأة باسم المسلمين واشترطوا إذن الإمام فإن الجمهور متفق على احترام أمان الرجل الحر المسلم .

كرامة الفرد

ولا يخفى ما في هذا المعنى من سمو إمكان الفرد يتناسب مع المسؤولية التي وضعت على عاتقه مما يستلزم أن يكون على الجنب موفور الكرامة والأدب مع الخصوم وفي الجيش ، فهذه الثقة به وهذا التقدير لحسن تصرفه بإعطائه حق التعاقد نيابة عن المسلمين جميعا يحدث في نفسه عزّة وتقديرًا للحق يكفل استقامته خيرا من القوانين الزاجرة والعقوبة الرادعة . وتاريخ المسلمين فياض بأمثلة من أدب الحرب أشهرت فروسيّتهم في الغرب والشرق في الفتوحات الأولى وفي الحروب الصليبية .

مثل رائع لاحترام
كلّة لم تكتب

وقد ضرب صاحب الدعوة الحمديّة بنفسه أعلى مثل في التاريخ في هذا الأدب العالى ، وفي الجدّ في عهوده وجه الصراحة وبغضه التحايل والالتواء والسكيد ، حينما كان يفاوض سهيل بن عمرو في الحديبية : فبينما كان يكتب عقد الهدنة جاءه ابن سهيل نفسه يرشّف في الأغلال ، وقد فرّ من الأعداء الذين كان يمثلهم أبوه ويتفاوض مع الرسول باسمهم ، وكان هذا الابن ممن آمنوا

محمد . جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو مستصرخا وقد انفلت إلى المسلمين
من أيدي المشركين ، فلما رأى سهيل ابنه قام إليه وأخذ بتلابيبه وقال : « يا محمد
لقد لعبت القضية بيني وبينك » أي فرغنا من المناقشة قبل أن يأتيك هذا .
فقال محمد صلى الله عليه وسلم : صدقت . فقال أبو جندل : يا معشر المسلمين أأرد
إلى المشركين يفتنوني في ديني ! فلم يُغن عنه ذلك شيئا ، وردّه رسول الله وفقا
للشروط التي اتفق عليها ولم يكن قد كتبها ، ولكنه كان قد انتهى من المناقشة
وقبل الشرط فلم يتحايّل ولم يتردد . وإني لا أعلم في تاريخ البشر مثلا لرعاية
الكلمة التي قيلت ولما تُكتب ولما تُمضَ كهذا الذي ضربه رسول الله في
الحديبية على مرأى من خصومه وعلى كره من أنصاره !
أين هذا الأدب وهذا الجد بين الأعداء مما نحن فيه بين الأصدقاء ؟ بين
المسلمين أنفسهم وبين المسيحيين أنفسهم وبين هؤلاء وهؤلاء من تحايّل
ولجّاج ! ذلك لأن الدعوة المحمدية تعلم أصحابها أن حسابهم مع الله ، وأنه
لا يغنيهم من الله شيء ؛ فلا بد لهم من الصدق في الظاهر والباطن والقوة
والضعف ؛ فلو أن أدب اليهود الدولية في الحرب وفي السلم قام على مبادئ
لها حرمة الإيمان وتقديس العقيدة لاستقر السلم على حرمة العهد وخفّت
ويلات الحروب وتضاءل شرها .

والشريعة المحمدية لا تبيح نقض العهد للطمع أو تحقيق أغراض من
عرّض الحياة الدنيا ، أو لاستعباد وظلم ، ولكنها تبيحه للصالح العام متى
خاف المسلمون خيانة المعاهد وتحقق لديهم ختل وسوء قصده ، فعندئذ يجوز نبذ
عهده : « وإما تخافن من قوم خيانة فأنبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين »
ولكن لا يجوز لهم أن يحتالوا في ذلك ، أو يفاجئوا بنقض العهد من غير
إنذار وإمهال . وهو أدب وعرف جاءت به الشريعة قبل أن يُقرّ العرف الدولي

الحديث ، ومع الأسف لم تبق له حرمة في السنين الأخيرة ، وقد جرى عليه المسلمون حتى مع من لا عهد لهم . وقد أوصى النبي والخلفاء الراشدون ثمّاهم وأمرأه جيوشهم بالإندار قبل البدء بالحرب . وفقهاء المسلمين متفقون على أنه يجب إنذار العدو حتى يعلم سبب نقض العهد ، وأنه ليس المراد منه سلب مالهم أو قتلهم أو سبّهم ، فربما أجابوا للمقصود من غير حرب ، وأن القتال من غير دعوة إثم يستوجب غضب الله . فإذا ساءت نيّة المعاهد وساء قصده فإن العزة التي جعلها الله للمؤمنين تأبى عليهم الذلّ والهوان والرغبة في السّلم الذي يُحلّ ما تحرّمه الشريعة ، أو يُقرّ العدوان والتسلّط والقهر . وفي مثل هذه الحالة يقول الله تعالى « فلا تهنؤا وتدعؤا إلى السّلم وأنتم الأغلوّن » .

مق يجوز نقض
العهد

في أسباب الاضطراب العالمى

الاستعمار

إثارة الرغبة في بحث شامل — مقاتلون ومحايدون — الأسباب الأساسية للاضطراب — الاستعمار أو الحراب ! — فرائسه هي فرائسه ! — سراب ! — سبب الحروب في القرنين الأخيرين — شر على الغالب — شر على المغلوب — آثاره في الغرب وفي الشرق — محاولات لالتماس المخرج — التضحية بالاستعمار لنجاة الحضارة — الدعوة المحمدية تنكره — لا حجة على الإسلام إلا من نصوصه وسننه

تناولت موضوع العلاقات الدولية من وجهة النظر الإسلامية، ولمست نواحي عدة منها، ورجوت من هذا العرض العاجل في كلمات محدودة أن أثير الرغبة في القارئ، سواء أكانوا من الأمة الإسلامية أم الأمم الأخرى، لبحث مستفيض فيما جاءت به الدعوة المحمدية، لعلهم يجدون في أصولها وفروعها مخلصاً من محنة المدنية الحاضرة، وذلك الاضطراب الذي أصاب البشرية بحرين شاملتين في مدى ربع قرن.

إثارة الرغبة في بحث شامل

وإذا نظرنا للعالم الحاضر في الحرب الأخيرة، وقد عمّ الدنيا شرّها، نجده ثلاث طوائف: طائفتان تقتتلان، وثالثة تعتزّلهما ولا تسلم من شرهما. فإذا يشكو منه الثلاث؟ أما الطائفتان المتحاربتان فكانت كل منهما تدعى على الأخرى دعاوى لا سبيل لتحقيقها ولا فائدة من المناقشة فيها؛ فكل كان يقول إنه مظلوم معتدى عليه، وإنه يحارب للحق وإقامة صرح الحضارة. فلندع هذه الدعاوى حقها وباطلها.

مقاتلون ومحايدون

وأما الطائفة الثالثة المعتزلة، فبين محايده قد انتهكت حرّماته، وآخر شاكي السلاح، ساهر الليل تزخر أرضه بالقوى خشية أن تستباح.

فإذا نظرنا إلى أسباب النزاع بين هذه الأمم نظرة إجمالية خلال القرنين الماضيين بدا لنا أنها تتفاقم عسراً بعد عصر، وقد تكون بلغت الذروة في الحرب الأخيرة إذ شملت القارات الخمس.

الأسباب
الأساسية
للاضطراب

فما هي دواعي هذا الشر المتزايد ؟ وما هي الأغراض العقيمة التي ظلت
عصرا بعد عصر لا تستقر ولا تتحقق ؟

أهي الغرام بسعة الملك ، والتزام على حياة الأمم المستضعفة والاستثمار
بالتصرف فيها وفيما تملك من مواد ؟

أم هي النزاع والخصومة ، بين الطبقات على المصالح الخاصة والنظم
الاقتصادية .

أم هي الإفراط في النزعة الوطنية أو العنصرية وما يترتب عليها من
الأثرة وحب الانفراد بالعزة ، ثم إنكار حقوق الآخرين والتسلط عليهم ،
جيرانا كانوا أم في أقصى الأرض ؟

أم هي طغيان المادية وحب الترف ، مما ترتب عليه تركيز الاهتمام
في جمع المال ، والانحدار في المتاع العاجل كغاية للحياة ، فتباعد ما بين طبقات
الأمة الواحدة من الفروق ، وأغرى بعضها ببعض ، وآل ذلك إلى النزاع
الداخلي والخارجي .

أم هي انهزام القوى المعنوية أمام القوى المادية ، مما ترتب عليه
تبليد الأخلاق والعقائد والعرف الصالح ، فضاعت المروءة وقل الإخاء ،
وفشا الاستخفاف بالعهود والمواثيق ، وصار الغدر والخديعة من الأخلاق
الشائعة في علاقات الأمم ، وحل الخوف محل الأمن ، ودأب الناس على
الاستعداد للحرب ثم المفاجأة بها ؟

أم هي أسباب أخرى أعظم أو أصغر ، أم هي هذه جميعا ؟
قد يكون هناك أسباب وحوادث كثيرة ، لها أثرها الوقفي ، غير أن
نظرة فاحصة في الأسباب التي ذكرت تهدي إلى الاعتقاد بأن فيها أصول
الفساد العالمي ومسببات هذه الكوارث والحروب الطاحنة .

فهل جاءت الدعوة المحمدية بأسباب وقائية وبمعالج لهذا الفساد ؟
ذلك ما سنحاول بيانه .

أما السبب الأول الذي أشرنا إليه فيمكن حصره في كلمة واحدة : هي
الاستعمار الحديث . وليس أدل على ما فيه من فساد ، وعلى قوة هذه الآفة من
أن الحروب لم تكن عامة إلا بعد ظهوره وانتشاره . وبعد أن انتشر فشمل
القارّات الخمس وصار مظهرا وسببا للصراع المادي انقلبت الحروب إلى شرّ
عام . وبانتشاره تطاولت الأعناق إليه ، وظننت جميع الأمم أنه سبيل النجى
والقوة ، فتسابقت وتحاسدت وحقدت ، ولم يصدّها عنه أن رأت بعضها في
الماضى وقع فريسة له ؛ فلقد كان بعض فرسانه الأول من الأسبان والبرتغاليين
والفرنسيين فرانس له . وفي فرسانه الآخرين بعض العظّات ..

الاستعمار
أو الحراب

فرائسه هي
فرسانه !

يقول (نيتي) رئيس وزارة إيطالية قبل ثلاث وعشرين سنة في كتابه
(أوربا بلا سلم) « إن الطليان أنفقوا أربعة عشر مليارا ليشتروا غرارة رمل ! »
- يقصد ليبيا - فكم بلغ الثمن اليوم بعد أن أنفقت إيطاليا الفاشية ما أنفقت
في ليبيا والحبشة وغيرها ؟ لقد استنزفت إيطاليا مالهها ودماءها وكيانها
للاستعمار ولم تحصل إلا على الخراب والدمار ...

الاستعمار سراب

سيدركون جميعا بعد هذه الحروب الدامية ، وقد أصيبت هذه الحضارة
المادية بضرّات معجزة ، أن الاستعمار سراب يجرون وراءه ، ويتنازعون عليه ،
حتى إذا جاءوه لم يُغنهم عن العمل والكدّ والحياة الطيبة شيئا ، وأنه كالقذيفة
تُلقي على الصخرة فتصيبها ، وقد تحدّث بها حدّثا ، ولكنّها كذلك ربما ارتدت
فقصّت على قاذفها .

سبب الحروب في
القرنين الآخرين

والاستعمار سبب معظم الحروب في القرنين الآخرين ، وله أثره فيها جميعا ،
واستقصاء البحث في كل منها يرشد إليه في مكان ما من الأرض : في تراث أمّة

مستضعفه أو في أحد المعبودات الحديثة من البترول والذهب والفحم والقطن وغيرها من ثمرات الأرض أو معادنها .

والواقع أن الاستعمار الأوربي على طرازه الحديث شرٌّ على الغالب والمغلوب ، شرٌّ على المستعمر والمستعمر . والشعوبُ الغالبة تُستدرجُ بسببه إلى حياة التواكل فيصيبها الترفُّ القاتل ، وتقع في خصومات مع الحاسدين والناقين وتعرض كيائها القوي للزوال . وما أصاب بعض الأمم منه في الماضي لا تزال آثاره عالقَة بها إلى اليوم .

والاحتفاظ بالمستعمرات كميّدان للاستغلال المادّي يهبط بمستوى العيش في سكان هذه المستعمرات فيحدُّ من مقدرتها على الاستهلاك ، فضلاً على قلة روح الابتكار والنشاط والإنتاج فيها ، ويضعُ بذلك قسماً كبيراً من سكان العالم في منزلة الساعّة ، فيصبحون عالة على البشرية .

كل ذلك مع ما أشرنا إليه مما يحرّكه الحاسدون والطامعون من المكاييد والحروب ، يسرع بالحضارة إلى الانهيار والزوال .

ألم تكن حروب نابليون وما جرّت من ويلات على العالم وعلى فرنسا آثاره في الغرب نفسها منشؤها الحقدُّ والحسد بسبب الاستعمار والرغبة في السبق إلى أملاك المستضعفين ؟ وكذلك حروب روسيا وتركيا والنمسا .

ألم تكن كلها للاستزادة من أملاك المستضعفين ؟ وحرب اليابان والروس في أوائل هذا القرن ، لم تكن لتحدث على بُعد الشقّة بينهما لو لم يلتقيا في سبيل التوسع على حساب المستضعفين .

والحرب العامة الأولى ، والحرب العالمية الأخيرة مهما ادّعى لهما من الأسباب فإن الحقد الدفين في صدور من فاتتهم الغنائم ، والرغبة في التوسع وحيازة المواد الخام وأملاك المستضعفين ، هي من أهم أسس النزاع بين الأقوام الغالبة القوية .

أليس الشعور الباطني في نفوس الأمم الكبيرة بشرّ الاستعمار هو الذي دعاها بعد الحرب الماضية لتأمّس المخرّج في نظرية الانتداب ونظرية حرية تناول المواد الخامّة ؟

محاولات
للتأمّس المخرّج

سيستمر شرّ الاستعمار مستطيّراً حتى يكتشف الناس بالتجربة وبالتضحية حلّاً مرضياً للأقوياء والضعفاء على حدّ سواء .

لقد كانت الحروب الماضية قاصرة على الجيران ؛ أو على دولة وأخرى ؛ فلما صار الاستعمار عالمياً صارت الحروب كذلك ، فلا بدّ إذًا من مبادئ عامّة لتسوية المشكلات العالمية . وستكون التضحية بالاستعمار ضرورة لنجاة الحضارة الحالية . وها هي ذى الشعوب الكبيرة تتأمّس السبيل ، فيثاق الأطلنطي وأشباهه من التصريحات التي جهر بها المتحاربون دليل على إدراكهم ما جرّه الاستعمار من شر على الغالب والمغلوب .

التضحية
بالاستعمار لنجاة
الحضارة

هو شرّ على المغلوب لما يبيّنه ولأنه يفقده شخصيته وخلقه وعزّته وثقته بنفسه ومقدرته على العمل المنتج الكبير ، فيصبح لا أثر له في تكيف الحضارة العالمية . فكيف يستقر العالم من اضطرابه ، ومئات الملايين من البشر قد صارت عبئاً في تفكيرها ونشاطها على العشرات ؟!

الاستعمار لاشك شر على الجميع ، وإذا بقي الحكم للقوة في مصير الأمم بعد هذه الحروب فإنّ المأساة ستستمر وتتجدد .

ومن فضل الدعوة المحمدية أنّها تنكر الاستعمار وتحكيم القوة لأغراض دنيويّة . فهي لا تبسّج الحرب لتوسّع في الملك ، أو للحصول على المواد الخامّة ، أو لاحتكار الأسواق ، أو لدعوى تمدن الناس ، أو للمواقع الاستراتيجية ، أو لاستعلاء وطن على وطن ، أو ملك على ملك ، أو عنصر على عنصر كي تكون أمة هي أربى من أمة « يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا

الدعوة المحمدية
تنكره

تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عَرْضَ الحياة الدنيا فعند الله
مغانمٌ كثيرة» .

وقد أشرت إلى ذلك في كثير من الفصول السابقة وسُقت في سبيل بيانه
الآيات والأحاديث وأمثلة من الواقع . ووجهة النظر الإسلامية في العلاقات
الدولية واضحة ، فالناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لأحد على أحد إلا
بالتقوى والعافية ، أى حُب السلام .

فالإسلام لا يعرف نزاعاً ليس المقصود منه أن تكون كلمة الله هي العليا ،
وأن تكون الحريات للجميع مكفولة .

قد يقول بعض الناس إن في تاريخ المسلمين ما لا يتفق وما تدعو إليه .
ونحن ندعو إلى كتاب الله ودينه لا إلى ما فعل بعض الدول والملوك ، مما قد
يُشبه من قريب أو بعيد ما يفعل الأوروبيون ، وقد باءوا بالخسران كما باء المحدثون .
فلا شك أن الاستعمار بجميع أشكاله تأباه الدعوة المحمدية ، وقد ثبت الآن
بُعدُ نظرها ، بل ثبت سموها وغرضها الإلهي بما فعل الاستعمار بالناس قديماً ،
وبما يفعل في العصور الأخيرة ، وقد اتسع شره وعمّ بلاؤه وجرّ الويل والخراب
في حروب عالمية متعاقبة .

وإننا نرجو أن يستفيق الناس إلى الهدى ، وأن يجدوا في هذا المبدأ المحمدي
وسيلة لإقامة العلاقات الدولية على غير ما تقضى به نظريات الاستعمار ، وأن تقوم
هذه العلاقات على الإخاء وعلى تلك الروح الدولية الإسلامية التي لا تعرف
الجنس ولا اللون ولا الوطنية الضيقة ، ولا العلم ولا الجهل ، ولا التقدم ولا
التأخر ، ولا تعرف البشر إلا إخوة من آدم ، وآدم من تراب .

لا حجة على
الإسلام إلا من
نصوصه وسنته

نزاع الطبقات

التفاوت قديماً وحديثاً — أمثلة من التاريخ العالمى — التعقيد
العصرى فى المذاهب والدعوات — من آثار البخار والكهرباء — الرأسمالية
والعمالية — فى الدول الشيوعية والنازية والفاشية والديمقراطية —
البساطة الإسلامية فى معالجة مشكلات المال — المبدأ ثابت والتنفيذ مرن —
الفرع مع المصلحة — مثلان رائعان من حرية التصرف للدولة — أكبر
مهام الدولة — لا نزاع متى خلصت النوايا لله — الإيمان هو الحارس
الأول على المصلحة العامة — إلزام الدولة بمنع النزاع وبالتأمين الاجتماعى
العنصر الروحى التهذيبى — محاربة الترف والبذخ — الرسول الزاهد
المتاع الباقى — جمع بين المصحف والسيف .

نزاع الطبقات ظاهرة للحضارة الأوربية ، وقد فُشَا دأؤه وعمّ بلاؤه .
والناس منذ النشأة الأولى متفاوتو الحظوظ فى هذه الدنيا ، منهم الفقير
والغنى ، والحاكم والمحكوم ، والضعيف والقوى ، والمريض والصحيح ،
يعيشون متعاونين متفاهمين فى حدود القبيلة أو مجموعة القبائل ، أو اتحادات
القرى حول مدينة ؛ أو مجموعات المدن والقرى حول أعظمها ؛ فكانوا
بطبيعتهم مأخوذون بغريزة الاجتماع والتعاون الذى أدركوه بالفطرة والتجربة .
وكانت هذه المجموعات البشرية كخلايا النحل ، تتعاون للإنتاج على
نظام مقبول من الجميع ؛ فإن لم يكن مقبولا عن رضا فهو مسلم به طواعية وعرفاً .
وكان هذا النظام يضطرب ويختل أحياناً بعُدوان مجموعة أخرى ، أو
بفساد داخلى ينشأ عن شذوذ أو ظلم بانحراف هيئة قوية أو فرد قوى
واستبداده وأثرته ، ولا يلبث هذا الاضطراب أن يستقرّ بعودة الأمور إلى
نصابها ، وسيّر التعاون فى الخلية على مقتضى الغريزة والعرف المتفق عليه .
ولم يعرف الناس نزاع الطبقات عنصراً للاضطراب والخلل كما هو اليوم ،
ذلك النزاع الحادّ الدائم بين الفقراء والأغنياء ، والعمال والصناع والملاك
والمديرين .

التفاوت قديماً
وحديثاً

نعم قد نجد في تاريخ البشر دعوات قوية متطرفة كدعوة (المزدكية) في فارس ، وكانت تقول بالمساواة التامة في المعاش ، ونجد في أعقاب الدولة الرومانية نزاعاً بين العامة والخاصة ، أو بعبارة أخرى بين العبيد والأحرار ، ونجد في صدر الإسلام أمثال أبي ذر رضي الله عنه يهجر الشام محتجاً على الثراء وملكية الأرض ، ونجد الخوارج يشهرون سيوفهم ويستبسلون في سبيل الفوضى الاجتماعية ، فيقول المتطرفون منهم بأن لا حكم إلا لله ، وينكر ضرورة الحكومة مدّعياً أن في طبيعتها الفساد ، وأن في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بدافع من الدين والوجدان ما يكفي لاستقامة شئون المجتمع ، وينكرون حقوق الملوك ، وكان المعتدلون من الخوارج لا يؤثرون ملكاً مُلكاً ، ولا يؤثرون به بيتاً ولا قبيلة ولا سيداً على أى أحد من الناس ، ويقولون بإمامة العبد ومساواته للقرشي والهاشمي ، ويتزهدون ويحملون الناس على الزهد ، حتى كادوا يسوون ما بينهم في المعاش ولو أنهم لم يحرّموا الملك .

التعقيد العصري
في المذاهب
والدعوات

وجدت هذه الدعوات على أنها شاذة ، ومع ذلك لم تصل إلى شيء مما وصلت إليه الدعوة الاشتراكية أو الشيوعية ، ولا ادعت ما ادعتا من المساواة في الرزق والكسب والملك ، ولم تقم على أنها نزاع طائفة من الصناع والعمال مع غيرها من الطوائف ، ولم تصل إلى مثل النزاع الحديث والحروب الدامية بين العمال والطبقات الأخرى .

فهذه الشيوعية ، وهذه الاشتراكية التي نظمت الأحزاب (العمالية) والاشتراكية والشيوعية لا شك جديدة ، وهي أثر مباشر للنظام (الرأسمالي) الحديث .

وكان الناس على البساطة الأولى متعارفين ؛ فالجار الغني صديق جاره الفقير ، يعرفه شخصياً ويعرف أولاده ، يتصلون جميعاً في شيء من الإخاء ، تجمعهم قُرْبى الدم أو قُرْبى الجوار ، وشيخ القبيلة أو القرية مهما حسنت حالته المعاشية

أو كَبُرَ جاهه هو شيخ الفقير والغنيّ ، موصول الودّ بالجميع ، وغناه و ثراؤه لا يتجّه للزينة والترف والآثرة ؛ فعزّه في الكرم ونخره في الإيثار ، وأبناؤه على عزّتهم ككل أبناء القبيلة أو القرية ، يلعبون كما يلعبون ويَطْعَمون ويلبسون طعاما ولباسا يشبه في جوهره ما يأكل الناس وما يكتسبون .

فلم تكن دوافع الحسد والغيرة تحركها مظاهر الترف والبذخ يتمتع به الكبراء والأغنياء ويسرفون في أذى عيون الناس وأذانهم ونفوسهم ، وكانت كذلك الثروات محدودة وجمهور الشعب في مستوى واحد .

فلما استُخدِمَ البخار والكهرباء تضخّمت الثروة واتسع نفوذ أصحابها وكثر عددهم ، وحلت المحرّكات الآليّة محل اليد ، وسُهل الانتقال ، وزادت السرعة في كل شيء ، فنمت التجارة ونما المال وبعدت الشقّة بين الفقر والغنى فانحطّ مستوى طبقة الصناع والعمّال ، وبَسَمَت الدنيا لملاك الآلة وملاك الأرض والسماسرة والتجار والمسيطرين على وسائل النقل ، وحلّ النظام الرأسماليّ الجديد بكل ما يصحّبه من جفّاء ازداد به الناس بُعدا في الفكر والمظهر ، وانقلبوا أعداء .

من آثار البخار
والكهرباء

وكان لا بد للطبقة المحرومة ، وقد هبطت إلى نوع من العبوديّة الآلة وصاحبها ، أن تلتبس لنفسها سبيلا للحرية ، وقد أحست أنها على كثرتها لا تملك من الأمر شيئا ، فاحتقرت دساتيرها ، ورأت فيها وسائل ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب ، تمكّن أرباب المال من التحكم واستخدام الشرطة للغلب ، غلب القلّة المالكّة الضعيفة على الكثرة المحرومة القويّة ، فاتجهت إلى الثورة ، ونظمت لذلك النقابات والأحزاب وأصبحت هذه عناصر أساسيا من عناصر الاضطراب العالمي .

الرأسمالية
والعابلية

وما كادت تنتهي الحرب العامّة الأولى حتى ابتدأت ثورات جامحة وفنّ دَمَوِيّة وصلت ضحاياها في الحرب الأهلية الروسية إلى عشرات الملايين ، وفي

الحرب الأهلية الأسبانية التي استعرت ناراها أكثر من سنتين إلى مليون ، ولم تسلم بقية الأقطار الأوربية والأمريكية من فتن دموية ، ولا تزال الدعوة تلهب غيظ الفقراء على الأغنياء ، وطبقة الصناع والعمال والزراع على الملاك ، وتهيب الأرض لانفجارات أشد خطرا في كل مكان .

في الدول
الشيوعية
والنازية
والفاشية
والديمقراطية

وقد أخذت الحكومات والشعوب في تلمس العلاج ، فذهبت مذاهب شتى ؛ فبعضها ذهب إلى استئصال طبقة الملاك كما حدث في روسيا ، وبعضها إلى استئصال دعاة العمالية والشيوعية كما حصل في أسبانيا ، وبعضها عول على القهر والاستبداد لإقامة الأمن والتوازن ، فسلبت الحرية الشخصية كما حصل في إيطاليا وألمانيا ، إذ انتزعت الزعامة الدكتاتورية الأمر من يد الجميع .

وفي البلاد الديمقراطية لا تزال الرأسمالية تبسط كف العلاج بالهبات للطبقات المحرومة ، وتحاول للمخلص ، وقد رُها لا يزال في السماء !

ومن الصعب جدا في مثل هذا العرض السريع أن ندخل في بحث النظام الرأسمالي ماله وما عليه ، كما يصعب كذلك متابعة المشكلة الاجتماعية ومتابعة الأوربيين والأمريكان فيما يعرضون من حلول ، وما يقاسون من ويلات نظام الربا والأثرة ، وسنكتفي بما ذكرنا معتمدين على معرفة أكثر القارئ لمعضلة النزاع بين الطبقات وأسبابها وآثارها .

ولننظر فيما جاءت به الدعوة المحمدية من قواعد لنرى هل فيها العلاج لمشكلة الاجتماع في هذا العصر ؟

البساطة
الإسلامية في
معالجة مشكلات
المال

أول مشكلات الاجتماع وأسباب النزاع هو الفقر ، وقد بينا في فصلي التكافل والبر كيف عالج الإسلام ، ونورد هنا بعض الحديث الذي يوضح أن الإسلام مرن يسير مع المصلحة العامة في معالجة الفقر الذي هو السبب الأكبر لنزاع الطبقات ، وقد اتخذت الشريعة لذلك سبيلين :
الأول - أنها جعلت للمحروم حقه الثابت في أموال الناس جميعا ، وأقول

جميعاً لأن الحد الأدنى من المال أو الملك أو المنتجات الذي تستحق فيه ضرائب الزكاة يستطيعه كل صحيح يعمل؛ فالنصاب في زكاة الفطر مثلاً هو ما زاد على قوت يومٍ من خبز الشعير، وقد جعلت فيه الشريعة حقاً للمحروم.

وقد تنوعت الضرائب الشرعية في أموال الناس لمقاومة الفقر والقضاء عليه، وجعلت هذه الأموال بنص القرآن مخصصة لأصناف المحتاجين، وليس للإمام أن يصرفها في غير ما خصصت له.

ولم يبين القرآن بالتفصيل ما تجب فيه الزكاة من الأموال، ولا المقدار الواجب دفعه، وقد بينت السنة ذلك في كتاب كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن ولاهم أمر الصدقات، وبين القرآن من تدفع لهم الصدقات فقال: «إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم».

فالقرآن وضع المبدأ والرسول نفذه، والقرآن خصص الزكاة وعلى الإمام أن يوجهها حسب الحاجة؛ فقد يجد أن ما كان يُنفق لتحرير الرقيق أو للمؤلفة قلوبهم أو ابن السبيل في زمننا الحاضر معدوماً أو قليلاً فيوسع في نصيب الفقراء، وسبيل الله الذي يدل على معنى عام يجد الإمام فيه أبواباً كثيرة من البر الذي يوجه للمصلحة العامة في كل عصر حسب مواضع أهله، كالتأمين الاجتماعي الآن مثلاً.

الثاني - لم تكتف الشريعة بهذا الحق المعلوم في أموال القادرين للمحتاجين، بل جعلت الدولة كفيلاً على إقامة التوازن الاجتماعي، فرأس الدولة مسئول عن هذا التوازن يعدله بالزكاة، فإن لم تكف فله باسم المصلحة العامة أن يأخذ من أموال الناس للصالح العام، وعليه أن يقيم العدل بالقسطاس المستقيم. وحيثما كان هذا العدل قسماً شرع الله ودينه. فإذا فرض أن هذا العدل يقتضي أمراً لا نص فيه ولا أثراً شرعياً فعليه أن يجتهد برأيه.

المبدأ ثابت
والتنفيذ مرن

المرع مع
المصلحة

مثلان رائعان
من حرية
تصرف الدولة
حسب الظروف

وإليكم مثلين من اجتهاد الإمامين الكبيرين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما : كان أبو بكر يقسم المال بين الناس على السواء ، لا يفضل أحداً على أحد ، فقبل له : يا خليفة رسول الله ، إنك قسمت هذا المال فسوَّيت بين الناس ، فمن الناس أناسٌ لهم فضلٌ وسوابقٌ وقدمٌ ، فلو فضلت أهل السوابق والفضل بفضلهم ؟ فقال : « أما ما ذكرت من السوابق والقدم والفضل فما أعرفني بذلك ، وإنما ذلك شيء ثوابه على الله ، وهذا معاش ، فالأسوة فيه خير من الأثرة » .

فلما كان عمرُ وجاءت الفتوح فضِّل وقال : « لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه » وعلى ذلك أسس ديوان الجيش . ومع ذلك ، فعمر الذي لم يتبع الرأي الذي يقول بأن الأسوة في المعاش خير من الأثرة هو الذي ترك ظاهر النصوص القرآنية في الغنائم ، إذ قال : لما فتح الله على المسلمين العراق والشام ردًّا على من أرادوا قسمة الأرض بين فاتحيها والاحتفاظ بالخمس فقط للمصالح العامة : « فكيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الأرض بعُلوجها ^(١) قد اقتسمت ووُرثت عن الآباء ؟ ما هذا برأي » . فقال له عبد الرحمن بن عوف : « فما الرأي ؟ ما الأرض والعُلوج إلا ما أفاء الله عليهم » فقال عمر « ما هو إلا كما تقول ، ولست أرى ذلك ، والله لا يفتح بعدى فتح فيكون فيه كبير نيل ، بل عسى أن يكون كلاً على المسلمين . فإذا قسمت أرض العراق بعُلوجها وأرض الشام بعُلوجها فإسد به الثغور ؟ وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام والعراق ؟ » فأكثرُوا على عمر وقالوا « تقف ما أفاء الله علينا بأسيا فإنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ! ولأبناء قوم ولأبناء أنباهم لم يحضروا ! » فكان عمر لا يزيد على أن يقول : هذا رأي . قالوا : فاستشِرْ ، فاستشار المهاجرين الأولين فاختلفوا ، فأما عبد الرحمن بن عوف فكان رأيه

(١) جمع عُلج وهو الواحد من كفار العجم .

أن تقسم لهم حقوقهم ، وكان رأى عثمان وعليّ وطلحة وابن عمر رأى عمر ، فأرسل إلى عشرة من الأنصار : خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج ، من كبارهم وأشرفهم ، فلما اجتمعوا قال : « إني لم أزعجكم إلا لأن تشركوا في أمانتي فيما تحملت من أموركم ، فإني واحد كأحدكم وأنتم اليوم تقرّون بالحق ، خالفني من خالفني ووافقني من وافقني ، ولست أريد أن تتبعوا هذا الذي هو هوى ، معكم من الله كتاب ينطق بالحق ، فوالله ! لأن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به إلا الحق » قالوا : « قل نسمع يا أمير المؤمنين » . فذكر لهم وجه الخلاف ، فأيدوا رأيه ، فقرر إبقاء الأرض بأيدي أهلها ، وضرب الخراج عليها ، وسكت المخالفون اتباعاً للرأى الغالب .

هذا مثل من تصرف تلميذ الرسول وخليفته في أمر جاء به نصّ وهو نفسه يسلم بهذا النص . غلب عمر رضى الله عنه الرأى الذى قضت به المصلحة العامة التى رآها ورأتها الأغلبية من عقلاء المسلمين أهل الشورى . فالشريعة المحمدية لا تقف مكتوفة اليدين متى بانّت المصلحة العامة ، بل هذه المصلحة والعدل هما غرض الشريعة الذى لن تتجاوزه .

فإقامة توازن اجتماعي يُرفع به شرّ الحاجة عن المحتاج ، ويستقيم معه العدل والتأمين الاجتماعى هو أكبر مهام الدولة الإسلامية . ومسئولية الإمام وأهل الشورى فى ذلك واضحة .

أكبر مهام
الدولة

والدعوة التى لا يتردد صاحبها وأتباعه فى إقامة ميزان العدل الاجتماعى على أساس المصلحة العامة لا يمكن أن تقوم الخصومة بين أنصارها على أساس المصالح الطائفية الدنيوية ؛ فالمصلحة العامة لا تتجزأ ، والطوائف لا وجود لها متى كان الكل عبيداً لله متساوين ، وكانت مصلحة الكل فوق مصلحة الفرد أو الطائفة .

لا خصومة ولا
نزاع متى خلصت
النيات لله

قد يقال إن أكثر ما يختلف عليه الناس يقوم على دعوة من المصلحة العامة ، وإذا فليس ما أتت به الدعوة المحمدية من ترجيح هذه المصلحة بكافٍ لمنع الخلاف ، وليست كلمة العدل ذات معنى واحد عند الناس ليكون للعدل ميزان ثابت . وهو اعتراض صحيح إذا كانت هذه المصلحة مطلقة بغير حد ، وكان هذا العدل متروكاً لمجرد ظن الناس ، وذلك ما لم تتركه الدعوة المحمدية للهوى .

فالشريعة الإسلامية تستمدُّ تعاليمها من الإيمان برب العالمين إله الناس جميعاً الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، ومن الإحسان الذي لا تقبل فيه الدعوى ، والذي يقصد به وجه الله .

فالجماعة المؤمنة إذاً لا تستطيع أن تترك رأيها للشهوات ، والمصلحة العامة عندها واحدة تقوم على العمل الذي يرضى خالق الناس جميعاً ، فلها ضابط من الوجدان الطاهر البريء . والمصلحة العامة كذلك محدودة بما تقتضيه الأخوة التي قررها الدين وجعلها شرطاً لتمامه « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . « كلكم من آدم وآدم من تراب » . فعنصر الأثرة منقو بالعتيدة ، وفي هذه العقيدة أكبر ضمان .

والمصلحة العامة أيضاً ليست موكولة للصدفه ، لأن على الأعمال حساباً يقتضى من إله عليم في الدنيا والآخرة ، فهو يجازى الأمم المسرفة المفرطة المتخاذلة في الدنيا ، ويحاسب الناس على أعمالهم في الآخرة . والعدل هو الإنصاف بالحق موزوناً بالإخاء والمساواة ، فليس عدلاً ما يتنافى مع الإخاء والمساواة .

وعليه فالدولة الإسلامية التي يكفل فيها الإمام التوازن الاجتماعي والتي تقوم على قوله تعالى « وزنوا بالقسطاس المستقيم » والتي أخذ فيها رأى عمر

الإيمان هو
الحارس الأول
على المصلحة

رضى الله عنه في ظرفٍ ما وعُدِلَ به عن ظاهر النصِّ القرآني عدولاً مبرّره المصلحة العامة لا محلّ ولا سبيل لنزاع الطبقات فيها .

قد يقال : إن ذلك صحيح ما دام خوفُ الله وطاعتهُ أصلاً في اعتبار المصلحة العامة ، فما القولُ إذا ضاع الإيمان وفَسَدَ الوجدان ؟ والجوابُ أن ذلك هو ما أصاب العالمَ وجرَّ هذه الولاياتِ على الحضارة الأوربية ، وجرَّها بالطبع على المسلمين والشرقيين منذ آماذٍ طويلة .

ومع ذلك فالشريعة الإسلامية بما أُوتيت من سعة الأفق وحسن التقدير قد فرضت كذلك مثل هذه الحال فأقامت الزجر والتعنيف لرد الناس إلى الحق ، حتى أباحت القتال لنصرة المظلوم ، ووكلت إلى وليّ الأمر إقامة الحق بالقوة ، إذ لما ارتد العرب وأبوأ أن يدفعوا للفقراء حقوقهم قاتلهم أبو بكر وقال « والله لو منعوني عقالَ بعير كانوا يؤذونه لرسول الله لقاتلهم عليه ! » فلم يَكِلْ أمرَ الفقير لوجدان الناس وقاتلهم على حقه .

والشريعةُ المحمدية حين خَصَّصَتْ بنص القرآن إيرادَ ضرائب الصدقاتِ للتأمين الاجتماعي ضدَّ صنوفٍ من الحاجة لم تَكِلْ الناس إلى وجدان الإمام أو الدولة ، وزادت على ذلك أن جعلت للإمام أن يفرض في أموال الناس بقدر ما يؤمِّنُ الحاجة ، كما عليه التزاماتٌ لا تخص منها لأصنافٍ من المصابين في المجتمع أشار القرآن إليهم ، ولا بد له من أدائها من بيت مال المسلمين . ويمكن أن يضاف إلى هؤلاء الأصنافِ أصنافٌ أخرى من ذوى الحاجة بالقياس ؛ فعليه مثلاً علاجُ من لا عائلَ له من المرضى ، وإرضاعُ من أبت أمه إرضاعه ، وإيواء من لا مأوى له ، وإطعامُ من لا عملَ له ، وإعانةُ القادر على العمل بتمكينه من العمل .

فالشريعة المحمدية لم تترك الأمر لوجدان الناس وحده ، ولو أنها في

لزام السلطان
بمنع نزاع
الطبقات
وبالتأمين
الاجتماعي

الحقيقة كانت حكيمة في استخدام الوجدان كأحسن أداة لعلاج المشكلة الاجتماعية .

وقد أشرنا إلى ضرائب الصدقات باعتبارها أداة لمقاومة الفقر وبالتالي علاجاً للمشكلة الاجتماعية ، وأشرنا كذلك إلى حق الإمام في التشريع والاجتهاد برأيه بعد استشارة ذوى العقول والعلم من أهل الرأي متوخياً المصلحة العامة وحائلاً بين الطبقات والطوائف وبين النزاع والتحاسد والبغضاء ، فهذه الضرائب المقررة بنص القرآن والمباحة باجتهاد الإمام ورأى جماعة المسلمين أصل ثابت في مقاومة الفقر .

العنصر الروحي
التهذيبي

وقد عولت الدعوة على الوجدان تعويلاً كبيراً وجعلت جزاء المحسنين الجنة ، فترى التحريض على إنفاق المال في سبيل المحتاجين إليه يتردد في آيات الكتاب في كل مناسبة ، وفي أقوال الرسول في كل حين . وليس هذا مقام سرّد عشرات الآيات وعشرات الأحاديث ويكفي قوله تعالى « قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرّاً وعلانيةً من قبل أن يأتى يوم لا يبيع فيه ولا خلال » .

والترقية الحمديّة تهذيب يرمى إلى التكافل الاجتماعى ، ويجعل الغرض من العمل والحياة البرّ « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » فكل شخص حسّنت تربّيته فهو مهيباً تماماً للخدمة الاجتماعية ؛ وهذه التهيئة بالترقية الحمديّة هي أفعال الوسائل في مقاومة آفات الاجتماع وأقدرها على جمع الناس ومنع النزاع .

وإذا اعتبرنا ما ذكرنا من وسائل مقاومة المشكلة الاجتماعية أعمالاً إيجابية في الدعوة الحمديّة لمنع حرب الطبقات ، فإن الأسباب السلبية ليست أقلّ أثراً

في هذا السبيل ؛ فبينما نجد أن الدولة الإسلامية هي أكبر مؤسسة للتأمين الاجتماعي ، يرأسها إمام المسلمين ويقوم فيها أهل الشورى مقام مجلس الإدارة في الشركة ، ونجد هذه الدولة تعمل لرفع مستوى العيش للطبقة المحرومة ، نجد كذلك الدعوة المحمدية تقاوم بسلاح الإيمان والدين الإسراف والترف لتنزل بمستوى البذخ إلى مقام لا يثير الحسد والضعينة ، فتتعمى على المترفين والمسرّفين في شهواتهم وتحذرهم سوء المصير وعذاب الله والحرمان الأخروي ، بل لا تكتفي بذلك وتنذر المجتمع كله بالويل لتركه مُسْرِفيه ومُتْرِفيه دون ردع ولا زجر . « و اتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » « وكلاوا واشربوا ولا تُسرفوا إنه لا يحبّ المسرفين » « وكم أهلكنّا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تُسكن من بعدهم إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين » .

محاربة الترف
والبذخ

وبين أن من أسباب الخراب الاجتماعي كثرة المترفين في الأمة « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا ^(١) مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » .

أحلت الدعوة الطيبات من الرزق ، ولكنها حرّمت على الرجال لبس الحرير والذهب كرمز لبغضها الترف والزينة الكاذبة ، وأباحت للنساء الزينة ، ولكنها قاومت غلو المرأة بإعطاء القوامه للرجال ، ومنعها من الظهور في تبرّج . وما زالت الشريعة تحذّر من الإسراف والترف وبذخ العيش حتى ظن الناس أن ليس لغنى سبيل إلى ملكوت السماء بغير الخروج من ماله ، وصار التقشف رمزاً للتقوى .

الرسول الزاهد

ولقد كان رسول الله نفسه على ما أوتي من سُلطة أكبر الزهاد : يقول ابن مسعود : « دخلت على رسول الله وقد نام على حصير وقد أثر في جنبه وقلت : يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاءً نجعله بينك وبين الحصير يقيك منه ؟ فقال

(١) أي أمرناهم بأوامر التقى ونهيناهم عن الآثام والفسوق والأمر في اللغة يشمل النهي .

«مَالِي وَلِلدُّنْيَا ! مَا أَنَا وَالِدُنْيَا إِلَّا كَرَكَابٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا» .
وَيَرْوِي ابْنُ هِشَامٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ «لَمَّا اسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ عَتَّابَ بْنَ أُسَيْدٍ عَلَى مَكَّةَ رَزَقَهُ كُلَّ يَوْمٍ دِرْهَمًا . فَقَامَ أُسَيْدٌ وَخَطَبَ النَّاسَ
فَقَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ ، أَجَاعَ اللَّهُ كَبِدَ مَنْ جَاعَ عَلَى دِرْهَمٍ ! قَدْ رَزَقَنِي رَسُولُ اللَّهِ دِرْهَمًا
كُلَّ يَوْمٍ فَلَيْسَتْ لِي حَاجَةٌ إِلَى أَحَدٍ » .

وَرَوَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ دَخَلَ عَلَى فَاطِمَةَ وَفِي يَدِهَا سِلْسِلَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ، وَهِيَ
تَقُولُ لَامْرَأَةٍ عِنْدَهَا : هَذِهِ أَهْدَاهَا أَبُو الْحَسَنِ - تَقْصِدُ عَلِيًّا زَوْجَهَا - فَقَالَ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «يَا فَاطِمَةُ أَيَسْرُكُ أَنْ يَقُولَ النَّاسُ : ابْنَةُ رَسُولِ اللَّهِ فِي يَدِهَا سِلْسِلَةٌ
مِنْ نَارٍ !» ثُمَّ خَرَجَ وَلَمْ يَقْعُدْ ، فَأَرْسَلَتْ فَاطِمَةُ بِالسِّلْسِلَةِ فَبَاعَتْهَا وَاشْتَرَتْ بِشَمْنِهَا
عَبْدًا فَأَعْتَقَتْهُ ، فَحَدَّثَ رَسُولُ اللَّهِ بِذَلِكَ فَقَالَ «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّى فَاطِمَةَ مِنَ النَّارِ» .
وَكَانَ دَعَاؤُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ كَفَافًا»
أَيُّ لَا يَزِيدُ عَنِ الْحَاجَةِ .

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ : ذَكَرُوا عِنْدَ النَّبِيِّ الدُّنْيَا فَقَالَ : «أَلَا تَسْمَعُونَ ؟
أَلَا تَسْمَعُونَ ؟ إِنْ الْبَذَاذَةُ مِنَ الْإِيمَانِ . إِنْ الْبَذَاذَةُ مِنَ الْإِيمَانِ» أَيُّ التَّوَاضُعِ فِي
الْبَاسِ وَالزَّيْنَةِ .

المتاع الروحي
أبقى

فَالدَّعْوَةُ الْمَحْمَدِيَّةُ قَدْ قَاوَمَتْ الْفَقْرَ وَالتَّرَفَ فَقَاوَمَتْ الْبَغْضَ وَالْحَسَدَ ،
وَاسْتَحَالَ مَعَهَا نَزَاعُ الطَّبَقَاتِ . هَوَتْ بِفَضْلِ الْأَمْوَالِ وَالْأَحْسَابِ وَسَمَتْ
بِفَضْلِ التَّقْوَى وَالْقَنَاعَةِ ، وَعَوَّضَتْ النَّاسَ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ مَتَاعِهِمُ الْمَادِيِّ بِمَتَاعِ
رُوحِي ، فَلَا شَكَّ أَنَّ فَاطِمَةَ حِينَ بَاعَتْ السِّلْسِلَةَ وَحَرَّرَتْ الْعَبْدَ كَانَتْ تَشْعُرُ
بِغِبْطَةٍ وَسُرُورٍ كَمَا ذَكَرَتْ فَعَلَهَا ، أَكْثَرَ مِمَّا لَوْ أَبْقَتْ السِّلْسِلَةَ فِي يَدِهَا .
وَهَلْ كَانَ عَمْرُ غَالِبٌ قَيْصَرَ وَكَسْرَى ، وَهُوَ فِي ثَوْبِهِ الْمَرْقَعِ أَقْلَ مَتَاعًا
بِنَفْسِهِ الرَّاضِيَةِ مِنَ الْمَتَرَفِينَ الْجَبَابِرَةِ فِي قُصُورِ قَيْصَرَ وَكَسْرَى ؟ كَلَّا .

ولقد كان النجاح الذي أُوتِيَتْهُ الدعوةُ المحمديةُ في علاج المشكلة الاجتماعية بوسائلها السلبية والوجدانية أعظمَ أثرًا في إصلاح المجتمع من وسائلها الإيجابية بضرائب الصدقاتِ أو كفالةِ الدولة للمحتاجين بسطوةِ السيفِ والقانونِ .

والدعوةُ التي استطاعت أن تجمعَ بين السيفِ والوجدانِ ليتسلطا في وقت واحد ، ويسيرا في نهجٍ واحدٍ لغايةٍ واحدةٍ هي مجاهدةُ آفاتِ الاجتماعِ ، هي الدعوةُ الموفقةُ التي ستظلُّ حيَّةً على مدى العصورِ .

النزعات العنصرية والوطنية

العنصرية قديماً وحديثاً — الوطنية والقومية الحادة عصبية حديثة —
أثر التشدد في الحدود الجغرافية والجنسية — انتقال العصبية الحادة إلى
الشرق — نظريات اختلاف الدم — أضرار الهجرة الإجبارية —
بارود الحروب الحديثة — الإسلام لا يعرف وثنية العنصر والوطن —
وضع العلاقات البشرية على أساس معنوي — خلاف أخف من خلاف —
القوة ليست وسيلة الإسلام لتحقيق أهدافه — لا سيادة ولا عبودية .

ولننظر الآن في سبب آخر من أسباب الاضطراب العالمي وهو الإفراط
في النزعة الوطنية والعنصرية وما ترتب عليها من الأثرة وحب الانفراد
بالعزة والسلطان وإنكار حقوق الآخرين ، ثم النزاع والتسلح والحرب .

العنصرية
قديماً وحديثاً

كان الناس يتنافسون قبائل ويتحاسدون ملوكاً ويختلفون على الله أو في
سبيل الله ، ولم تكن نعمة الوطن ولا نعمة العنصر فاصلاً حاسماً بين المجموعات
البشرية كما أرادت المدنية الحديثة . وتاريخ العرب والترك والبربر وغيرهم من
الأقوام الإسلامية حافلٌ بالنزاع القبلي ، بعيدٌ عن النزاع العنصري ، وكذلك
كان الشأن في أوروبا ، وكانت الأسرة الملكية تضم تحت رايتها باسم الولاء
للملك أو باسم الولاء للمذهب قبائل وشعوباً تتحد مصالحها وإن اختلفت
أصولها أو لغاتها ، وأحياناً عقائدها . وكثيراً ما تكون هذه الأسرة غريبة ،
أو تكون من الأقلية القومية في الدولة ، فتتكون تحت رايتها مجموعة تربطها
القوانين وتتسع لأقلية شتى تعيش تحت الراية ، ينالها من الشقاء والسعادة
مثل ما يصيب الجميع .

فيه مقال قبله
في هذه المقالة
قديماً

وكثيراً ما تكون هذه الأقليات أرغب في هذه الراية والولاء لها منها
لأقرب الأقوام والعناصر من جنسها أو لغتها تحت راية أخرى .
كان الأمر كذلك في كثير من الدول التي عاصرها كالدولة العثمانية

تحت لواء آل عثمان ، والدولة النمساوية المجرية تحت لواء آل هابسبرج ، وقد شاهدنا شعوباً من العرب أشدَّ ولاءً وإخلاصاً لدولة آل عثمان منهم لأصراهم وأشرفهم من العرب .

وكان الأمر كذلك في الدول القديمة ، وفي دول القرون الوسطى ، كالدولة العباسية والإمبراطورية الرومانية المقدسة والإمبراطورية البيزنطية . وكذلك عرفنا من الصقالبة في دولة النمسا من كانوا أوفى لها منهم لأبناء عمومتهم من الروس .

كانت الرغبة متساوية في السيادة أو العبودية للملك القاهر فوق الجميع ، وكان يرتقى سلم المناصب كل من سمحت له مواهبه وظروفه في خدمة الملك أو السلطان ، فتجد البرامكة وآل طاهر الإيرانيين ، أعلى الناس مقاماً في خلافة الهاشميين من العرب ، وعائلة (كوبرلي زاده) من الأرناؤوط في خلافة العثمانيين من الترك ، بل لقد صعد هذا السلم من العبيد في الدول الإسلامية عدد أكثر بكثير مما تاذن به نسبتهم العددية ، وبلغ الذروة من الممالك ما بين مصر والهند في الدول الإسلامية عشرات السلاطين ممن لا تزال آثارهم خالدة في دهلي والقاهرة ، وفي تلك الساحة الإسلامية العظيمة من الأطلس إلى الهادي .

ولم يكن الناس يتساءلون عن عنصر ولا أصل ، وإنما يتساءلون عن عمل وخلق ودين . فن الممالك الذين وصلوا إلى أعلى مناصب الدولة في مصر والبلاد الإسلامية نجد الأرمني والروسي والصقلي والكرجي والشركسي والتتري والتركي والفرنجي والسوداني والحبشي . ولو تعقبنا أنسابهم لانكشفنا لنا عن جميع ألوان البشر .

فلم تكن الوطنية بمعناها الحديث ، ولا القومية بعصبيتها الحاضرة حداً فاصلاً بين الناس كما صارت في العصور الأخيرة . فالوطنية والقومية بمعناها الحالي لم يكونا مع الأسف خطوة في سبيل

الوطنية والقومية
الحادة عصبية
حديث

الاستقرار ، بل كانتا عاملا لزيادة الاضطراب العالمي ، وسبباً جديداً لنزاع
أوسع دائرة وأعصى حلاً .

أثر التشدد في
الحدود الجغرافية
والجنسية

فإن الوطن باعتباره مقاماً جغرافياً لقوم من الأقوام لم يستطع أن يحدد
حدوداً لجنسه من غير أن يصطدم بقوم آخرين وبانتشارهم ، ولم تساعد الطبيعة
إلا نادراً على تحديد ساحة خاصة لعنصر خاص . ففي أوروبا كلها لا تجد إلا الجزر
البريطانية التي حددها البحر ، ومع ذلك فلم تخلُ إيرلنده من نزاع مع بريطانيا
على مقاطعة (أستر) في شمال إيرلنده .

وقد مرّ قرنان على الأقل على أوروبا ، وقد غرقت في دماء حروبها لتعديل
الحدود وتحرير الأقليات بين الفرنسيين والألمان ، وبين هؤلاء والنمساويين ؛
وبين هؤلاء وهؤلاء والصقالية ، وبين النمسا وإيطاليا ، وبين البلقانيين
جميعاً ، وبينهم وبين الدولة العثمانية ، وبين روسيا وجيرانها من الغرب أو الشرق
أو الجنوب ، وبين التشيك والبولنديين والمجر والرومانيين .

وهكذا نجد النزاع على ما يسمى الوطن وحدوده قائماً لا يستقر بل يتزايد
على مدى الأيام ، وعلى قدر الحدة في العنصرية والوطنية .
فما لم تكن الطبيعة بالمصادفة قد فصلت في الأمر ببحر أو جبل لا يُنال ،
كالهملايا بين الهند والصين فلا بد من النزاع .

انتقال العصبية
الحادة إلى الشرق

وهذه المشكلة الأوربية المستعصية وما يتبعها من نزاع على الحدود ونزاع
على العنصرية وما تنطوي عليه من مشا كل الأقليات ، أخذت تنتقل إلى الشرق
نتيجة لتأدبه بأدب الغرب ، واعتناقه نظرية الوطن والقومية ، فأخذنا نسمع
في السنين الأخيرة بقضايا شبيهة بالقضايا البلقانية على سنجق الإسكندرونة
بين سوريا وتركيا ، وعلى شط العرب والحدود بين العراق وإيران . ولم
يكن المسلمون بتربيتهم الحمدية يتنازعون على مثل هذه القضايا باعتبارها
مشا كل عنصرية ، وستكون هذه المشا كل سبباً لبلاء الشرق كما كانت سبباً

للحروب الدامية في الغرب ، فيتنازع العرب والترك والكرد والشر كس والأذربيجانيون والإيرانيون والأفغان والهند والأزبك والصين والمغول .. إلى آخرهم ، على الحدود والأقليات ، حتى يدخل الشرق جحر الضب الذي دخله الغرب !

والوطنية بالعرف الحديث شر جديد ، والعنصرية بلاء أعظم ، ولا دواء لهما إلا تهجير عشرات الملايين من منازلها الحالية ، وحصر كل منها في نطاق جغرافي خاص .

وقد أخذ بعض الأوروبيين يُسرف في الدعوة العنصرية ، فغالوا في معناها واشتطوا في مرمائها ، فجعلوا عنصراً سيّداً نقيّ الدم وآخرين دون ذلك . وهو أمر مُحال لا وجود له ، يزيد العالم اضطراباً وخصاماً .

نظريات اختلاف
الدم

ومن ذا الذي يستطيع أن يفرز الأقاليم ويحلل دماءها ويكفي الناس شر الأقليات المذهبية واللغوية والقومية ، ويكفيهم بلاء الحدود التي لم تأذن بها الطبيعة ولا العقيدة والفكر ؟

وقد جرّب اليونان والترك الهجرة الإجبارية ، ولم يستفد منها اليونان ولا الترك رغم ما صحبها من اضطراب وقسوة في نزع الناس من مناباتهم ومساكنهم . على أن هذا التهجير الذي كان محدوداً وساعدت عليه ظروف خاصة لا يمكن تعميمه كقاعدة . ومع ذلك ، فلو فرض أننا ضمناً جيلاً من الناس في سبيل هذه التسوية ، فإن الأجيال الآتية كفيلة بنقض ما سوينا ؛ لأن طبيعة الحياة تستلزم النقلة ، والمصالح تتبدل ، والأقوام تنمو وتنقرض ، فلا بد من اختلاط جديد وانتشار جديد ، ولا بد من العودة إلى القسوة والتهجير الجبري .

أضرار الهجرة
الإجبارية

وقد حاولت عصبة الأمم حلاً لمشكلة الأقليات فهل حلتها ؟ ألم تكن هذه المشكلة في السودان واللورين ودانرج وترنسلفانيا وبسرايا والدبروجة من مسببات الحرب الأخيرة ومضخماتها ؟

بارود الحروب
الحديثة

ولقد كان الغلو في معنى الوطنية والعصبية القومية عاملاً أساسياً في زيادة

الاضطراب العالمى، والتدرج بالحروب من نزاع موضعى إلى شرٍ مستطير أبعد مدى فى الأرض، وأوسع دائرة فى الخطر، أو بعبارة أخرى متناسبا مع الانتشار الكبير للأقوام، متناسبا مع سهولة الانتقال الحديث، متناسبا مع الغلو فى الأفكار القومية والوطنية.

الإسلام لا يعرف
وثنية العنصر
والوطن

والدعوة المحمدية لا تعرف الوطنية والعنصرية بالمعنى الحديث؛ فوطن المسلم ليس له حدود جغرافية، فهو يمتد مع العقيدة، بل هو فى الحقيقة وطن معنوى كما أن الدين أمر معنوى. يقول الله تعالى «يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإيتاى فاعبدون» والمسلم أخو المسلم أينما كان، جاوره أم تباعدت به الأرض، والمسلم أينما حل فى دولة إسلامية فقد حل فى وطنه، وإذا وجد فى دار حرب بين جماعة معادية للمسلمين فسقطت عنه بعض التكليفات أو سقط بعض ماله من حق فإنه يكسب جميع الحقوق وتكون عليه كل الواجبات بتحوّله عن داره، أو بدخول أهل هذه الدار، متى تغيرت الظروف يصلح أو ميثاق مع المسلمين، أو اشتراك فى الدولة.

فالعنصرية أو العصبية للقبيلة أو الوطن أو اللون أو اللغة أو الثقافة تنكرها الدعوة المحمدية وتعتبرها دعوة جاهلية. يقول صلى الله عليه وسلم «ليس منا من دعا إلى عصبية» فالإسلام يأبى كل عصبية لغير كلمة الله، ولا يعرف الولاء إلا للعلاقة الروحية. والناس من أى جنس أو لون أو وطن إخوان إذا اتفقوا فى العقيدة، وولائهم إنما يكون لأمر معنوى لا لأمر مادى. يقول تعالى «وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم»، ويقول سبحانه «قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره، والله لا يهدى القوم الفاسقين».

وهذه نظرية قد وضعت أساس العلاقات البشرية على وحدة الفكر ووحدة الغاية المعنوية ، فهي بلا شك أسمى من النظرية الحديثة التي جعلت الجنسية أو المصلحة المادية أساس الولاء المشترك ، لأن النظرية المحمدية تسمو بالبشر وتشرّفه بالعقل والروح ، بينما الأخرى تهبطه إلى المادة فتشغل ناحية الحيوانية منه ، والعناية بحاجات الروح أدعى إلى السلم والاستقرار من العناية بحاجات الأبدان

وضع العلاقات
البشرية على
أساس معنوى

فنظرية الروح أسلم عاقبة وأدعى إلى السكون والتراحم .
قد يقال : إن ذلك معناه أنك ترجح أن يكون النزاع بين الناس على العقائد والرأي لا على البترول أو القطن ، وذلك لا يغير كثيراً من قيمة النزاع وشره ، ولا ما ينشأ عنه من اضطراب وحروب عالمية . وذلك صحيح لأول وهلة . ولكن نظرة في طبيعة الناس تعلمنا أنهم أشد انفعالا وأكثر تحفظاً للشرحيما يكون الأمر متعلقاً بالمادة وماساً بحاجتهم البدنية ، فالفلاح يقتل جاره لسقية ماء يريد لها لحقله ، ولكن لا يخاصم هذا الجار على خلاف ديني أو مذهبي ، ولم نسمع أن مثل هذا الخلاف يؤدي إلى القتل إلا في النادر الشاذ .

خلاف أخف
من خلاف

وتاريخ الدعوات الفكرية قد تصحبها الحدة في بادئ الأمر ، وينتهي شأنها إلى الاستقرار والحجة وسعة الصدر ، لأن البشر لا يستطيعون التحمس للاعتداء والأذى إلا بحافز مستديم ، والحافز المستديم هو حاجاتهم اليومية المرتبطة بمطالبهم المادية ، وكثيراً ما تكون حماسهم ثم فتسكنهم وهم يندفعون وراء فكرة سامية مشوبة بعامل خفي من مطالبهم البدنية .

ومع ذلك فالدعوة المحمدية قد احتاطت للأمر ، فبعد أن أقامت العلاقات بين الناس على أساس وحدة الهدف المعنوي ، حرّمت على أنصارها أن يتوسلوا بالقوة لنشر الدعوة . يقول تعالى : « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » .

فالإسلام لا يأذن باستخدام القوة إلا لضمان حرية الدعوة للناس جميعاً .
 وفرق بين المطالبة بحق حرية الرأي وبين الإكراه على تغيير حرية الرأي .

وإذا نستطيع أن نقرر أن الاضطراب العالمى القائم على دعوى الوطن الجغرافى ، ودعوى القومية والعنصرية ، ودعوى الحقوق المادية للوطن والعنصر يزول لو أننا اتخذنا من أصول الدعوة المحمدية ومبادئها الدولية نظريتنا للعلاقات بين الأمم بسيادة الروح التى تدعو إليها وتشاركها فيها الأديان السماوية الأخرى . ولعل الناس يجدون فى ذلك الهدى ، ولعل فى نظام العالم بعد الحرب الأخيرة ، وبعد هذه العبر ما يقوم على تلك النظرية السامية البعيدة التى جعلت عمر بن الخطاب بعد أن بُعِدَ عن عصبية الجاهلية ونشأ فى المدرسة المحمدية يقول : « لو كان سالمٌ مولى أبى حذيفةَ حياً لوليتُهُ » والتى يعبر عنها رسول الله بذلك القول المأثور : « أنا أخو كلِّ تقىٍّ ولو كان عبداً حبشياً ، وبرى من كل شقى ولو كان شريفاً قرشياً » .

لا سيادة
ولا عبودية

هزيمة القوى المعنوية

السيطرة على المادة وأثرها في طغيان المادية — سرعة التطور المادى وبطء
التطور الروحى — تباعد الفروق بين الناس تبعاً لحظوظهم من العلم المادى —
بليلة وشتات وتناكر — ضرورة التوفيق السريع بين الروح والمادة —
نعم تستحيل إلى نعم — جرائم ترتكب باسم الحريات — لا بد من ضوابط
أدبية قبل الكارثة الكبرى — توفيق الإسلام بين الحياتين — المدنية
تتحطم مرتين في ربع قرن — أتعير للتخريب ؟ — فلنرجع إلى منابع
الهدى والرحمة في الأديان — تصوير للحرب تسخر منه العقول — أجهالات
في مكان الكمالات ! — أفلح من زكاه .

سبب آخر من أسباب الاضطراب العالمى ، هو انهزام القوى المعنوية
أمام القوى المادية ، أو بعبارة أخرى تخلف القوى المعنوية عن اللحاق بالتطور
الفجائى للحياة المادية ، واختلال التوازن بين الروح والمادة .

وكان الناس وهم على الفطرة الأولى لا يسيطرون على المادة إلا سيطرةً
محدودة ، ولا يطعمون في التغلب على الطبيعة طمعهم بعد اكتشاف البخار
والكهرباء ، ونفاذهم إلى القوى الكامنة في الذرة ، وإلى عناصر المادة وتحويل
تراكيب هذه العناصر . فلما افتشوا في استخدام الكيمياء والميكانيكا ، واستخرجوا
من ذلك قوى جديدة ، انصرفوا عما وراء الطبيعة وعن عالم الروح إلى قهر
الطبيعة والإيمان بالمادة وفعلها دون سواها .

ففي أجيال معدودة تغير وجه الحياة وانعكست وجهات النظر ، فلو
خرج أجدادنا من أجدانهم لاستنكروا حياة أهل الحضارة الجديدة استنكاراً
سكان الكهوف لسكان ناطحات السحاب . فقد تغيرت أسباب العيش وتغيرت
كيفية حياته وتغيرت أغراضه ، وانقلب الناس إلى السرعة يطلبونها وإلى الحركة
الدائمة يستطيعونها ، فنفرُوا من الدعة والسكون بقدر ما كان أجدادهم ينفرون
من الضوضاء والسرعة .

السيطرة على المادة
وأثرها في طغيان
المادية

تغيّر طرُزُ الحياة فجأةً ولَمَّا يستقرُّ ، بل هو في تغيّرٍ مستمرٍّ ؛ فالفرقُ بيني وبين أبي هو جيلٌ واحدٌ ، ولكنه أعظمُ من الفرق بين أبي وبين آبائه قبل عشرات الأجيال .

سرعة التطور
المادى وبطء
التطور الروحى

هذا التغيّرُ المادى المستمرُّ ، وهذه السرعةُ التى لا تزالُ تتضاعفُ دون أن تبلغَ حدّها الأقصى ، قد جعلت الإنسانَ وهو يلاحقُ الحياةَ الماديةَ الجديدةَ يُغفلُ ، أو لا يستطيعُ أن يحتفظَ بحياةٍ معنويةٍ مناسبةٍ ؛ فهو لا يستطيعُ أن يسايرَ هذه السرعةَ المتفجرةَ تفجّرَ المادةِ إلى أجزائها مسائرةً يحتفظُ فيها بترائيه المعنوى ، فتخلفت الحياةُ الروحيةُ التى كسبها الناسُ فى تجربةِ آلافِ السنين عن الحياةِ الماديةِ الجديدةِ التى كسبوها فى قرنٍ واحدٍ ، وتطورت هذه الحياةُ تطورا فجائيا ، وبقي الإنسانُ مُثَقَلًا بتراثٍ معنوىٍّ ضخمٍ لا يتحركُ معه خلفه وراءه .

تباعد الفروق
بين الناس تبعا
لحظوظهم من
العلم المادى

فترى الناس مختلفي الحياة اختلافا كثيرا بعد أن كانوا فى أطراف المعمورة تربطهم صلاتٌ معنويةٌ وماديةٌ قويةٌ ، ولا تختلف نظرتهم للحياة ولا كيفية عملهم فيها إلا قليلا . والفرق بين أبناء الجيل الواحد فى بلدٍ واحدٍ أكثرُ مما كان من فرقٍ بين إنسانٍ فى شمال أوروبا وآخرٍ فى وسطِ آسيا منذ بضعةِ قرونٍ . بل إن الفرق بينى هنا فى مصر وبين بعض الفلاحين من أبناء عمومتى ، وأنا لا أزالُ واثقُ الصلةِ بأهلى ، هو أكثرُ بكثيرٍ فى طرُزِ الحياةِ وطرزِ التفكيرِ مما كان بين أحدِ أجدادى الأقربين وسكانِ المغربِ الأقصى أو الأفغان . ولا أظنُّ أن (ابن بطوطة) حين رحلَ من المغربِ الأقصى إلى الشرقِ الأقصى وجد من الفرق بين الناس ما يجده قروئى لم يسبقُ له زيارةُ القاهرة إذا جاء إليها من ناحيةٍ قريبة فى الجزيرةِ مثلا . . . فى الوطن الواحد أصنافٌ من الأمم تباعدت أفكارهم وأخلاقهم ومعنوياتهم تباعدا متناسبا مع قدرتهم على ملاحقة الحياةِ الماديةِ الجديدةِ ، فمنهم من يركبُ فى موكبِ الحياةِ الماديةِ المتحركةِ ،

ومنهم من يتعلق بمركبها ، ومنهم من يجري وراءها ، ومنهم من ينظر
حائرا ، ومنهم من يئس وقعد وانقطع . . .
فالذين ملكوا المادّة وصناعتها ، عليهم - وهم في موكب الحضارة -
مسحة التجانس الظاهري ، ولو أن صلاتهم الروحية أضعف جدا مما
كانت ، والمتخلفون أقل تجانسا .

لقد صارت الأمم صنوفا من الناس متقاطعة ، وصار البشر مشتتين في
عالم متناكر تبليت فيه الأفكار ، واختلّ العرف البشري ، وتباعدت ألوان
العيش المادّي ، وتكاثرت صورّه الذهنيّة ، وتناكرت الطبقات والطوائف
والأقوام . وكلما امتدّ دور الانتقال تعددت مظاهر الأفراد والجماعات
واستعصى الرجوع بها إلى أصول مقبولة ومسلّم بها من الجميع ، أو مسلم بها
على الأقل من كتل كبيرة كانت تجمعها صلات روحية قوية في عقائد دينية
مشتركة تشمل مئات الملايين من الخلق .

وما يُظنّ من أن الحياة المادية القائمة على السرعة وسيلة عاجلة لجميع
البشر على نظرة موحدة للحياة المادية ، وعلى أسس معنوية مقبولة من الجميع
قبول العرف والدين في مئات الملايين من الصينيين أو الهنود ، أمر قد يكون
في سبيل التحقيق ، ولكنه لا يزال بعيدا جدا ، وسيلقى العالم أهوال أدوار
الانتقال والاستقرار ، ولن يستطيع الناس أن يخلعوا التراث المعنوي والفكري
كما يخلعون الثياب ، ولذلك ها نحن أولاء نشهد تشعب الأفكار والآراء
واضطراب الحياة .

ولا بد لنا من التفكير العاجل والعمل السريع للتوفيق بقدر المستطاع
بين الحياة المعنوية الموروثة وبين الحياة المادية المفاجئة ، وتجنب أثر الصدمة
التي تتولد منها هذه الانفجارات الهائلة بين الأمم وبين الطبقات في الأمم .
لا بد لنا ، كي نتمتع بثمار المدنية الآلية ونستكمل نعمتها ، من بحث الحياة

عقلنا قد
ملأه رعبا
وعظما

بليلة وشتات
وتناكر

في عالم عدل
لغيره من
الذين يظن
بذلك

ضرورة التوفيق
السريع بين
الروح والمادة

الروحانية بعثاً جديداً مناسباً للحياة المادية الجديدة . ففي هذه الحضارة نعم لا حدة لها ؛ فقد تغلب الإنسان بالآلة والعلم على كثير من الصعاب والويلات ؛ زاد إنتاجه وسهل انتقاله وقهر الأمراض الجائحة واتفق القحط ، وتعددت مصادر لهُوهِ ومرجه وتزيت له الأرض وأخذت زخرفها ومشى في قرن واحد بالحضارة المادية ما لا يقاس معه مَشْيُهُ في القرون الماضية ، ولكنه في قرن واحد كذلك قضى أو كاد يقضى على تراثه المعنوى الذى كسبه في عشرات القرون .

نسى الله فأنساه نفسه . ففي جيل واحد هُزِمَت حياة الروح هزيمة نكراء أمام حياة المادة ، وأخذت الآلة الصماء ، وقد سيطرت ، تفتك على غير هدى وبغير ضابط من دين أو خلق أو عرف ، وبقي تراث البشر المعنوى لا حراك له ، فشك الناس في قيمته ، وهم اليوم ينظرون إليه شيعاً بعضها يعطف عطف الأحياء على الموتي ، وبعضها يشمت شماتة الغالب بالمغلوب ، وبعضها يخلص له ولكنه في الاشتغال بحاله يختلف عن موكب الحضارة السائر في عزّة المنتصر وزهوهِ .

والواقع أننا من غير تدبر اندفعنا في سبيل قد حوّل النعم التى نتمتع بها إلى وسائل هلاك لنا ولحضارتنا ؛ فبدل أن نناصر القوى المعنوية ونعطيها من مجهودنا وهمتنا ما تعطى القوى المادية أخذنا نزيّف أراءً ونخترع لها نظريات ونصدقها ، ولا نلبث أن نرتدّ عنها . وهانحن أولاء بهذه الآراء الخطيرة نسيرُ للهلاك .

فباسم حرية المرأة ندمرُ هدوء المنزل وحياة الأسرة ، وباسم حرية الوطن نمزقُ الأوطان ، وباسم حرية العمل وحرية رأس المال سنمحو رأس المال ونستعبد الطبقات ، وباسم مقاومة هذه الحريات سنفقّد حرية الفرد وحرية الجماعة وحرية الرأي . ولم يكن أهلُ الرأي والعقل والعلماء والفلاسفة أقلّ

نعم تستحيل
إلى نعم

جرائم ترتكب
باسم الحريات

أثراً في المجتمع البشرى منهم في عصر سيطرة الآلة الذي نعيش فيه .
هذا ولا تزال هزيمة الأديان والعرف والأدب القائم على تجارب آلاف
السنين لم تبلغ نهايتها ، فإذا بلغت ولم يحل محلها شيء آخر يسند الحياة المعنوية
والقوة الأدبية فأى ضابط يبقى لهذه الآلة الجامحة والقوى المتفجرة التي
أطلقها الإنسان من عقال الطبيعة وعجز عن أن يوجهها للخير وحده ؟ فلا بد
للعقلاء من صيحة أرجو ألا تضع في ضوواء الآلة . لا بد للعقلاء من الصبر
والكفاح في سبيل الحياة الروحية ، في سبيل أن تسير القيم المعنوية القيم
المادية ، وأن تزدوج الحياتان لأن تتنازعا وتتفارقا .

لا بد من ضوابط
أدبية قبل
الكارثة
الكبرى

ولقد كان الإسلام أبعد نظرا حين دعا إلى هذا التزاوج فيما يؤثر من
ميراثه ، بقوله : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمَلْ لآخرتك كأنك
تموت غدا » . والدنيا مطية الآخرة .

توفيق الإسلام
بين الحيانين

فلتكن الحياة المادية الفانية التي تغير وجهها في قرن واحد كل هذا
هذا التغير ، مطية للحياة الخالدة الباقية حياة الفضيلة حياة الرحمة . قد يقول
بعض الناس : إنك تكاد تُنكر الرقي الأدبي والمعنوي الذي صاحب هذا
التطور المادي الفجائي وتنكر نعم المدنية الجديدة ؛ وإنى لا أنكر شيئا من
فضلها ، ولكنى أنعى هزيمة القوى المعنوية وهزيمة العقل أمام الآلة السماء
المتحركة التي تحملنا في جوفها وتسلمنا بين أجزائها . وقيم الأشياء بآثارها
والأعمال بنتائجها .

ونحن الذين شاهدنا ويلات الحروب العالمية مرتين في ربع قرن أحق
الناس بالتساؤل عن القيمة الحقيقية للمدنية التي هذه بعض آثارها ، ولنا كل
الحق في أن نقف لتدبر ونرجع البصر كرتين إلى القوى المعنوية للأديان ،
لعلنا نستمد منها تسليح الوجدان البشرى ضد طغيان الآلة السماء ، لنرجع إلى
تلك القوة المعنوية التي كانت توجهنا إلى الخير العام بقوله تعالى « كنتم خير

مدنيتنا تتحطم
مرتين في ربع
قرن

أمة أُخْرِجَتْ للناس تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ » فجعلت هدف الحياة هو فعل الخير ومقاومة الشر .

أما أن يكون غرض الحياة الحصول على المواد الخام ، ثم تقديمها للآلة الصماء ، ثم النزاع على الأسواق لتوزيع منتجات الآلة ، ثم القتال على المادة كي تستمر في حركتها ، ثم نطلب المزيد فننتزع لمنتجاتها الأوطان أسواقا ، ونفتح الأرض لمخزون الرِّكاز فيها ، ويتقاتل عبيد الآلة من أجل السبق إلى حاجتها ، ثم ينتهي بنا الأمر إلى حروب عالمية تُسلط فيها قوى الآلة كلها لتدمير نفسها وتدمير الحضارة البشرية - فأمر لا يمكن أن يدوم ، وهو عندي من نتائج خذلان القوى المعنوية أو وجودها ومناصرة القوى المادية .

نعم لنرجع إلى الأديان نستمد منها الهدى ، ولنوفق بين هذه الأديان لنستمد من وفاقها القوة ، لتتوازن الحياة المعنوية والحياة المادية ، ولكي توجه الأولى الأخرى في سبيل الخير العام ، وقد دعانا الله إلى ذلك بقوله : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » .

وليتصوروا مقدار الخطر من فقدان هذا التوازن ومقدار الحاجة إلى العقل والروح في أحسن عصور الحضارة المادية ، تصوروا أنكم دُعِيتُمْ لمشاهدة معركة للقِطَطِ في جبل المقطم ، وقد اصطفقت القِطَطُ صفين ، ثم هجمت تتقاتل ؛ ألا تضحكون عندئذ من القِطَطِ ؟ ألا تهزءون بعقولها ؟ ألا تسخرون من سخفها ؟ بل ألا تنقلبون من الشَّخَرِ إلى الرِّثاء لها ثم البكاء لما أصابها . . ؟!

فإذا قيل لكم إن قطط أحد القارَّات قد تعامت علما يمكنها من الحركة في السماء وتحت الماء والمخبرة والتفاهم مع قطط باقي الأرض بالأثير ، وأنها استخدمت علمها وكتبها وعقلها وأدبها ، فجمعت قطط العالم لمعركة عامة بينها واتخذت ميدانا للمعركة أوسع من جبل المقطم : سهول أوروبا والصين وجزر

أتممير للتحريب ؟

فلنرجع إلى منابع الهدى والرحمة في الأديان

تصوير للحرب تسخر منه العقول

آسيا وجبال إفريقيا وصحراءها ، وكل مكان تعيش فيه طائفة من القِطط ،
وأنها حشدت كل شيء لدوام معركة لانهاية لها ، ثم علمتم أن القِطط نجحت
في خطتها ، ودعيتم بصفتم الإنسانية أو بصفتم ملائكة هذه الأرض
لتشهدوا حيوانية القِطط المتمدنة المسيطرة على الكهرباء والكيمياء ، أكنتم
تسخر من عقول القِطط ؟ أم تعجبون بمدى نيتها وعلمها ؟ أم كنتم تبكون لما
أصاب القِطط من الضلال ؟ أظن أن الملائكة في السماء ورسل الله منا ، الذين
جاءوا بالهدى هم كذلك في السماء ليكون لما يصيب الناس في هذا العصر وما
أصاب القوى المعنوية من الهزيمة أمام الآلة الصماء . . .

إن انهزام القوى المعنوية بسيطرة المادة هو انهزام العقل والمروءة
والوفاء والفروسية والتقوى والرحمة والقناعة . وإذا انهزم أولئك جميعا حلّ
الجهل والغدر والخيانة والأثرة والرياء والفتن محلهما واضطرب لذلك
النظام العالمي .

والدعوة الحمديّة حين غُيّت بالروح وتزكيتها ، وحين وازنت بين
مطالب الدنيا ومطالب الآخرة ، وأقامت الشريعة على ميزان من العدل تزن
بين حاجات الروح وحاجات البدن ، قاومت الطغيان الماديّ فنمت سبباً من
أسباب الاضطراب العالمي ، « ونفسٍ وماسواها . فألهمها فجورها وتقواها .
قد أفلح من زكّاها . وقد خاب من دساها » .

أجهالات في
مكان
السمالات ؟

أفلمح من زكّاها

الثالث الفساد

الغدر والكذب والنفاق في حياة الأفراد والأمم — فلسفة سياسية خطيرة —
آية قرآنية يفخر بها المسلمون — تشبيه بليغ — نصوص وحوادث — الغدر
غير المدعة في الحرب — قبيح الغدر حتى بين الأشقياء — الله لا يهدي كيد
الخائنين — الكذب والنفاق في السياسة — المكافأة التي ينكرها الإسلام —
سياسة الوضوح — صفتان أدنا من الكفر — أسماء على غير مسمياتها .

قلنا إن هناك أسباباً أخرى للاضطراب العالمي قد تكون أقل شأنًا
ولكنها عناصر هامة كذلك في عدم الاستقرار إلى سلم دائم وعلاقة حسنة
بين الشعوب والأقوام .

والآن نتخير من الأسباب الكثيرة الخلقية أسوأها أثرًا في المجتمع البشري،
وهي الغدر والكذب والنفاق . وهذه الصفات الثلاث، على سؤمها وضررها
في حياة الأفراد، أبعداً وأعظم ضرراً في علاقات الأمم، ولذلك غُيّت الدعوة
المحمدية عناية كبيرة بمقاومتها في أخلاق الأفراد وصلات الشعوب . وقد فشلت مع
الأسف الشديد هذه الصفات المذمومة بنسبة عكسية مع ضعف الحياة الروحية
وسيطرة المادة، وأصبح الناس لا يستحيون من الغدر استحياء آبائهم، لِمَا كان
يصحب الغدر من ضياع الشرف والهيبة، بل صار كثير منهم ينظر للغادر
نظرته إلى الكيّس المبدع في حسن التصرف، ويقيس فضله بنجاحه غير عابئٍ
بالوسيلة وإن كانت أخس الوسائل . وإذا ضعف احترام الفضيلة وتقديرها لذاتها
فشأ الغدر في صلوات الشعوب واضطربت العلاقات الدولية أيّما اضطراب .

والمتعقب للسياسة الدولية في مدى نصف القرن الأخير يستطيع أن يشير
إلى عشرات المواقف الغادرة، وقل أن يجد حلقة نقية في سلسلة الغدر الخبيث .
فالمفاجأة والتكث بالعهود كاد أن يكونا القاعدة بعد أن كانا، حتى في الجاهلية

آثار الثالث في
حياة الأفراد
والأمم

فلسفة سياسية
خطرة ١

وبعد أن انتشرت مع انتشار الإسلام والعرب آداب الفروسية في القرون الوسطى ، من الصفات التي تحطّ من قدر الأفراد والشعوب وتعرّضها للزّاية العامة .

ولم يزل الكتاب الكريم يُسَفِّه الغادرين ويَحُضُّ على الوفاء حتى جعل حق الميثاق فوق حق الدين كما أشرنا إلى ذلك في موضع سابق . وهذه الآية الجليلة « وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » تبقى أبداً الدهر نفخ المسامين في حرمة اليهود وحرمت الوفاء !

آية قرآنية يفخر بها المسلمون

وزراية القرآن على الغادرين في قوله تعالى « وأوفوا بعهدي الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا كالتى نقضت غزوها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة ، إنما يلوكم الله به » وتشبيهه الغادر بالمرأة السفيرة تنقض غزوها بعد أن أبرمتها ، مثل بلوغ للذين يعبثون بعهودهم ، يهوى بهم إلى درك السفاهة ، تلك السفاهة التي يترتب عليها في الحقيقة اضطراب العالم كله إذا حلّ الغدر محلّ الوفاء .

تشبيهه بلوغ

روى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ألا إنه يُنصَّب لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته ، ولا غدره أعظم من غدره إمام عامّة » .

نصوص وحوادث

وقد ضرب رسول الله المثل الأعلى للوفاء طول حياته ، في صلاته بالأفراد والجماعات ، وبلغ من وفائه أنه سمع لنشيد حسان في مدح أحد قتلى بدر من أعداء النبي نفسه .

كان مطعم بن عدي من أشرف قريش المشركين ، وكان رسول الله حين رجع من (الطائف) بعد أن لقي من (ثقيف) منكر القول والفعل ، قد طلب جوار بعض رؤساء مكة ليدخلها آمناً على حياته ، فأبوا وقبل مطعم أن يدخلها

في حمايته ، فلما كانت واقعة بعد ذلك ودارت الدائرة على قريش وقتل نفر من صناديدها ، كان بين القتلى مطعم بن عدي . وفيه يقول حسان بن ثابت شاعر الرسول :

أيا عين فابكي سيد القوم واسفحي بدمع وإن أنزفتي فاسكبي الدما !
وبكي عظيم المشعرين كليهما على الناس معروف له ما تكتما
فلو كان مجد يخلد الدهر واحدا من الناس أبقى مجده اليوم مطعما
أجرت رسول الله منهم فأصبحوا عبيدك ما لبى مهل وأحرما
فلو سئلت عنه ممد بأسرها وقحطان أو باقى بقية جرهما
لقالوا هو الموفى بحيرة جاره وذمتيه يوما إذا ما تذكما
فا تطلع الشمس المنيرة فوقهم على مثله فيهم أعز وأعظما !

مات مطعم مشركا مقاتلا الرسول ، ولكن الوفاء في هذا المثل يرثى فيه حسان عدوا مشركا ، والرسول يسمع ولا يُنكر ، يدل على أنه صلى الله عليه وسلم أنزل الوفاء في مكان من القداسة لا يُنزله عنه خلاف في الدين ولا قتال وعداء . فالرسول حين يسمع إلى شاعره يبكي المروءة في عدو هو أحد صرعى القتال من المشركين المعتدين يسُن لنا في الرجولة والمروءة والوفاء مثلا قد علا فوق كل شيء ، ويحط من صفة الغدر إلى الدرك الذي لم يصل إليه أحد قد بقي له من الإيمان والخلق شيء .

وقد روت عائشة أن عجوزا جاءت إلى النبي فقال لها : من أنت ؟ فقالت : جثامة المزنية . فقال : أنت حسانة ! كيف أتم ؟ كيف حالكم ؟ كيف كنتم بعدنا ؟ قالت بخير . بأبي أنت وأمي ! فلما خرجت قلت : يا رسول الله : تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال ! قال : « إنها كانت تأتيننا من خديجة ، وإن حُسن العهد من الإيمان » .

فلو أن العالم دان بما تريده الدعوة المحمدية ، واعتبر حسن العهد من الإيمان
لوفر على نفسه ويلاّت كثيرة .

قد يبدو الغدر أول وهلة وسيلة من وسائل الظفر ، وطالما تحدث الناس
بأن الحرب خدعة ، وشتان بين الخيانة والنكث بالعهد أو المفاجأة والأخذ على
غرّة وبين الخدعة في القتال ؛ فالخدعة حيلة يعرف الخصم أنه معرض لها وليس
له وعد باجتماعها ، وهي دائما في حدود الحرب المرعية ، وقد تحدثنا عنها من قبل .
فإذا ألقيت في روع العدو أنك ستأتيه بكامل قوتك من ناحية ولم تبعث إليها
إلا الأقل ، وحولت السكّرة لנاحية أخرى ، فليس هذا غدرا وإنما هو خدعة
لا تتنافى مع الأخلاق ، مادام البشر يعتبرون الحرب لا تتنافى مع المروءة
وحسن الخلق .

الغدر غير الخدعة
في الحرب

حكى لي أحد أشقياء البدو عن شيخ كبير من البدو أنه غدر به بعد أن
وعده ألا يدلّ عليه ، والغدر منقصة حتى بين الأشقياء ، فسألت عما يقول
الشيخ في ذلك ، فقليل : إنه قال : « الخونة عونة » أي أن الخيانة مما يستعان به .
وقد أنكر الناس ذلك على الشيخ البدوي أشد الإنكار .

فبيع الغدر حتى
بين الأشقياء

وها نحن أولاء مع الأسف نشهد مبدءا « الخونة عونة » الذي يقول به
شيخ من قساة البدو ، والذي ينكر الناس اتخاذه مع شقي من الأشقياء في
حادث سلب أو نهب ، يفسد في علاقات الأمم الكبيرة فتغدر وتفاجى لتفتك
في غفلة ، متجاهلة حرمة العهود وحرّمات المروءة . فكأن مبدءا « الخونة
عونة » جعل الحياة قديما بين بعض القبائل في اضطراب مستمر فسلبها الأمن ،
فهو بين الأمم المتحضرة يمد هذا الاضطراب بالوقود .

ولا أظن أن اتخاذا الغدر وسيلة من وسائل الظفر أدى للغادرين خدمة جليلة
في زمن من الأزمان ؛ فهو قد يكسبهم المعركة الأولى ، ثم يرتد عليهم ، ولا بد
أن يتحقق في الغادرين قوله تعالى « إن الله لا يهدي كيد الخائنين » .

الله لا يهدي كيد
الخائنين

واتخاذ الخيانة وسيلة للظفر في علاقات الشعوب يؤدي قطعاً إلى التربص وسوء الظن ، فيفقد الناس نعمة الأمن في السلم والحرب . وها هو ذا الجيل الحاضر يكتوى بويلات الحرب ليخرج منها إلى الخوف والاستعداد لحروب أخرى . ذلك هو الجزاء السماوي . ولذلك يحرص الإسلام على الوفاء حتى مع الغادرين ، فوفاء بغدر خيرٌ من غدر بغدر .

الكذب
والنفاق في
السياسة

أما الكذب والنفاق فلا نقول إن الناس أكثر تحرياً للإخلاص والصراحة مما كانوا ، ولا إن الكذب من الأخلاق التي ظهرت في العهد الآتي بأسوأ مظاهره ، ولكننا لانستطيع كذلك أن نقول إن الصدق أكثر حرمة منه فيما مضى ، وإنما الذي ننميه في هذا العصر هو الكذب في السياسة . ونستطيع أن ندعي أن الكذب والرياء من عناصر الاضطراب في العلاقات الدولية أكثر مما كانا في الماضي .

المكيقلية
ينكرها الإسلام

فمكيقلية في كتاب (الأمير) مثلاً يجهر بنظريات لا ترتضيها قواعد الأخلاق والمروعة ، والناس الآن يطبقون آراء (مكيقلية) وليس لهم صدقه في إعلان رأيه . وعندى أن كتاب (الأمير) نفسه دليل على أن الناس في العصور الوسطى كانوا أقرب إلى الصدق ، منهم في العصر الذي يستنكرون فيه المكيقلية ويعملون بها .

سياسة الوضوح

وهذا الكذب والنفاق في السياسة الذي يظنه بعض الناس مبرراً ويقتنون في تزويقه وتنميته ويعُدونه لازماً للدبلوماسية ، يبغضه الإسلام وينفر منه . وتاريخ الفتوحات الإسلامية مثل باقي من الصدق والجهر بالحق للعدو والصدق ، وسير الخلفاء الذين يمثلون الدعوة المحمدية ، والذين لم يقعوا في أساليب الفرس وأساليب بيزنطة ، تفيض ببساطة الصدق ووضوح الحق ؛ فإذا قالوا أو كتبوا أو عاهدوا أو سفروا أو ولّاهم ، وجدت قولاً واضحاً يتحرى أن يكون بعيداً

عن التأويل جليلا لا يمتق ولا يمارى . يقول رسول الله « أنا زعيم بيت في رِاض الجنة لمن ترك المراء وإن كان مُحِقًّا ، وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا ، وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه » .

ولقد أراد الإسلام في جميع العلاقات بين الناس فردية أو دولية ذلك الوضوح ، فتجده مطلوباً في كل شيء ، وعدم الوضوح في العقود وتعريضها للتأويل والمشاحنة كان سبباً في تحريم كثير منها .

ويكاد القارىء لكتاب الله وأحاديث رسوله يحكم بأن الكذب والنفاق أحط من الكفر ، فقد لعن الكاذبين وجعل المنافقين في الدرك الأسفل من النار . ولأول وهلة قد لا يدرك الإنسان حكمة هذه الشدة ، فإذا نظر في أثر النفاق من الناحية العامة ، وتجاوز برهة أثره على المنافق نفسه ، وجد أنه عنصر جوهرى في فساد النظام العالمى .

صفته أدنى من
من الكفر

وليظهر ذلك أرجو أن تفكروا فيما نحن فيه من اضطراب عالمى ؛ أليس النفاق من أهم أسبابه ؟ ولو كان القاعون على (جمعية الأمم) مثلاً - وقد اشترك فيها أو في تأسيسها كل الذين اقتتلوا في الحرب الأخيرة - قد بنوا مؤسستهم على الصدق وعلى الإخلاص أكانت تنهار كما انهارت ؟ أكان انهيارها يجر إلى هذا الفساد الكبير الذى وقع في الحرب العالمية الأخيرة ؟ ولو أن الدعوة التى يدعيها الناس من حب الخير العام ، ولو أن الحرمة التى للحقوق البشرية كانت حقيقة في نفوسهم وكانوا صادقين غير مرآئين ، أكان الناس يختلفون على معنى هذه الحقوق وعلى معنى الخير العام كما يختلفون اليوم ؟

إن النفاق قد ألبس الأمر على الناس ، فإذا قيلت هذه الكلمات المحبوبة : الحرية . المساواة . العدل بين الناس . حق الجميع في عيش سعيد وسلم دائم ، إذا قيلت ، ظنوا أن المقصود غير ما قيل ، والتبس الحق بالباطل .

أسماء على غير
مسمياتها

وأثر النفاق، وإن قل شأنه في علاقة فرد بفرد، يتضاعف أضعافا كثيرة إلى أن يصير شرا مستظيرا إذا اتخذته الدول وسيلة من وسائل الظفر في سياسة شعوبها، أو في علاقاتها بدول أخرى.

والسياسة التي تستند على الغدر والكذب والنفاق تحرّمها الشريعة المحمدية وتأبأها الأديان السماوية كلها، لأنها تغذي الاضطراب العالمي وتعين على تقويض العمران.

في البحث عن سند رومي للحضارة

الوصاية على الحضارة للاقوى أم للاتقى

الشعلة المتقدة بين الأجناس — قصور «علم الإنسان» — أدوار الحضارة ومن
مثلوها — من «علم الإنسان» — الفروق البدنية لا تكيف الحضارة — المدنية
ليست اختصاصا لقوم وحدهم — هي أثر للحالات النفسية — قانون قرآني —
مساواة تامة بين الأرواح — وحدة التكليف الديني ومفزاها — دعوى هي
أصل الاستبداد والتفاوت — ميراث النفس الطيبة .

نريد أن نتناول من بعض النواحي مبدئين متعارضين : الأول سند
الحضارة المادية ، والثاني سند الحضارة الإسلامية . ولعل في هذا البحث
ما يكشف عن العوامل الخفية لسقوط الحضارة ، وما يفسر بعض أسباب
الاضطراب العالمي أثناء هذا القرن .

فما هو الحق . . . هل هو للاقوى أم للاتقى ؟

إذا استعرضنا تاريخ الأقاليم منذ بضعة آلاف من السنين ، نجد أن
الحضارة لم تثبت في مكان واحد ، ولا دامت لقوم وحدهم ، فهي كسلعة الذهب ،
تمر بأيدي الناس جميعا ، وقد ترجع إلى اليد التي ذهبت منها بعد أن تطوف
الكرة الأرضية .

الشعلة المتقدة
بين الأجناس

فالمدينة متاع مُشاعٌ يكسبه من قدر على الاحتفاظ به عهدا ، ثم لا يطيق
حمله فيتخلى عنه فيقع على كتف الأصلح لحمله ، حتى إذا خارت قواه تخلى
للأصلح وهكذا . فالتاريخ يشهد بوضوح على هذا التداول ، ويأبى أن يشهد
لقوم دون قوم أو جنس دون جنس بالصلاح الذاتي أو الاختصاص بالقدرة
على حمل رسالة الحضارة لِمِيزة طبيعية موروثية وملازمة للعنصر .

وكذلك إذا استعصرنا (علم الإنسان) «أنثروبولوجي» ونظرنا في الأجناس البشرية نجد هذا العلم على حدائته وغموض بعض نواحيه، يُرشدنا إلى الفروق أو الميزات البدنية بين قوم وقوم، ولأنه لا يساعدنا على إدراك الفروق الروحية والذهنية. وقد نخرج من محيط العلم الصادق إلى النظر والفروض كلما حاولنا تثبيت قواعده على أساس الفروق النفسية والروحية بين قوم وقوم، لنستخلص منها مؤهلات هذا العنصر دون ذلك لرسالة الحضارة والمدنية.
 نعم إن بعض الأبحاث «الأنثروبولوجية» الحديثة قد تعين على قياس صفة الذكاء بين طائفة وطائفة من البشر، ولكنها لا تعين على تحديد للصفات المعنوية الكثيرة، والفرائز المتعددة، ومظاهر هذه الفرائز؛ وبذلك لا تهدي إلا إلى أقل العناصر النفسية شأنًا في تكييف قيمة عنصر وآخر لحمل رسالة الحضارة التي تتطلب مجموعة من المعاني والقوى النفسية وتوازن هذه المجموعة.

فإذا كان (علم الإنسان) هيئاً لنا قدراً من العلم نعرف به صفات نردُّ بها الناس إلى بعض أصولها القديمة، فإن هذا العلم لا يزال فيما عدا ذلك يتخبط بنا في المجاهيل. وإذا فليس لدينا دليل علمي يجعل أحد العناصر يمتاز بطبيعته وقوته على العناصر الأخرى لحمل رسالة العمران والحضارة والعلم.

ولننظر أولاً في الفروق العنصرية بين الأقوام التي قامت على اكتافها المدنيات المختلفة منذ أن شاد الفراعنة هذه الأهرام شاهداً على الشأو البعيد الذي بلغوه في المدنية وسبقوا به الناس كافة:

قامت مصر بالدور الأول، بل الدور الأهم في تاريخ الحضارة البشرية؛ فهي التي علّمت الناس الزراعة والبناء والكتابة. ثم جاء السوماريون والبابليون والفينيقيون والآشوريون والكلدان

أدوار الحضارة
ومن مثلوها

والفرس واليونان والقرطاجنيون والرومان والعرب ، ثم الأقوام الأوربية والأمريكية الحديثة ، يضيفون إلى الحضارة ويجددون . فإذا فرضنا أن أول الحضارة في مصر وآخرها الآن في أمريكا - إذ ليس عندنا دليل على البداية أو علمٌ بالنهاية - وتجاوزنا مؤقتاً عن نصيب الأقوام الصّغراء وأثرها في حضارة هذا الشّرق من الكرة الأرضية ، أمكننا حصر الحضارة التي تشير إليها في العناصر النازلة في غرب آسيا وشمال إفريقيا وفي أوروبا وأمريكا . وقد اتفق علماء الأجناس (الأثروبولوجي) على أن هؤلاء البيض ثلاثة عناصر أصلية ، بينهم اختلاف بدني واضح ومحدد ، ومنازل العناصر الثلاثة تمتد متوازية من الغرب إلى الشرق .

ففي الساحة الشمالية نجد الشماليين (النورديك) وجنوباً منهم (الألبين) وجنوباً من هؤلاء (المتوسطين) ، أو قوم البحر الأبيض المتوسط ، وهم سكان ما حول هذه البحيرة .

« من »
« الإنسان »

من « علم
الإنسان »

فللشماليين الأجسام الطويلة ، والعيون الزرق ، والرؤوس المستطيلة ، وللألبين الرأس المستدير ، وللمتوسطين الرأس المستطيل ، والأجسام الأقصر من أجسام الشماليين ، وسواد العيون والشعر . ولا حاجة بنا للخوض في الفروق البدنية التي حدد بها علماء الأجناس هذه العناصر ، واستدلوا على وجودها قديماً وأثرها حديثاً ، فإنها لا تُغنيننا كثيراً في تكييف الحضارات القديمة ؛ إذ ليس بين أيدينا أدلة قاطعة على حقيقة الأقوام الذين حملوا رسالة المدنية قبل العرب أو حتى من العرب ، ولأن البحث العلمي نفسه الذي دلّنا على مييزات بدنية بين العناصر الثلاثة التي يتكون منها الجنس الأبيض الكبير ، دلّنا كذلك على أنه لا وجود لأحد منها في وطن معين خالص له ؛ ففي بريطانيا نفسها ، تلك الجزيرة الشمالية ، توجد العناصر الثلاثة ، وليست حتى بنسبة بُعدها عن هذه الجزيرة . بل إن (المتوسطين) فيها أكثر نسبة من (الألبين) . وكل ما نستطيع تحقيقه علمياً هو

الفروق البدنية
لا تكييف
الحضارة

« من »
« الإنسان »

أن تثبت رُجحان صفة بدنية في أمة من الأمم من صفات هذه العناصر ، على صفاتها الأخرى .

وحتى إن استطعنا تقرير ذلك علمياً من الناحية الجسمانية كما قلت ، فإننا لا نزال بعيدين جداً من قياس العوامل والآثار النفسية في شعب من الشعوب ، وإدراك هذه الآثار باعتبارها نتائج لتفاعل الدماء الموروثة من الأقوام المختلفة . وإذا يصح لنا أن نتساءل : لِمَ هذه الحضارة ؟ وهل يجوز نسبتها لجنس دون جنس ؟

ثم ألم تكن الشعوب القديمة نفسها ، وأقدمها الفرعونية المصرية منذ آلاف السنين ، كما هي اليوم ، خليطاً من الأجناس تغلب عليه جنسية البحر المتوسط ؟ وما هي البضعة الآلاف من السنين التي نعرف شيئاً قليلاً عنها منسوبة إلى عشرات الآلاف في التاريخ البشري الذي لا نعرف شيئاً عنه ؟ وسواء قامت بعض الحضارات القديمة على اكتاف أحد العناصر الثلاثة التي أشرنا إليها والتي حددها علماء الأجناس في الناحية الغربية من الأرض ، أم على أقوام متوالدة من اختلاطها ، فإن أمراً واحداً لا شك فيه ، هو أن المدنية ليست امتيازاً ولا اختصاصاً لعنصر منها ، ولا هي لازمة له وتابعة لصفاته الخاصة ؛ فليست نتيجة للقوة الطبيعية الموروثة له ، وليس سندها هو حق الأقوى بحال من الأحوال .

المدنية ليست
اختصاصاً لقوم
وخدم

هي أمر للعالات
النفسية

والحضارة إذاً بجميع نتائجها المادية والأدبي أثر لحالات نفسية غير لازمة للصفات البدنية المميزة لقوم على قوم . ولو أننا ذهبنا بعيداً وحاولنا الاستدلال بالمعلوم على المجهول ، وقلنا إن الصفات البدنية تشير إلى خصائص نفسية لا نزال بعيدين عن علمها ، فإن ذلك لا يغير من الحق ، وهو أن العناصر التي نعرفها ، لم تختص على طول التاريخ البشري بالعقل أو العلم أو الابتكار ، حتى ننسب شيئاً من هذا إلى صفاتها العنصرية . ومن الواضح أن النفس وحدها هي التي تضيء فتتغير

سببها قسمة
لها ينعى رويلا

ظلمات الحياة البشرية متى أثرت فيها مؤثرات خاصة، وتهيأت لها بيئة روحية خاصة. فسند الحضارة هو الروح وأخلق لا القوة المادية.

تانون قرآني وما أصدق القانون القرآني في هذا المعنى في قوله تعالى « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ».

ولو فرضنا أن الصفات النفسية توارثت كما توارث الصفات البدنية فإنه مما لا شك فيه أن المؤثرات العارضة هي التي تكيف القوى الذهنية، وأن العقيدة والآداب القويّة هي المنشئ والحارس للمديّة.

إننا نجهل كنه الروح وحقيقة النفس، كما نجهل أسباب انفعالاتها ومداهها وآثارها ومصادرها وعواقبها، مما يمنع تقرير أصول علمية تميز بها بين صفات الأقسام النفسية كما تميز بين صفاتها البدنية.

وكل ما يمكن تقريره بالمشاهدة والاستقراء في الحال أو في الماضي، يشير إلى استمداد متشابه عند جميع الأقسام لتلقى العلم أو الأدب، أو بعبارة أعم، لتلقى الحضارة كيفما تلونت ومن أي جهة جاءت.

وإذا تجاوزنا عن بعض فروق محدودة تُحدثها البيئة والمناخ في بعض الحالات، فإننا نستطيع أن نطمئن إلى القول بالمساواة التامة بين الأرواح البشرية، أو بعبارة أخرى: إننا لا نعرف دليلاً على عدم المساواة. وتداول العلم والابتكار، بل وتداول الجهل والفساد، دليل على استمداد مشترك ومتساو للخير والشر. وإذا كان كل ذلك من آثار العيش تحت عوامل مختلفة فإنه يشير إلى وحدة الروح، أو بعبارة أخرى، وحدة القوى الذهنية، أو تمام تشابهها.

وهذا يكفي لنفي امتياز بعض العناصر البشرية على بعضها بصفات ذهنية تجعل لأحدها رجحاناً دائماً.

ويحق لنا أن نقول: إنه ليس في الصفات البدنية ولا الصفات الروحية

مساواة تامة
بين الأرواح
البشرية

وحدة التكليف
الديني ومفزاها

ما يدلنا على خلافٍ يجعل المدنية حِكراً لطائفة من البشر ، أو يمنع من المساواة في التكليفات التي جاءت بها الشريعة المحمدية .

ومتى وَضَحَ ذلك انهارت الدعاوى العنصرية ، وانهار معها مبدأ القوة كسند الحضارة ، لأنه لو ثبت أن الطبيعة هيأت قوماً دون آخرين للعرفان والعُمران ، لجاز أن يحمل هذا القومُ غيره على الاحتذاء به ، بل لكان في سيطرته وقهره غيره فائدةً عامّة .

وكما أن العلم لم يُثبت لأحد رجحانا ، كذلك التجربة دلت على أن الأقوام إنما تستخدم ما أُوتيت ، من قوة في الاستزادة من المنفعة لنفسها واستغلال المغلوبين لأسباب عارضة ، وقد بينّا أن القلب ليس ناشئاً عن صفات أصيلة طبيعية في عنصرٍ ما . وكذلك دلّ تاريخ البشر على أن الأمم المغلوبة لا تستفيد من غالبها بل قد تندثر بسبب هذا القلب .

فالقول بالحق الأقوى ، هو قول يرجّح بعض الأقوام على بعض دون سبب طبيعي ، ويُبيح الاستبداد للقادرين عليه ، ويعجو حق المستضعفين . وهو قول تأباه الشريعة المحمدية كلّ الإباء ؛ فهي التي جعلت الناس سواسية ، وجعلت الحقّ للآثقي والأبرّ ، وقررت أن الناس أسرة واحدة ، أكرمهم عند الله أتقاهم .

وهي التي يقول رسولها العربيّ الأمين « لا فضل لعربيّ على عجميّ إلا بالتقوى والعافية » - أي حبّ الخير والسلام . فليس أكرم الناس أقوام بدناً وأضخمهم ميراثاً ، ولا أكثرهم عرفاناً ، بل أطيبهم نفساً ، لأن النفس الطيبة هي التي تملكها التقوى فتمنعها من فعل الشر وتحضها على فعل الخير .

دعوى هي أصل
الاستبداد
والنقاوت

ميراث النفس
الطيبة

قيام المدنية ودوامها

مداولة الأيام بين الناس — التفسير المادى للتاريخ — التفسير العنصرى
للتاريخ — مناقشة التفسيرين — التفسير الروحى هو الصحيح — من القرآن —
بارود القذيفة — ساعة الفصل بين التقدم والتأخر — نظرة تشاؤم إلى
المدنية الحاضرة — بين المدنية والحق — الانهيار الفجائى — عوامل فناء
المدنيات — الترف — الضعف عن حمل أمانات الحضارة — هل جاء وعد الله ؟

يَبْينُ أَنَّ سِنْدَ الحضارة الإسلامية هو حقُّ الأتقى والأبرِّ، وقلنا إن الأرواحَ
متساويةً، وإن (علمَ الإنسان) لا يزالُ قاصراً عن بيان حقيقة القوى الذهنية
وكيفية انفعالها بالمؤثرات، وأثبتنا أن الفوارقَ العنصرية الظاهرة في أجسام
البشر لم تُرشدْ إلى امتيازٍ بينها في خلق الحضارة، وهى قطعاً لا تجعلُ لقوم
امتيازاً على قوم في الاختصاص بها.

والتاريخُ البشرى يُشيرُ إلى الحضارة كأنها شعلة متحركة، ويدلُّ على أن
الأقوامَ التى أخرجت أعظمَ المدنياتِ، ما لبثت أن هوت من شاطئ مجدها
إلى الحضيض.

فإذا تعقبنا الأممَ أمةً أمةً فى مدى خمسة آلاف سنة نجدُ أن هناك قاعدةً
لا تتخلَّفُ، وهى أن الأمةَ ترتفعُ ثم تهوى كما تقذف بالحجر إلى أعلى فيصلُ
إلى مداه ثم يقفُ ثم يهبطُ عمودياً إلى الأرض، وكأنَّ الأمةَ التى ارتفعت شئْ
آخرُ غيرُ التى هوت وتخطمت. بل إن بعضَ الأممِ التى لا يزالُ أثرُها يدوى
قد بقيت سلاسلُها ذاهلةً عن عزِّتها، كأنَّ ليسَ بينها وبين آباؤها صلةً إفا الذى
رفعها وما الذى خَسَفَها ؟

لقد تعددت العللُ؛ فالذين يفسِّرون التاريخَ تفسيراً اقتصادياً يعملون هذا
التداول الذى عبَّرَ عنه القرآنُ أوجزَ تعبيرٍ فى قوله تعالى « وتلك الأيامُ نُدْأُولُهَا

مداولة الأيام
بين الناس

التفسير المادى
للتاريخ

بين الناس» بعلم مادية، ويفسرون الصعود والنزول بأسباب تنحصر في المادة،
فإخصاب الأرض لسبب طبيعي، أو تحويل المطر أو زيادته أو تغير الجو،
أو اكتشاف طرق جديدة يتبعها تغير سبل النقل للتجارة، أو اكتشاف أرض
جديدة، أو ابتكار آلة، أو استخراج معدن، أو استخدام وسيلة ما، أو غير
ذلك مما يغني ويزيد في القوى المادية، هو العنصر الذي يدفع بقوم إلى التحضر
وحياة العمران، كما أن فقدان الرجحان الاقتصادي يتبعه التدهور والانحطاط.

الفسير العنصرى
للتاريخ

ويرى آخرون أن سبب ظهور أمة ما، هو في ذات جنسها وما يحصل
من ترايد القوى الكمينية في ميراثها العنصرى، وذلك بأن تخرج مع قوم
آخرين قريبين منها، فيخرج من التوالد عنصر أقوى يندفع إلى أعلى بما هو
كمن فيه من القوى الموروثة، فيسمو ويضيف للتراث البشرى علما ومدنية.

مناقشة الفسرين

وهي أقوال لا تكفى لتفسير الواقع ولا تحلّ اللغز؛ فكثيرا ما قام
بالحضارة قوم، أو سقطوا واندثروا من غير أن تكون العوامل الاقتصادية
سببا في الظهور والاختفاء. بل إن قدماء المصريين وهم رأس الحضارة البشرية،
وقدماء البابليين، هم الذين زرعوا الصحراء ولم تكن الصحراء هي التي زرعتهم.
وخروج العرب من شبه الجزيرة وانتشارهم، ووصلهم بين حضارات
الأقدمين والحضارة الحديثة، وابتكارهم وافتنانهم في العلوم والصنائع، لم يكن
لأسباب اقتصادية محلية، كما أن سقوط العرب والرومان والمصريين والبابليين
لم يكن لأن أرضهم أجذبت، ولا لأن جوهم تغير، ولا لأن طرقا جديدة
أو أوطانا جديدة قد اكتشفت.

وكثيرا ما كان الحرمان المادى سببا لظهور أقوام وتغلّبهم على المادة
وحصولهم على ما يريدون بكفاحهم ليخرجوا للعالم حضارات ضخمة. ومثل
اليونان والعرب والفينيقيين واضح، وخيرات أمريكا وإفريقية الوسطى لم
تبعث قوما جُددًا في آلاف السنين، وإنما بعث أمريكا المغامرون والمهر ومون.

كذلك لم يقدِّم دليل علمي على أن توالد قوم فيما بينهم وعدم اختلاطهم ،
سبب في انحطاط هؤلاء القوم ، بل بالعكس .
نعم لقد قيل إن ظهور الحضارة القديمة المصرية كان عقب ورود قوم من
أسلاف العرب امتزجوا مع أهل الوادي وصاروا قدماء المصريين الذين بنوا
الأهرام ، ولكن ذلك ليس معناه أن انتعاش قوم من الأقوام كان لازماً لمثل
هذا الحادث .

فلا النظرية الاقتصادية ، ولا النظرية الأثروبولوجية (نظرية علم
الإنسان) كافية لتفسير أسباب ظهور المدنية أو سقوطها ؛ لأن كلا من النظريتين
قد يفسر حالة ، ولكنه لا يطرأ مع الحالات الأخرى .

وإذا دققنا النظر نجد أن الأسباب الروحية والمعنوية هي التي ساعدت دائماً
على الظهور أو الاختفاء ، ونجد العلة الأدبية ملازمة لجميع الحالات في كل
الأقوام . والقرآن كما أشرنا في الفصل السابق يؤكد هذا المعنى في كثير من
آياته فيقول « إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم » ويقول :
« كذاب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم .
إن الله قوي شديد العقاب ذلك بأن الله لم يك مغيّراً نعمة أنعمها على قوم
حتى يغيّروا ما بأنفسهم » « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم
بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » « ولقد
كتبنا في الزبور من بعد ذلك أن الأرض يرثها عبادي الصالحون » « وعد
الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف
الذين من قبلهم ولیمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم » « وضرب الله مثلا قرية
كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها
الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » « وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة
وأنشأنا بعدها قوماً آخرين فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون لا تتركضوا

التفسير الروحي

من القرآن

وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ . قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . فَاذْهَبْ إِلَى مَا دُعُوا بِكُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ »

فما من قوم خرجوا على الدنيا برسالة العرفان والعمران إلا كانوا مهينين لهذا يلان قوي وأدب قوي ودعوة قوية ، وما من أمة تضاعلت عقائدها وانحط أدبها وتذبذبت إلا أصابها ما أصاب من قبلها فهوت كأن لم تكن شيئاً مذكوراً .

فالعقيدة الصالحة والأدب القوي والعرف الصالح كقوة الباراد في دفع القذيفة ، تدفع الأمم بقدر ما في عقائدها من قوة واستقامة .

وإذا أسمى العقائد والآداب والعرف بالقوة المعنوية ، فإن هذه القوة الدافعة تسوق الأمم إلى الأمام ، حتى إذا ما تبددت بقيت الأمم حيث أوصلتها الدفعة الأولى ، ثم هوت إلى الأرض كتلة لا تمي ، وكأنما سلبت حياتها . والتاريخ يشهد على أن انحطاط كل قوم من الأقسام يتبدى حيث تبلغ السيطرة المادية حد التسلط على حياتها ، تسييرها وتحل محل السيطرة الروحية والمعنوية . أو بعبارة أخرى حين تغلب شهوات الأبدان شهوات الأرواح . تلك هي ساعة الفصل بين التقدم والتأخر .

وأكثر المتشاكين يعتبرون أهل الحضارة الحديثة من الغربيين قد بلغوا هذا الدور ، ولا يفترون بمظاهر القوى المادية ؛ فلا الثروة ولا العلم ولا ما ينتجون من طيارات ودبابات ومدافع ووسائل سيطرة على الحياة المادية بمائة من هزيمة المدنية واندثار الأقسام التي تذبذبت عقائدها وضل أدبها وانقلب عرقها .

ويرى بعض العلماء أن سلامة العقل البشري ليست لازمة للرقى المادى ، فقد يسير هذا الرقى عهداً ما ، وقد سلب الناس العقل الراجح والميزان الصحيح ، ويكون سيرهم واندفاعهم مما يقرب قضاء الله فيهم وسنته فيمن خلا قبلهم من المترفين ، ومحققا لقوله تعالى « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت من المترفين ، ومحققا لقوله تعالى » حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت

وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن
لم تنن بالأمس .

الانهيار الفجائي

وإتيان أمرها ليلاً أو نهاراً هو الإشارة إلى معنى المفاجأة ، فإن انهيار
المدنية وسقوط القاعين عليها لا يكون عليه دليل ظاهر من الأحوال المادية ،
ولكنه خفي خفاء القوى الذهنية والعوامل النفسية التي لها الأثر الأول في قيام
الحضارة وسقوطها .

عوامل فناء
المدنيات

ومن العسير جداً في مثل هذه المُجالة أن نخوض في تفصيل عوامل
فناء المدنية ونستقصي أسبابها وأثرها وسرعتها ، ولكن ذلك لا يمنع من
أن نشير إلى سببين قد يكون مجعماً عليهما .

الترف

الأول : الترف ، فإن الأمم متى تهيات لها بيئة رُوحية صالحة سمت واندفعت
إلى العمران والعلم فأتتجت واستقامت لها الأمور بما يمسكها من إيمان وأدب
يوحد بينها ، ويحدد مسلكها ، ويقوّم مُعوجَّها ، ويحفظها من التردد والقنوط ،
فتجدد نفسها بعد حين قد نعت بالحياة ودانت لها طيبات الرزق ، فتلهو بهذه
الطيبات ثم تنغمس فيها ثم تعيش لهواها وتتسابق في شهواتها وتثقل رسالة
الحق عليها ، بما تفقد من الصبر وما تجد من لذات عاجلة ، فيداخلها الشك
في دعوة منشى حضارتها ، وترتاب في كل تراثها الأدبي ، وتجد غضاضة في
التقيّد ، فيضيع العرف الذي يمسكها ، وتتداعى القوى الرابطة لكيانها ،
فتتفكك العرى وتحلّ الفوضى ، ويستخلف الله للمدينة قوما آخرين خصّص
البطون ، يحبون الحق كما يحب المترفون كآسهم وغوانهم .

وهذا الترف يتولد منه السبب الثاني للانحطاط فإن رسالة القوم الأولين
تكون بسيطة وهم قادرون عليها بتفرغهم لها . أما أعقابهم فإن أعباء رسالتهم
تزايد بطبيعة نمو الحضارة نفسها ، وتطلبها مجهوداً أشقّ ونظراً أدقّ وعناية
لا تنقطع . فقائد الكتيبة في جيش الفاتحين الأولين يحلّ محله بعد جيل قائد

الجيش في دولة الحضارة الإمبراطورية، ومدير المصنع بعشرات الألوف من العمال، ومدير المصرف بآلاف الملايين من الدراهم.

وتستلزم المدنية عندئذ من أربابها قلوباً متفرغةً وعقولا صافية وأبداناً رياضية ويثقل حملها، بينما يكون النعيم قد سلب الناس العقل، واللذة قد قضت على الفراغ « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » فيضعف الجليل عن حمل الحضارة التي أنشأها آباؤه بدافع معنوي، فيخوّر ويفقد إيمانه بنفسه ويهوى إلى الأرض مسلوب الروح ضحية الهوى والضلال، وكان آباؤه في نهضتهم شهداء الحق والمروعة والعزة، يحبون الموت كما أحب أخلافهم الحياة، فعاش الأولون مشكورين وماتوا مذكورين. أما هؤلاء فماتوا مدحورين وعاشوا مغمورين منسيين.

الضعف من حمل
أمانات الحضارة

فلا شك أن العقيدة الصالحة التي تحيط بها وتحدها التقوى هي القوة الأولى لبناء المدنية، وضياؤها نذير بدمار المدنية.

ثم لا شك أن الإيمان القائم على صورة من العقائد الصالحة لل عمران يسير في ركابه عرف صالح وأدب صالح يستمد سطوته من العقيدة والإيمان. فهو القوة المنظمة والمخرجة للدور الحاسم في الحضارة. وقد جرت سنة الله على أن النفوس البشرية يستهويها المتاع والنجاح بما يهيئ لها من خيرات الأرض وطيباتها، فإذا تهيات استغنى الإنسان عن السكد وطفى وصار إلى عاقبة الأمم الأولى.

وإنه ليحزن لنا أن يكون ما نرى في الدنيا نذيراً بأمر الله ! فلا الأمم المتأخرة من المسلمين، ولا المتقدمة من المسيحيين واليهود، على شيء من التقوى. تذبذبت العقائد، وذهب العرف وساد حب الدنيا، وعم الترف، فهل جاء وعد الله؟ إنا نلرجو أن يتدارك الله هذا العمران بقوم خالص البطون يحبون الحق كما يحب المتحضرون المال والمتاع، ويرثون هذه الحضارة فيضيفون

هل جاء وعد الله؟

للعلم والعمران ، وَيُرْثُونَ إِلَى الدُّنْيَا ذَلِكَ الْعَقْلَ الضَّائِعَ وَالْإِيمَانَ الْقَوِيَّ .
وَسَيَجِدُ هَؤُلَاءِ فِي الدَّعْوَةِ الْمَحْمُودَةِ كَمَا وَجَدَ الْأَوَّلُونَ الرُّوحَ وَالْعَقْلَ وَالتَّقْوَى
وَالْهُدَى . نَعَمْ سَيَجِدُونَ الْهُدَى ذَلِكَ الَّذِي هَزَّتْ بِهِ قَرِيشٌ وَقَالَتْ « إِنْ تَتَّبِعْ
الْهُدَى مَعَكَ نَتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا » فَلَمَّا اتَّبَعُوهُ خُطِفُوا مِنْ أَرْضِهِمْ لَا لِلْهَوَانِ ،
وَلَكِنْ لِسَيَادَةِ الدُّنْيَا !

نظام جديد للعالم

صوت من أصوات الدعاة — فلتتحرر من النظريات القديمة — المدنية في رأى
(كبلنج) — وطأة العيش في عصور الانتقال — هل نستطيع وضع نظام
للمستقبل ؟ — ماذا بين أب جاهل وابن عالم ؟ — بين جاهل معاصر وجده
الفرعونى — لنحذر عقوبة الغرور — إلى نظام سلبى مؤقت — لا أمل في
شيء من الساسة وفي العامة — الأمل في القدرة العليا وفي مرونة الطبيعة
الإنسانية — فلتؤجل النظم المثالية المجردة — من تاريخ الاصطدام بين النمل
العليا والواقع السيء

صوت مع
أصوات الدعاة

سنحاول ما استطعنا أن نجد القواعد التي نظنها صالحة لنظام جديد يرضاه
الأفراد والطبقات والأمم ، غير مقيدن في رأينا بما يقوله الدعاة في جوانب
العالم ، وعاملين جهد الطاقة على التحرر فيما نبدى من رأى من العصبية لعنصر
أو مذهب من مذاهب الاجتماع . فإذا وُقِّقنا في هذا كل الخير ، وإذا أخفقنا
فإننا نرجو أن يكون هذا الجهد ضمن الجهود المماثلة التي يستعان بها على الوصول
إلى الحقيقة والهدى .

فلتتحرر من
النظريات القديمة

ولابد لنا من أن نروض تفكيرنا على التخلص من النظريات القديمة التي
كانت في عهدها حقائق صحيحة ، والتي جعلها تطور الحياة الاجتماعية ، وتقارب
الأوطان بتزايد سرعة النقل ضارّة بسير المدنية . ولا شك أن العالم يمرّ في
محنة غير مسبوقة النظير ؛ فإننا لا نعلم فيما بين أيدينا من تاريخ البشر مثل الذي
دهى العالم هذا الجيل . فليست غارات (التتر) التي لا يزال الناس يذكرونها قرينةً
للويل ، شيئاً مذكوراً بالنسبة إلى الدمار والقتل العام الذي استطاعته الأسلحة
الجوية ، والفناء الذي يستطيعه تسخير العلم الحديث ؛ فلا بد إذاً من نظام جديد
لهذا العالم يتداركه من سقطته ودماره .

فما هو هذا النظام ؟ ذلك ما يتساءل الناس عنه في كل مكان . ولعلنا إذا
ابتدأنا بحُثُنًا كما يتدنى الطبيب بالفحص عن أسباب العلة سلكنا الطريق
المستقيم إلى تكييفها ثم إلى علاجها .

فأول ما يخطر في البال هو التساؤل : ما الذي جعل مدينتنا الحديثة مع
ما وصل الناس إليه من علم ومعرفة مصحوبةً بهذا الشر المستطير ؟ !

يقول كيلنج « إن المدنية هي النقل » وهو قول يستحق التفكير ، فلننظر
إليه من هذه الناحية . فكم من القرون قضى الإنسان ليتعلم تسخير الحيوان في
النقل ؟ ثم كم من القرون مرت ليكتشف العجلة ويربط بينها وبين الحيوان ،
وليُشرع للسفينة شراعاً ويستخدم الريح ؟ وفي كل هذه القرون كم زادت
سرعة حركته ؟ فإذا قسنا ذلك بتسخير البخار في القطار والسفينة أدركنا
المفاجأة التي فوجئ بها العالم حين ظهور المدنية الحالية قبل أقل من قرن . فإذا
أضفنا إلى ذلك استخدام الكهرباء واكتشاف اللاسلكي والسيطرة على الجو
بالبطارات ، ونظرنا إلى تطور سرعة النقل في السنوات العشرين الأخيرة ،
أدركنا كذلك ما سيكون من فرق بين مدنية هذا الجيل ومدنية الجيل الآتي .
إن متوسط السرعة قبل مائة سنة لحركة الإنسان في الانتقال من مكان
إلى مكان لم تزد على ثلاثين ميلاً في اليوم ، ومتوسطها الآن قد وصل إلى أكثر
من مائتي ميل في الساعة ، ولا يزال يزداد باطراد .

المدنية في رأى
كيلنج

فإذا كانت المدنية هي النقل كما يقول (كيلنج) ، وإذا كانت السرعة هي
القياس لما بينها من فروق ، فإن ما بين مدينتنا ومدنية أبنائنا سيكون على
هذه النسبة .

فكما فصل البخار العالم القديم من العالم الحالى فسيفصل اللاسلكي ، وكذلك
هذه السرعة المتزايدة في الجو عالمنا من العالم المقبل .

ومن سوء حظّ هذا الجيل أن يكون صلة بين عالمين ، وأن يذهب ضحية الانتقال العنيف . وعلى ذلك هل نحن ، أهل هذا الجيل ، حقيقةً جديرون أن نضع نظاماً عالمياً لمن بعدنا ؟ قد يكون النظام الذي يرتضونه بعيداً عن تصوّرنا بُعد نظامنا عما قبل استخدام البخار .

ومن ناحية أخرى فإننا نحن الذين لا نزالُ نجهل نفوسنا فلا نصرفها ولا نملكها ، ولا نحيط إلا بقليل مما أودعَ فيها من القوى الذهنية والقوى الروحية ، لن نستطيع وضع نظام للعالم وهو ليس من صنعنا ؛ فالإنسان فيه حيوانٌ أوتيَ من القدرة ما يسمحُ له بالتصرف في نطاق محدود .

لقد سار العالم آلاف السنين على وتيرةٍ واحدة . كانت الحضارة تتقدم ببطء وتنتقل من وطن إلى وطن ، وفي كل نقلة تنطوي مئات السنين قبل أن تدبّل ، وتنقضي مئات أخرى قبل أن تردهر في قوم جُدُدٍ ، فكان العقل البشري مستطيعاً في نطاق قدرته أن يسايرها وأن يسيطر إلى حدٍ كبير على مُقدّرات مدنيته ؛ فلما تفجّرت فجأةً ينابيع العلم الحديث زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت أثقالها فبهت الإنسان وقال ما لها ؟

ففي جيل واحد انقلب وجهها ، وتناكر القديم والحديث .

ولنضرب لذلك مثلاً : شيخ في قرية بجوار (طيبة) في صعيد مصر يعيش كما عاش آباؤه في مصر القديمة ، بعث في أوائل هذا القرن بابنه إلى أمريكا فنشأ هناك وتزوَّج ورجع بأسرته إلى قريته ، فوجد أباه حياً يفلح أرضه بمحراثه الفرعونى ، ويأوى إلى بيت لا يزال على طراز العهد الهكسوسى ، ويفكر كما كانوا يفكرون أيام خوفو ؛ لاشك أن الابن وأباه حين التقيا تناكرا ، فكأنما هبط الابن من كوكبٍ آخر ، فلن يستطيعا أن يتعاشرا ولا أن يتعاونوا على شيء

وطأة الميش في
عصور الانتقال

هل نستطيع
نحن وضع نظام
للمستقبل ؟

ماذا بين أب
جاهل وابن عالم ؟

ولنفرض أن الله بعث في تلك الساعة أحد سكان (طيبة) من قبره . بعث شيخ بلد من عهد (رمسيس) من أجدادها ، ليشهد الحفل العائليّ لابن العائد من أمريكا ؛ فهل يجدُّ الناس أن شيخ البلد الذي بعثه الله من قبره بعد غياب ثلاثة آلاف سنة ، أقرب إلى شيخ القرية ، أم إلى ذلك الابن الذي ولد في القرن العشرين وغاب ثلاثين سنة فقط ؟

بين جاهل
معاصر وجده
الفرهوني

سيجدُّ شهودُ الحفل أن الجدَّ الفرعوني أقرب إلى قلب الأب وعقله وطراز حياته ، من ذلك المولود فيهم ، القادم عليهم من العالم الجديد . ثلاثون سنة فعلتْ بالعائلة البشرية ما لم يفعله ثلاثون قرناً ! وهي لم تفعل ذلك في مصر وحدها بل في العالم كله . قرن واحد بدّل وجه الأرض كما يبده الزلزال وفصلنا عن ماضينا بعنفٍ ، وكأنا نقلنا إلى كوكب آخر . وإذا فهل حقيقةً نستطيع ، نحن ضحايا هذا الانتقال ، نحن الذين ملكنا الآلة وملكنا ، وأصبحنا نسيرها إلى مجهول وتطوينا في ثناياها إلى مجهول أعظم ، هل نحن حقيقةً جديرون بوضع نظام لعالم المستقبل ؟

إذا ظننا ذلك فإنني أخشى عقوبة الغرور . وقد يكون من الخير والصواب أن نكتفي فيما نسميه « النظام الجديد » بعمل سَلْبٍ ، هو نظامٌ نمتنع فيه بتاتاً عن تسليط ما بأيدينا من قُوَى للتدمير والتخريب ، وعن مضاعفة العوامل التي اضطرب لها وجودنا كله .

لنحذر عقوبة
الغرور

يجب أن يكون هدفنا فيما نسميه « النظام الجديد » تخفيف ويلات عهد الانتقال .

إلى نظام سلبي
مؤقت

لقد شاهدنا الحرب العامة الماضية ، وسمعنا وتحمسنا لأحداث عن نُظُم جديدة لعالم جديد . ونحن اليوم نشهد مرة أخرى حرباً أعظم وحديثاً أشهى ولكن هل بين العقل الذي سيطر على أداة الدمار الماضية أربع سنين ، من ١٩١٤ - ١٩١٨ والعقل الذي سيطر عليها ، أكثر من أربع سنين من

١٩٣٩ - ١٩٤٥ فرق؟ هو هو العقل العاجزُ أسيرُ الماضي ، غلبته الآلة والمادة
ومدنية النقل المتزايدة السرعة ، فحار فيها وناءً بحملها .

أقبلنا شبناناً على أقوالٍ عن عالم جديد فتحمسنا لها ، فإذا سمعناها اليوم بعد
تجربة ، ملأنا خوفاً وتشاؤماً ، لِمَا ظهر لنا من الكذب والعجز .

مشت الحضارة البشرية القديمة في تطورٍ بطيء مئآت القرون فهضمها
العقل البشري ، أما الحضارة الحديثة فستحتاج إلى وقت طويل ليَهضمها
العقلُ البشري .

لا أمل في شيوخ
الساسة والعامة
الأمل في القدرة
العليا وفي مرونة
الطبيعة الإنسانية

إنني قليلُ الرجاء في شيوخ الساسة وفي نُضوج العامة لتحمل المسئوليات
الجسام المتجددة ، ولكنني عظيم الإيمان بالقدرة العليا التي تُديرُ هذا العالم !
ففي الطبيعة نفسها كلُّ الرجاء ، فقد خُلِقَ الإنسان وفيه من القدرة على الإفاقة
من الصدمة ، وله من المصانة والمحكمة والتطور ما يضمن بقاء النوع واستمرار
رُقيته ، وسيكتشف الإنسان بغيرِة حب البقاء بعد تجاربٍ مروعة قاسية
نظاماً عالمياً مناسباً متجدداً يسير العصر الآلي ، عصر السرعة المتزايدة ، أقول
نظاماً مناسباً متجدداً ؛ إذ ليس من الصواب في شيء أن نحاول إملاء نظامٍ
كاملٍ ثابتٍ لا يتغير ، فالأشكال والأوضاع والمستحدثات كلها تحمل في
طبيعتها التغير بل الزوال والفناء .

وأكثرُ ما يقع فيه الإنسان من كوارث هو عقوبة الغرور والجهل ،
وأكثرُ ما يصيبه من شرٍّ هو ردُّ الفعل لافترائه وإدعائه .

فلنؤجل النظم
الثالية المجردة

فإذا حاولنا أن نعطي الناس نظاماً عالمياً مثالياً ، وتجاهلنا غرائزَ حب
الظهور والسيطرة والتعالي ، مما هو كامنٌ في صميم النفس الإنسانية ، فإننا
نحاول إقامة هذا النظام على بُركانٍ من الغرائز الحيوانية المتفجرة الجامحة .
وإذا فكل نظام عالمي لا يُرضي الغرائز البشرية ، ولا يُعين على توجيه الدوافع

الإنسانية ، هو نظامٌ تقضى عليه الغرائزُ نفسها ، أو تتخذهُ وسيلةً لإشباع شهواتها : فن شأن الطبيعة الإنسانية أن تقلب كلَّ نظامٍ مثاليٍّ وأن تكيفه ، وإلا أصبح بالنسبة لها نظاماً لا تطيقه .

وليس أدلَّ على ذلك من تاريخ المذاهب والأديان الداعية إلى فلسفة سامية . خذ مثلاً دعوتين بينهما ألفا سنة : المسيحية والشيوعية ، فإذا صنعت بهما غرائز الإنسان الفطرية الحيوانية ؟ ألم تُرد كلُّ دعوةٍ منها أن ترسم نظاماً مثالياً سامياً ؟ فإذا بقي من المثل الأعلى فيها ؟ بقيت تلك المأساة التاريخية الطويلة ! فقد سُفكت باسم المسيحية وفي سبيل المسيحية التي تحرّم الحرب دماءٌ أغزُر مما سُفك في سبيل أية دعوةٍ أخرى في تاريخ البشرية . بل إن القارة الأوربية التي هي مقر المسيحية ، هي وكر الحروب والدمار على طول الألف الأخيرة من السنين .

من تاريخ
الاصطدام بين
المثل العليا
والواقع السيئ

ماذا بقي من وصايا المسيح الجميلة الرحمة المتواضعة ؟ ألم تصنعها غرائز القلب والقهر والزَّهْو والاستعلاء صُنْعَهَا ، وتستخدمها في إشباع النوازع البشرية ؟

كذلك الدعوة الشيوعية ليست حديثة ، فهي أخت (المزدكية) الفارسية ونسخة منها . دمرت المزدكية فارسَ فيما مضى ، وسُفك في سبيل الشيوعية الحديثة من الدماء ما لم يُسْفَك من قبل في سبيل النهب والسلب في قومٍ من الأقوام ؛ ومع ذلك فإذا بقي من الشيوعية المثالية ؟

الظاهر أن النظام المثالي الكامل خيالٌ في هذه الدنيا ؛ فإن الطبيعة البشرية تأباه . فهل يحسنُ بنا أن نجري وراءه أو نلجّ في طلبه ؟ أم الأولى بنا أن نقنع بنظام دنيوى يؤدّى بين الطوائف والشعوب وظيفة أشبه بوظيفة القانون العادى بين الأفراد ، فيقتص من أطراف الشر ، ويُديم السَّلم ويحصّر

هكذا رأينا
شخصاً قبالاً

أذى الحرب ويوجه الفرائز وجهة ترضاها ، فتشبع شهواتها من غير طريق
المُدُون ؟ نظام يبسر للجميع العيش ، وتسند المصلحة المشتركة للفرد والجماعة
والشعوب في عالم جعل منه النقل السريع وطننا واحداً .

وبعبارة أخرى : نظام هو مجموعة قواعد عامة تصبح عرفاً عاماً يرضاه
الناس ولا يعصونه .

الواجب قبل الحق

شغل المفكرين في العالم — جمعية إنجليزية تضع دستورا لحقوق الإنسان —
استفتاء عظيمين من مفكرى الشرق — رأى غاندى — غضب ويلز على
غاندى — رأى نهرو — مع رأى غاندى — فلنجرب طريقه غاندى —
طريقة مجربة في الإصلاح — تحويل التصور البشرى — إعلاء الغرائز
وتحويلها — تربية بطرد بها روح الأديان

قبل انتهاء الحرب الأخيرة وبعدها ، بل وقبل نشوبها ، أقبل كثيرون من
المفكرين المخلصين في العالم ، فرادى وجماعات ، على التفكير في نظام يرضاه
الناس وينقذهم من مآسيهم وآلامهم التي أوقعتهم فيها أسباب الاضطراب العالمى
التي استعرضناها في الباب السابق .

شغل المفكرين
في العالم

ومن بين الجماعات الكبيرة التي اهتمت بذلك جماعة تألفت من أهل
الفضل في (لندرة) يرأسها المحامى الشهير (اللورد سنكى) ويقوم بدعوتها
الكاتب المعروف (ه. ج. ويلز) .

جمعية إنجليزية
تضع دستورا
لحقوق الإنسان

وقد وضعت هذه الجماعة بعد مناقشات ومكاتبات مشروعا أعلنت فيه
حقوق الإنسان ، واقرحت أن يكون دستور العالم بعد الحرب الأخيرة .

وقد تضمن هذا الدستور إحدى عشرة مادة ، هى في نظر الجماعة حقوق
الإنسان التي يجب أن لا تعترضها شريعة ولا عرف ولا أى نظام محلى لقبيلة
من القبائل أو شعب من الشعوب ؛ فهى القانون الأساسى الذى يجب كل
تشريع مخالف له .

وأهم هذه المواد تتعلق بجرمة الملك ، وحق التعلم ، وحرية العقيدة ،
والحرية الشخصية ، وحق العمل ، وحق القاصر في حماية الجماعة ، الخ ...

وقد بعثت هذه الجماعة بعشرونها لرجلين عظيمين من مفكرى الشرق :
 هما المهاتما (غاندى) والزعيم الهندى (جواهر لال نهرو) تسأل رأيهما ، فأجاب
 غاندى بما يأتى ، قال :

« ماهى النتيجة العملية لإعلان هذه الحقوق ؟ ومن ذا الذى يراها ويحررها ؟
 وسواء أ كنتم تقصّدون إلى الدعاية وحدها أم إلى تنوير الرأى العام العالمى
 فقد ابتدأتم من الطرف المخطئ . . . وإنى أقترح عليكم وأرى أن الصواب هو فى
 أن تبتدئوا بإعلان « واجبات الإنسان » . ولا شك عندئذ أن الحقوق ستتبع
 كما يتبع الربيع الشتاء .

إنى أكتب إليكم عن تجربة وخبرة ، فقد بدأت حياتى مهتما بحقوقى ،
 وكان جهدى منصرفاً لتقريرها والحصول عليها ، وسرعان ما أدركت أن لاحق
 لى حتى قبل زوجتى . فأخذت أنظر فى واجباتى وما على قبل زوجتى وولدى
 وإخوانى والمجتمع فأديتها ، وأنا اليوم أجد نفسى ولى من الحقوق ما ليس
 لرجل آخر أعرفه فى هذا العالم .

وقد أثار جواب غاندى غضب (ويلز) فحمل عليه حملة منكرة ، وعده
 إباء منه للتعاون ، وتمشياً مع مذهبه السلبى ، واتهم غاندى بالتأخر وبعدم إدراك
 ضرورة العصر .

ولكن هل أنصف ويلز غاندى ؟ ثم أليس فى كلام غاندى ما يستحق
 النظر والتفكير ؟ ذلك ما سنبحثه .

أما (جواهر لال نهرو) فقد أرضى جوابه ويلز ، فقال عنه : إنه عملى وإنه
 يستحق عظيم الاهتمام ولو أنه خالفه فى أمور غير جوهرية .
 يقول نهرو : « سمع الناس كثيراً مع الإعجاب موثيق وبيانات أعلنت
 حقوق الإنسان واتهمت إلى لا شىء ، وأحقها بالذكر ميثاق (بريان - كيلوج)
 الذى حرّم الحرب .

ولقد نظرت في بيانكم عن حقوق الإنسان فأزعجني أن لا أجد فيه ما يَهْدِي إلى كيفية تحقيقه .

أنا لا أقصد التفاصيل ، بل أقصد الأصول التي يقام على قواعدها العالم اجتماعياً واقتصادياً . وإذا كان من الحق ، وهو عندي الحق ، أن مآسى العالم الحالية ترجع قبل كل شيء إلى فساد نظامه السياسي والاقتصادي ، فلا بد من تغيير هذا النظام كي يستطيع تطبيق ما تريده من الحقوق التي أعلنتوها إن بيانكم ، يا مستر ويلز ، ليس قابلاً للتحقيق بحال من الأحوال مادام النظام الاستعماري والرأسمالي يسودان العالم . تقولون إن لكل إنسان كذا وكذا من الحقوق ، وهو كذلك ، ولكن أنى لهذا الإنسان أن يصل إلى حقوقه تحت النظام الرأسمالي ؟ ثم أنى له أن يتمتع بشيء منها مادامت أمة أو طبقة تسيطر على أخرى وتسخرها ؟ إن الطريق إلى الخلاص هو الاشتراكية ، وأن يقوم النظام العالمي الجديد على أصولها .

ذلك هو جواب (جواهر لال نهرو) وهو من الشخصيات العالمية المحترمة وسنعود إلى ما يشكو منه في الفصل المقبل . أما جواب غاندي فإنه كما قلت ، رغم اعتراضات ويلز ، يستحق النظر والتفكير .

حقوق الإنسان كثيراً ما أعلنت ، وكثيراً ما انتهكت . ومادام الأقوياء لا يرتدعون بداعي من التربية والعرف والوجدان ، فإنها تبقى حيث هي غير قابلة للتحقيق .

مع رأى غاندي

ويصح لنا أن نجرب تربية جديدة وطريقة جديدة ، فنتخذ الواجبات أساس النظام الجديد ؛ فبدلاً أن نحاول المساواة بين الناس في الحقوق ، نقيم هذه المساواة على أساس الواجب ؛ فربما كان ذلك أفعالاً في ردِّ العدوان وفي احترام حق الغير .

فلنجرب طريقة غاندي

فلو أننا عودنا الناس بالتربية إكرام القائم على واجبه أكثر من المطالب

بحقّه ، لجمعنا الواجب مصدر العلاقات الأدبية والاجتماعية وأنشأنا نظاماً جديداً
لعالم أحسن من عالمنا الحالي ، لأن التربية التي تجعل القيام على الواجب غاية
الإنسان الراقى ، تنتهى باحترام حق الغير احتراماً أحفظ وأنفع للحقوق من
كل قوة تُستخدم لكسبها أو المحافظة عليها ، ولعل هذه الطريقة في التربية
هى التى تتناسب مع تاريخ الإصلاح البشرى ؛ فهى طريقة الأنبياء والمصلحين
الذين وجهوا همهم إلى تعريف الناس بواجباتهم . فليس من المتعسر الرجوع
إليها ولا خلق ذهنية جديدة أساسها فضل من يؤذون واجبهم على
سائر الناس .

طريقة مجربة في
الإصلاح

حرّم الأنبياء القتل والسرقة والغدر والكذب ، فشرعوا بذلك واجبات
أساسها النهي . فإذا أخذنا في التعرف إلى ما حرّمه على أنفسنا ، وجعلنا هذه
الحُرمة عامة ودولية ، كان ذلك عملاً إيجابياً حاسماً في سبيل إقامة نظام جديد ،
ولو كان ظاهره دعوى سلبية أساسها النهي والتزام الواجب .

فمثلاً لو أن الناس أدّبوا وعلموا أن لا يفترقوا بين القتل والقتال ، لأن
الواجب يحتم على الإنسان المهدّب المحترم أن يمتنع عن إزهاق أرواح الناس لغير
جريمة ارتكبوها ، وبغير قانون وقاض يقضى فيها ، ولو صار الامتناع عن
القتل في الحرب كالامتناع عن القتل في غير الحرب واجباً ، من يتعداه يُعتبر
مجرماً ، لكانت هذه التربية وهذا الأدب والعرف أفعال في منع الحروب من
كل الموائيق والنظم .

ولو سادت هذه التربية لكانت وظيفة الجندي على أحسن صورها كوظيفة
الجلاد في نظر العامة سواء بسواء .

تحويل التصور
البشرى

نعم إن تحويل التصور البشرى للأمور عمل شاق ، ولكن ألم يتبدل في
جيل أو جيلين تصور الناس لأمر كثيرة بدلاً تاماً ؟ فلم لا يستطيع بالتربية

والتدريب خُلِقَ عُرِفَ عام عالميٍّ أساسه حرمة الواجب في كل الأحوال والظروف ؟.

ولعله من المتيسر أن نوجه الغرائز البشرية التي نشكو منها في إفساد النظم المثالية وجهة الفخر بأداء الواجب .

فالإنسان يزهُو بإتقاذ غريق أو التعرُّض للخطر في إطفاء حريق . فإذا صار العرف أن هذا العمل هو الذي تُستَحَقُّ عليه أعظمُ ألقاب الشرف ، وأن الامتناع عن الأذى والاستشهاد في ذلك هو البطولة الكاملة ، لاستخدمنا غرائز الاستعلاء والظهور في الخير العام .

ولم لا يخلد ذكرُ الذين ظهرت آيات مروءتهم في تأدية واجبهم بدلَ الذين ظهرت قدرتهم على الاقتراس والفتك بالغير ؟ فقد نصل عن طريق تعليم الواجب وتقديسه إلى إقامة صرح الحق وتخليده ، ونكون قد اصطالحنا مع الغرائز الفطرية ، فنُعَدِّل عن كِبَتِها واستفزازها إلى توجيهها واستخدامها في تدعيم النظام الجديد .

ولا أظن أحداً من جيلنا الذين شهدوا هذه الحرب والتي قبلها يمكنه أن يتصور نظاماً جديداً يستحق البقاء لا يحرم الحرب تحريماً باتاً ... فهل لذلك من سبيل أصلح من سبيل الأنبياء : سبيل التحريم عن طريق تعليم الواجب ؟ فإذا لم نعلم الناس ونُرَبِّهم على احتقار القتال احتقارهم للقتل ، فأتى لنا أن نكفل السلم بتجريد أُم من السلاح أو وضع أُم مسلحة حُرَّاساً على السلم ؟ ومن ذا الذي يضمن أن لا يقتل الحراس طمعاً فيما أُثْمِنُوا عليه إذا لم تكفل ذلك التربية التي أساسها تقديس الواجب .

ليست هذه التربية مستحيلة ولا هي خيالا ؛ فإن في حياتنا الأولية كثيراً من الفخر بضبط النفس والحرمان ، وتاريخ المروءة تاريخ طويل يكاد يلازم

إعلاء الغرائز
وتحويلها

الناس في كل جيل ، وهذه المروءة بما تنطوى عليه من نكران الذات تعلّمها الناس بالاجتماع وبالدين ، فصارت فطرية لأن الغرائز التي ترضيها المروءة هي ذات الغرائز التي يرضيها العدوان .

فحين كان نفرُ الناس بالكرم ، كان إشباع غريزة حب الظهور في البذل والعطاء ، ولما صار نفرهم بالأثاث والسيارات والمقتنيات ، صار إشباع هذه الشهوة بالأثرة والأنانية .

ولو علمنا أولادنا أن زهّوهم وإعجابهم ليس في أن يلبسوا ثوباً جديداً في العيد ، حين لا يجد أولاد عمومتهم أو جيرانهم ثوباً مثله ، وعودناهم أن زهّوهم وظهورهم في أن يمتنعوا مختارين عن لبسه تأسيّاً بأهلهم ، فإن غريزة حب الظهور تتدرب على إشباع غرضها بالامتناع ، وتجد حظّها في أداء الواجب .

ولن يكون هذا جديداً في حياة الإنسان ، لأنه يتناسب مع رُوح الأديان التي سيطرت على تاريخ البشرية الطويل .

إن فطرة الناس واحدة ومظاهرها متعددة ، فالنفس البشرية تشكّيف حسب مقتضيات التربية والعرف العام لتُرضى السكّمين من الغرائز فيها . ولا سبيل لإنكار الغرائز الفطرية لمن يفكّرون في تنظيم العالم . ونهيجُ الأنبياء الذين وجّهوا الغرائز وجهة ترضى المروءة والمصلحة العامة ، هو النهج المستقيم . فإذا نحن اليوم بدّل أن نعلن حقوق الإنسان ، أعلنّا واجباته ، وألبسناها حُللاً من الحرمة والتقديس ، فإننا قد نوفّق إلى نظام صالح جديد . وليكن القانون الأساسيّ لهذا النظام متضمناً واجبات الإنسان نحو أهل بيته وجيرانه ووطنه وجنّسه والمخلوقات الأخرى . وقد يكون ذلك أبقي للعرف العام ، وأثبت على ممر الأيام .

علل النظام الحالى

اجماع على فساد الرأسمالية الحالية — خطر رأسمالية الآلة — الآلات بركات
كثيرة اللغات — مادية لاسند لها من الروح — مشكلة التعطل في الأمم
الرأسمالية — رجال الكنيسة الإنجيلية يتحولون إلى اليسار — إلى التوازن
الإسلامى — الاستثمار الحديث — ويلات عالمية — شاهد منهم —
شاهد من العالم الجديد .

يقول (نهرى) : إن سبب فساد العالم يرجع في معظمه إلى فساد نظامه
الاقتصادى والسياسى الحالى ، وإنه لا سبيل إلى الإصلاح ما دامت الرأسمالية
تستخر طبقة لطبقة ، والاستثمار يستخر أمة لأمة .

وقد وافقه (ويلز) ، وأظن أن أكثر المفكرين اليوم على هذا رأى .
فالرأسمالية رغم أنها كلمة استعملت حتى ابتذلت ، لا تزال تعبّر عن نظام يقوم
على الربا ويهْدِي إلى الترف والإسراف .

وهي وإن كانت باستنادها إلى حقوق الملكية الفردية قديمة العهد ، فإنها
تسكى اليوم على ملكية الآلة للعمل .

وهي بالانقلاب الصناعى الكبير الذى نشأ عن استخدام البخار والكهرباء
حديثه بعيدة العور في حياة الإنسان ونظام المجتمع . بل تكاد الرأسمالية
الحديثة تكون شيئاً آخر غير نظام الملكية القديمة في آثارها ومظاهرها ،
وإلى هذه الرأسمالية ينسب الاشتراكيون كل مساوئ النظام العالمى الحالى
ويعدون العطالة والبؤس والترف والإسراف من مظالمها .

لا شك أن ملكية الآلة ، وحسن استخدامها ، ودوام التحسين في
إنتاجها ، كل ذلك يعمل باستمرار للاستغناء عن عمل الصانع والزارع .

فبدل أن تكون وفرة الإنتاج وسهولته بركة من بركات عصر البخار

اجماع على فساد
الرأسمالية الحالية

خطر رأسمالية
الآلة

والكهرباء ، وبدل أن يكون استخدام الآلة والقوة سببا في بهجة الحياة والسعة
في أوقات الفراغ ، انقلب الخير في ظل النظام الاقتصادي الحديث إلى شر
مستطير ، وحُرِّم الكادحون من رأس مالهم وهو العمل والجزاء المناسب له ،
واختص « الممولون » بمجهود محدود وثمرات وفيرة ، فارتفعوا فيه إلى مستوى
الأمرء في العهد الإقطاعي ، وسارت الكثرة تنظر إلى مباحج الحياة ولا تشترك
فيها ، بل فقدت طوائف المتعطلين والذين على حافة التعطل هناءة العيش وهناءة
الإيمان ، في ضوضاء الآلة ، وكان الدين من قبل يُمدُّ المُعْوزِينَ بالسَّلَوى
والمَوْضُ في الدار الأخرى ، أما الآن فقد ضعفَت سيطرة الدين وذهب
مدده من العزاء .

نعم كانت الأديان تخفف من آثار الملكية بدعوتها القوية إلى الزهد
واشتراك المحرومين في ثمرات الكسب بقوة القانون ، كما فعلت الديانة المحمدية ،
أو بتحريم ملكوت السماء على الأغنياء كما فعلت المسيحية .

وكأنما النظام الرأسمالي الحديث ، وقد سلب السند المعنوي والروحي ،
يتجه بعنف نحو الاثرة والاستزادة من الترف والإسراف ، فيقذف بلا رحمة
في هاوية التعطل فريقا ، ويسخر فريقا آخر . وليس أدل على ما وصل إليه
الخطر من أن المتعطلين في بريطانيا قد تجاوزوا قبل الحرب عدة ملايين ،
وبريطانيا هذه هي سوق الأموال في العالم ومن أهم مراكزه الصناعية ، وتنفرد
فوق ذلك بملك لم يؤت له بلد في العالم ، تُجَبَّى إليها الأموال من القارات الخمس
ومن الأبيض والأسود والأصفر .

بريطانيا المحسودة تنوء بعبء النظام الاقتصادي الرأسمالي ! وليس أدل
كذلك على تداعي هذا النظام من أن قادة الكنيسة الذين ظلوا سند العناصر
المحافظة جيلا بعد جيل أخذوا يتحولون من اليمين إلى اليسار يُتَّقُونَ أن يغمروهم

الآلات بركات
كثيرة اللعنات

مادية لا سند لها
من الروح

مشكلة التعطل
في الأمم الرأسمالية

رجال الكنيسة
الإنجيلية يتحولون
إلى اليسار

سبل الفتنة كما غمر رجال الكنيسة الروسية ، فنزعوا إلى التأويل أو رجعوا إلى المسيحية الأولى .

وآخر ما علمنا في هذا الشأن قرار مؤتمر ملفرن Melvern للكنيسة الإنجيلية ، وهي قرارات لو نشرت في أول هذا القرن لظن أنها مما أوحى به (كارل ماركس) أو بعض تلاميذه . . . وكما أن هذا دليل على اتجاه الأفكار فإنه كذلك دليل على حصافة رجال الكنيسة في الغرب ، وإنا لنترجو أن يتعظ العلماء وقادة الرأي في البلاد الإسلامية ؛ فإن شريعتهم هي الشريعة التي وُفِّقت كل التوفيق في تناولها هذه المشكلة المعقدة .

فلا بد للمسلمين الذين اندفعوا على غير هدى إلى تقليد الغرب من الرجوع إلى الإخاء والزكاة والتوازن بين الطبقات ؛ ذلك التوازن الذي أقامته شريعتهم على أساس أن البرّ حق معلوم في أموال الأغنياء ، وعلى ترجيح المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، وعلى مسئولية الإمام وسلطته الواسعة في النظر إلى حاجات المسلمين . وليس المقام مقام استرسال في نواحي الشكوى من النظام الحالي ، فالصيحة تتردد من أوائل هذا القرن في جوانب العالم كله ، والفتن يأخذ بعضها برقب بعض ، فلا بد إذاً من نظام اقتصادي جديد يحل محل النظام الحالي .

إلى التوازن
الإسلامي

ولتُرجع النظر إلى العنصر الثاني لفساد المجتمع الحالي في رأى (نهر) وهو الاستثمار ؛ وإذا كانت الرأسمالية قديمة ولها من الألفه بها سند ؛ فإن الاستثمار حديث ، والفطرة تأباه وتبغضه ، وقد عملت كل الأمم في كل العصور للخلاص من سيطرة الأجنبي .

الاستثمار
الحديث

وإذا قلنا إن الاستثمار حادث فليس معنى ذلك أن الناس والملوك لم يتقاتلوا على الأرض وملكيتهما ، أو على الملك وسعته ؛ فذلك قديم ، وإنما الجديد في

الأمر هو ذلك الطغيان العام باسم التّمدّين ، وقوامة الأمم الأوربية على العناصر الملوّنة كما يقولون .

سادت الأقوام الأوربية الأصل الدنيا ، وأصبحت الكرة الأرضية كلها في متناول الاستثمار الحديث بتطور وسائل النقل والسرعة .

وكان فيما مضى زحف (تخوّمس) من النيل للفرات غير مسبوق ، وسير الإسكندر من الفرات إلى السند أعجوبة التاريخ . كانت شرور الفتح والنهب محدودة وطرائق الأثرة والاستغلال أولية .

أما اليوم فويلات الاستثمار عالمية وآثاره تشمل الكرة الأرضية . وقد أنصف كثير من الكتّاب الغربيين أهل الشرق المغلوبين ، ورثوا لحالهم قبل الحرب الماضية ، ولعلمهم اليوم يرثون لما أصاب الغازين أنفسهم ؛ فهم يستحقون كذلك الرثاء .

قال الكاتب الإنجليزي المشهور (سدنى لو) سنة ١٩١٢ يصف الاستثمار :
« ما أشبه غالب الدول الأوربية في سلوكها هذا الذى ما برحت تسلكه منذ عدة سنوات إزاء الأمم الشرقية بعصاة من اللصوص يهبطون على الحلال الآمنة فيُخَنُون فيها ، ثم ينقلبون بالغنائم والأسلاب . وما بال هذه الدول الغربية بعملها هذا مؤيدة للدعوى الباطلة بأن القوى الشاكي السلاح يحق له الانقضاض على الضعيف الأعزل ، وآتية بالبرهان القاطع على أن مكارم الأخلاق والآداب الاجتماعية لا شأن لها ألبتة حيال القوة المسلحة ! ففي خلال عشرين سنة ثارت نائرة الاستثمار فى أوروبا ، وهبت عواصف الحضارة المادية الهوجاء فقوّضت الآداب والحقوق الدولية تقويضا » .

ذلك ما قاله (سدنى لو) قبل الحرب العامة الماضية ، وقد توالى حملات الاستثمار على العالم الشرقى آخذا بعضها برقاب بعض .

لو أن « لو » كتب فى الاستثمار بعد الحربين العالميتين لكان رثاؤه

للمستعمرين الغربيين أكثر من رثائه للمغلوبين الشرقيين.

شاهد من العالم
الجديد

وقد دافع كذلك عن الشرقيين بعد الحرب العامة الأولى الكاتب الأمريكي (لوثر وب ستودارد) في كتاب «حاضر العالم الإسلامي»^(١) بهذه العبارة: «إن مبادئ الحرية التي سادت في الغرب ونُودِيَ بها غالب القرن التاسع عشر قد هبَّت عليها ريح هَوْجاء من المطامع السياسية والاقتصادية فزقتها شرٌّ مُمزَّق، وُبَدِّتْ صورها كل مُبَدَّد، إذ أخذ التزاحم يشتد والتنازع يُوغِر قلوب الدول الغربية، حتى طَفَح السكَّيل فاشتعلت الحرب السكونية العظمى. واشتدَّ نهم أوربا وجشعها للتوسع في الفتح والاستعمار ومناطق السيطرة وثقل الامتيازات واحتياز الأسواق الاقتصادية اشتدادا وحشيا غير مسبوق المثل». فلو أن (ستودارد) كتب بعد أن وقعت الحرب العامة الثانية وشهد ويلاتها، أما كان يرثى هو أيضا للغالبين كما رثى لحال المغلوبين؟

إن السيطرة الاستعمارية على العالم باسم الحضارة إنما تسمى لإشباع شهوات الرأسمالية الحديثة في الأسواق والمواد الخام. وقد وضعت الرأسمالية والاستعمار متساندين أسس هذا الاضطراب العالمي الذي قد يقضى على الحضارة كلها.

فلا بد، إذاً من نظامٍ اقتصاديٍّ وسياسيٍّ جديد. وحين يقول (نهر) ويوافق (ويلز) إن النظام القائم على الرأسمالية والاستعمار والذي يعيش في ظل سيطرة طبقة على طبقة، وأمة على أمة، ليس نظاماً صالحاً للبقاء لا يجدان من العقلاء من يخالفهما، وإنما يأتي الخلاف حين يُقترح العلاج.

(١) عربي الأستاذ عجاج نويهض، وعلق عليه تعليقات مستفيضة الأمير شكيب أرسلان.

مقترحات

البدء بتقرير قواعد بسيطة — يجب تطور الرأسمالية والاستعمار — عالم واحد لا تتجزأ السلم فيه — هيئة عليا عالمية لقيادة مشتركة — التدرج إلى حكومة عالمية — البدء في قلوب الطفولة — من التربية القومية إلى التربية العالمية — التدريب على الفضب للمصلحة العالمية — فلنتعهد النواة الصالحة في « هيئة الأمم المتحدة » .

مما تقدم يتضح أن رسم نظام كامل لحياة عالمية سعيدة ، أو وضع تفصيلات لنواحي هذا النظام ، ليس من شأنه أن يعين على قبوله أو كماله ، فنحن لذلك أميلُ إلى البدء بتقرير أسس وقواعد بسيطة يقوم بعضها على « الامتناع » ومعرفة الواجب وأدائه .

وقد وضح كذلك أن النظم المؤيدة للاستعمار والرأسمالية الحديثة قد تطورت من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين بكيفية أحدثت أثرا بالغاً في تقسيم الناس إلى أم مسيطرة مستغلة ، وأم مغلوبة مسلوكة ، كما فرقت الجماعات في هذه الأمم الغالبة والمغلوبة إلى طوائف وطبقات حاكمة متعادية . وقد أدت هذه النظم دورها في تجارب البشر ، ولا بد لها من التطور لمسايرة عهد السرعة والإنتاج الآلى .

فهذا التطور من شأنه أن يمهّد السبيل لعهد جديد أساسه الإخاء العام ، وهدفه التعاون على الخير والبر .

وعالمنا الجديد ، وقد أصبح في حيز الإمكان الطواف حوله كله في يوم أو ليلة ، واتصلت أطرافه باللاسلكى والراديو في لحظة ، عالم واحد لا تتجزأ السلم فيه ، ولا سبيل لسعادة قوم منه على بؤس الآخرين ، ولا بد له أن ينتهى

البدء بتقرير
قواعد بسيطة

تطور الرأسمالية
والاستعمار
واجب

عالم واحد
لا تتجزأ فيه

إلى قبول هيئة عليا لقيادة مشتركة كما قبلت الشعوب هيئات منها لقيادتها، فتولد عندئذ الحكومة العالمية التي نرى فوائدها في نظام « الأمم المتحدة »، فتكون لها سلطات تنفيذية وتشريعية وقضائية يُقرُّ الناس شرعيتها كما يقرون شرعية حكوماتهم القومية، ويدينون لها بولاء مماثل لولائهم لدولهم.

هيئة عليا عالمية
لقيادة مشتركة

هذه الهيئة العالمية التي تتدرج إلى مقام الحكومة العالمية تقوم على أصول قليلة عامة تستضيء بها في رسم الخطط العامة لسياسة الدنيا. على أن تكون هذه القواعد العامة بسيطة ومقبولة بالفطرة من الناس على مختلف أجناسهم وألوانهم وعقائدهم.

التدرج إلى
حكومة عالمية

فمثلا تكون مبادئ المساواة والإخاء بعض قواعدها، فيكون ما ترسم للناس مقيدا بحقوق المساواة وحقوق الإخاء.

ومثلا يكون فيها حق العيش وتأمين الحاجة حقا طبيعيا يهدف إليه الجميع، كحق الأمن يسعى للمحافظة عليه الجميع، فيكون إطعام الناس، وتأمينهم من الخوف واجبا على كل الناس.

مثل هذه القواعد الفطرية، إذا دُرِّبَ الناس على تقديسها وتقديسهم لأديانهم وأوطانهم، ولقنوها في طفولتهم وهم في أحضان أمهاتهم وحين تنشئتهم في المدارس، تنتهي حتما إلى إقامة صرح نظام عالمي عليها، موطن القواعد ثابت الأركان.

البدء في قلوب
الطفولة

وإذا اتفقت جميع الدول في (هيئة الأمم المتحدة) على برنامج للتعليم والتثقيف العام والدعوة، وجدت كل دولة في بث هذه الأفكار في نفوس الشعوب الخاضعة لسلطانها، مكن ذلك (الأمم المتحدة) من التطور إلى الهيئة العالمية التي نرجو أن يدين لها الناس بالولاء والطاعة.

من التربية
القومية إلى
التربية العالمية

إن أثر الدعوات الإنسانية وأثر التربية واضح في تاريخ البشر وضوحاً
 حاسماً ومؤثراً في حياتهم ، فالدعوات الدينية التي غالبت الدهر وعاشت
 القرون واستمرت تفعل فعلها في نفوس الناس وفي تكوين الهيئة الاجتماعية ،
 شاهدٌ على قابلية البشر لقبول الدعوات الإنسانية السامية للتآخي والتعاون .
 وإن ما حرّمته هذه الدعوات استقرّت حرمة في نفوس الناس ، فكبحّت من
 جموحهم ومن شهواتهم ، وحولت الدوافع والغرائز لتتخذ مظاهرها أشكالاً
 وألواناً أخرى . فإذا دعونا إلى تحريم الحرب وتمكّنت هذه الدعوة من
 النفوس ، لاستيحال تسيير الجيوش للقتال إلا بقدر ما يحدث من الشذوذ ضدّ
 إرادة المجتمع ، من تكوين عصابات من القتل للسلب ، ويصبح الوجدان
 الإنساني أشدّ نفوراً في التوجه بالأذى والقتل إلى شخص مجهول له ، أكثر من
 شعور الفرد العادي حين يهجم بجرمة القتل ضدّ أحد المارة .
 وهكذا إذا عودنا الناس أن استغلال الآخرين لمصلحتهم ، واستخدام الجاه
 أو النفوذ أو الحيلة للمنفعة الذاتية يعتبر عملاً من أعمال السرقة ، فإن الوجدان
 البشري ينتهي إلى اعتبار هذا الاستغلال بأنواعه إجراماً ، كما يعتبر السارق الذي
 يستخدم قوته أو حيلته للسرقة مجرماً .
 فعلى الدعوة والتربية العامة التي تجعل الناس ينظرون إلى هذه المبادئ
 البشرية نظرتهم إلى القواعد التي تعارفوا عليها بالنسبة لأنفسهم كأفراد في
 أسرة أو وطن ، يتوقف تمهيد السبيل للنظام العالمي الجديد الذي لا بد منه لتطور
 الحضارة ، ولاجتناب الفناء الذي هيأت أسبابه سيطرة الإنسان المتزايدة على
 المادة ، وعلى مجرى الأمور في سلم المجتمع العالمي .

ويجب أن يُعلّم الناس الغضب لأشياء عامة ، وفي المصلحة البشرية كما
 علّموا الغضب لأوطانهم وعقائدهم الدينية ، فتكون غيرتهم وانفعالهم للعدوان

التدريب على
 الغضب للمصلحة
 العالمية

على حقوق الغير ، أو للتقصير في عمل الواجب نحو الناس كافة ، موجهة بالغيرية
كتوجيهها في الماضي للدفاع عن حق الأسرة وشرفها .

وأخيرا إن وجود « هيئة الأمم المتحدة » في شكلها الحالي ، ورغم المؤثرات
التي رافقت ميلادها يفسح المجال لآمال كبيرة في الاتجاه الذي نشير إليه ؛
فهى نواة صالحة إذا تُعهِدَتْ بالاحترام والثقة فيها ، وأدركت الدول أنه
لا سبيل إلى التخلي عنها ، بل اتخذتها محكمة ومراجعها في كل نزاع ؛ حتى
يشعر الناس تدريجياً بضرورتها لسلامة عيشتهم وأمنهم ، فيضجوا عن طيب
خاطر في سبيل استمرارها وقدرتها ، كثيرا من حقوق السيادة التي أظهرت
الدول فيما مضى غيرة قوية على التمسك بها . بل قد يأتي اليوم الذي تضع فيه
الدولة من الدول سيادتها وسلطانها تحت تصرف هيئة الأمم المتحدة ، لضمان
أمنها أو يسرها ، أو للتغلب على معضلاتها الاقتصادية والاجتماعية .

فلنتعهد النواة
الصالحة في هيئة
الأمم المتحدة

فعلينا في سبيل هذه الغاية النبيلة أن نصبر ونصابر ونصمم .
ولنحذر اليأس وننتلق بأهداب السعى المتواصل لتمكين « الأمم المتحدة »
من سد هذا الفراغ في حياة العالم الجديد .

رأى بين يدينا
نملحها بنفها
قبلها

في انشاء الدعوة للشدة

٦

في انشاء الدعوة

انتشار الدعوة في القرنين

شهرة باطلة — خلط بين انتشار الدعوة وامتداد الدولة — فتح مكة بجيش المستضعفين المظرودين — الدعوة السرية والجهرية — الدفاع عن النفس مشروع — الموقف في الحديبية يشهد — تاريخ الدعوة هو تاريخ الصبر والمقاومة — الموقف في خارج الجزيرة — رواية الكولونيل (فردريك بيك) — فتنة واعتداء — مع الروم في شرق الأردن (مؤته) — دليل فذ من أدلة التسامح الإسلامي — فتح مكة — لم يكن مفر من تحكيم السيف في فتحها — الغرض من فتحها — صورة من التسامح الحمدي — دليل على انهيار النظام الجاهلي — الفتح السلمي قبل الفتح الحربي — دليل من إسلام أبي سفيان زعيم المشركين — الوفود تتوالى من الجزيرة على الرسول باختيارها — الخدمة الوحيدة التي أداها السيف للإسلام — أبيع الدين بديارهم معدودات! — ما بعث الله محمداً جابياً — قصة تكشف عن روح عصرها .

استقرّ في أذهان كثير من الناس ، المسامحين وغيرهم ، أن الدعوة الحمديّة ظهرت وانتشرت تحت ظلال السيوف ، وأن القبائل التي حملت كتاب الله في رقابها حملت سيوف الحق في أيديها ، وانطلقت للمغرب والمشرق ، فحكمت السيوف حتى دان الناس للكتاب المعلق في الرقاب . وليس أبعد من الصواب ولا أدلّ على البحث السطحيّ المقتل من هذا الظن ! لهذا يحسن أن نتناول هذا الأمر بشيء من الإفاضة وتتبع انتشار الدعوة في العصور المختلفة ، ليستقرّ الحق في نصابه ، ويتبين الرشد من الغي . ولعل ذبوع هذه الفكرة الخاطئة عن انتشار الدعوة الحمديّة بالسيوف جاء من اقتران ظهورها خارج الجزيرة العربيّة بظهور الدولة الإسلاميّة ، وامتزاج تاريخ الفتوحات السياسيّة والدوليّة بتاريخ الفتح الدينيّ ، مما جعل الناس يخلطون بين دخول الأقوام في الإيمان وقبولهم لرسالة التوحيد وبين خضوعهم لسلطان الأمة الجديدة التي كانت السابقة إلى قبول الرسالة الحمديّة .

شهرة باطلة

خلط بين انتشار
الدعوة وامتداد
الدولة

وقد نسي الناس أن الفتح الحمديّ لمكة وغيرها ، إنما كان بجيش قوامه

فتح مكة بجيش
المظرودين

آلاف المستضعفين المهتدين قبل هذا الفتح ، ممن أساموا سرّاً واضطُّهَدُوا
جهرّاً ، وهاجَرُوا من أوطانهم قهراً ، وعَبَرُوا البحرَ مرتينَ لاجئينَ إلى الحبشة ،
وفرَّوا إلى المدينة ، واحتَمَوْا في جوار كل ذي حَوْلٍ أو طَوِيلٍ .

دعا محمدٌ صلى الله عليه وسلم ، أولَ مادعا إلى الإسلام ، آلَ بيته ، فمنهم
من آمنَ ، ومنهم من عَصَى . دعا سرا فدخل في دعوته من أشرفِ القومِ
وصناديدِ الجاهلية ، كما دخل جماعةٌ من المستضعفين والعييد ، ولم يستطع
هؤلاء وهؤلاء أن يحمُوا رسولهم ، وألجأته قريش إلى قبول النفي الاختياريِّ
مع آلِه في الشعب حيث بُقُوا حِقْبَةً من الزمنِ مقاطعين منبوذين من أهلِ مكة
وأحاديثها وأشياءها من ثَقِيفٍ وغيرها ، ثم خرج من هذا الحصارِ ، وقد فقد
زوجَه وعمه ، وأخذ يَعرِضُ نفسه على القبائلِ ، ورجع مَبيضَ الجناح من
(الطائف) ولم يستطع دخولَ بلده إلا في حماية المَطْعَمِ بنِ عَدِيٍّ من كفارِ
قريش ، وقد أجارَه نخوةٌ ومروءة .

وما زال يدعو سرا وجهرًا ، وينالُ أصنافَ الأذى في نفسه وأتباعه ، حتى
لَقِيَ أهلَ البَيْعَةِ الأولى من شبانِ المدينة في موسمِ الحجِّ ، فحَبَّبُوا إليه الهجرةَ
إلى وطنهم ، ففرَّ من الموتِ إلى أحضانِ (يثرب) الموالية ، ولم يتركه خصومه
في ملجئه . فلما بسطوا أيديَ الشرِّ إلى أطرافِ الواحة التي نزل بها ، خرج
إليهم والتقى بهم في (بدر) وقد أذن له بالقتالِ بهذه الآية الجليلة « أَذِنَ لِلَّذِينَ
يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ » الذين أُخْرِجُوا من ديارهم
بغير حق إلا أن يقولوا ربُّنا الله ، ولولا دفعُ اللهِ الناسَ بعضهم ببعض لَهَدَمَتِ
صوامعُ وبيعُ وصلواتٌ ومساجدٌ يُذكرُ فيها اسمُ اللهِ كثيرا ، وَلَيَنْصُرَنَّ
اللهُ من يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الذين إن مكَّنَّاهم في الأرض أقاموا الصلاةَ
وآتَوْا الزكاةَ وأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ »

والآية في صراحتها وبساطتها وتعليلها للإذن بالقتال ، وتحديد الغرض

الدعوة السرية
والجهرية

مشروعية الدفاع
عن النفس

منه ، وفي سياقها كله ، واضحة في تصوير الحالة تصويراً ينافي تماماً ما علق في أذهان كثيرة من صورة الكتاب والسيف متلازمين .
استمر الرسول قبل واقعة بدر خمس عشرة سنة يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويصبر على الظلم ؛ فلما لم يبق إلا الدفاع عن النفس بالقوة ، جاء إذن الله ، ووقعت الواقعة في بدر ، وأذلّ المستضعفون الجبابرة ، وضمّ جوف القلب^(١) من فحول قريش من كانوا على مرّ السنين ينوون وسائل التعذيب للذين يدخلون في دين الله إيماناً واحتساباً .

ومع ذلك فقد رجع الرسول إلى المدينة صابراً داعياً ، فلم تصبر قريش ومن معها ، وعادوا لمهاجمته في نفس المدينة . ولما كانت (الحديبية) اغتم الرسول الفرصة للهدنة ، ورَضِيَ بِشروط لم يكن ليرضاها لو كان عماداً دعوته السيف ، فإن تلك الشروط لم تُرضِ حملة السيوف من أنصاره ، واعتبروها هواناً ولمّا يقاتلوا ولما يُغلبوا . ولكنّه صلى الله عليه وسلم كان يعلم أن دعوته إنما يمنعها من الانتشار السيف ، ولا يبسطها في الناس سيف ، فإذا هو هادئ وسالم غلب ، وذلك ما كان ؛ فقد كانت هدنة (الحديبية) فتحة ، وكان هذا العقد الظاهر الغبن الذي عُقد للحصول على السلم بشرائط تبدو مُدَلَّةً ، سبباً لا انتشار الدعوة ، وقد نزلت سورة الفتح بعد الحديبية ، وتحققت الآية ، ودخل الناس في أيام الهدنة أفواجا في دين الله الذي قام بالدعوة ، والذي أحلّ فيه القتال حرية هذه الدعوة ولا شيء غيرها .

الموقف في
الحديبية يشهد

فتاريخ الدعوة في الجزيرة العربية هو تاريخ المسلمين الصابرين . وكل تعقب لتفصيلات التاريخ الإسلامي يكشف لنا عن هذه الحقيقة ، ويؤيد عمل النبي . ويحقق قوله تعالى « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » وقوله تعالى « أفأنت تُسكّرهُ الناس حتى يكونوا مؤمنين ! » وقوله « من يهْدِ الله »

تاريخ الدعوة هو
تاريخ الصبر
والمقاومة

(١) البئر التي دفنت فيها جثث قتلى بدر من المشركين .

فهو المهتد ، ومن يضلّ فلن تجد له ولياً مُرشداً .

قد يقول بعضُ الناس : إذا كان هذا شأنُ الرسول في مكة والمدينة ،
يصبرُ على الأذى ويرجعُ السلمَ حتى بشروط لم تُرضِ أنصاره ، فما الذي دعاه
للخروج من قلب الجزيرة العربية ، وسوقِ الجيوش لقتال الرومان في سورية ؟
أليس الرغبة في تحكيم السيف ؟

ذلك ما قد يظنه بعض من لا يعرفون كيف ابتدأت الحربُ بين النبي
والروم وأنصارهم من العرب . وإليك رواية الكولونيل (فردريك بيك) في
مؤلفه الحديث «تاريخ شرق الأردن وقبائلها» ، وقد اعتمد الكولونيل بيك على
مراجع محترمة من كتب المسلمين وغيرهم ، وأشار إليها في كتابه . قال في
صحيفة ٨٥ « في عام ٦٢٧ - ٦٢٨ م (٦ هـ) استشهد أولُ مسلم في شرق الأردن
بسبب إسلامه : ذلك أن فروة بن عُمر الجذامي عاملَ الروم على (عُمان) - وفي
رواية ابن هشام على معان - كان قد اعتنق الدين الإسلامي ، وأرسل مع مسعود
ابن سعد الجذامي بغلاً أشهبَ وفرساً وحماراً وأقمصةً كتّانيةً وعباءة حريرية
هدية للنبي . ولما بلغ الرومان ذلك حاولوا عبثاً إقناع فروة ليرتد عن إسلامه فأبى .
فما كان منهم إلا أن سجنوه ، ثم صلبوه على ماء يقال له (عفري) بفلسطين .

وفي تموز (يوليه) عام ٦٢٩ م (٨ هـ) أوفد النبي كتيبةً من خمسة عشر
رجلاً إلى حدود شرق الأردن ، ليدعوا الناس إلى الدين الحنيف ، وليستطلعوا
أخبارَ الروم وحوادثهم ، فخرج عليهم جمعٌ غفيرٌ في مكان يقال له (طلّة) بين
الكرّك والطفيلة ، وقتلهم كلّهم إلا واحداً لاذبالفرار .

وبنفس الوقت أرسل النبي رسولا اسمه الحارث بن عُميّر إلى أمير غسان
في سوريا يدعوه إلى الإسلام ، فقبض عليه شُرَحْبِيلُ بن عمرو سيدُ (مؤته) ،
وهي قرية بجوار الكرك وقتله .

رواية
الكولونيل بيك

فتنة واعتداء

تجمع وتهديد
وحوالى هذا الزمن أيضا وصلت رسلُ النبيِّ من الشمال تحمل أخبار
الاستعدادات الحربية على تخوم الولايات الرومانية ، ووجود (هرقل) وجيشه
فى الكرك مع حلفائه من بهراء وجُذام ويلي والبلقاوية .
كل هذه الأسباب جعلت النبيَّ يَعْقِدُ النية على بعث حَمَلَةٍ إلى جنوب
شرق الأردن ليقْتَصَّ من قَتَلَةِ الحارث ، وليختبر قوة أعدائه واستعدادهم ،
وليعرف أسباب تجمعهم على الحدود الجنوبية .

مع الروم فى
شرق الأردن
(مؤته)
وفى أيلول (سبتمبر) عام ٦٢٩ م (٥٨ هـ) جمع النبيُّ ثلاثة آلاف مقاتل
فى (الجوف) قرب المدينة ليسيروهم نحو سورية وأمر عليهم زيد بن حارثة
« فإن أصابه قَدَرٌ فالأميرُ جعفرُ بنُ أبى طالب ، فإن أصابه قَدَرٌ فالأمير
عبد الله بن رواحة على الناس ، فإن أصيب فليترض المسامون برجل من بينهم
يجعلونه أميرا عليهم » .

فمضى الجيشُ حتى إذا كان بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من روم
وعرب ، واقتتل الفريقان فى قرية (مؤته) بجوار الكرك .

استبسل المسامون فى هذه المعركة ، بالرغم من قلة عددهم بالنسبة لعدوهم ،
فلما استشهد أميرهم زيد بن حارثة تولى جعفرُ (كما وصاهم النبي) فقطعت يميناه ،
وكان بها اللواء ، فأخذه بشماله ، فقطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى قُتِل ، وكان
فيه نحو خمسين جرحا . فلما نُمِيَ ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : أثابه الله
بجناحين فى الجنة يطيرُ بهما حيث شاء » فأصبح يُعرف فيما بعدُ بجعفر الطيار .
وبعد جعفر أخذ الراية عبد الله بن رواحة ، فقاتل حتى قُتِل ، وتولى خالد
ابن الوليد وانسحب بالجيش إلى المدينة .

تلك رواية الكولنيل (بيك) عن كيفية وقوع الحرب بين النبي والروم .
وهى واضحة فى أن الروم صلبوا (فروة) لما أبى أن يرتدَّ ، وهى واضحة كذلك فى
بيان الاضطهاد والغيرة التى استولت على أفكارهم وأعمالهم . ولا مجال للشك فى

أن الروم وأنصارهم من العرب لما أخذتهم العزة والخوف من الدعوة السامية ، لجأوا إلى العنف ، بل إلى القسوة والغدر ، ولم يكن بُدَّ لصاحب الدعوة من أن يدفع الشرَّ عنها ، ويقايلَ في سبيل حريتها .

دليل فذ من أدلة التسامح الإسلامي

ومما يرويه المؤرخُ المذكور أيضا أن أسرةً مسيحيةً تدعى (العزيرات) كانت تعيشُ في مؤتة ، فلما قدم الجيش الإسلامي خرج أخوان من هذه الأسرة للقاءه ، وفتحوا أبواب القرية ، وقدّموا له الطعام والشراب ، ثم اعتنق أحدهما الإسلام وبقى الآخرُ على نصرانيته ، فأمر النبي ألا يُستوفى منهما ولا من أعقابهما جزيةٌ ولا خراجٌ ، وظل أمر النبي نافذا مدة ألف وثلاثمائة سنة . وقد أخذت الحكومة التركية تحصيلُ منهم الأموال الأميرية بعد سنة ١٩١١ فقط ، لما ثار أهل الكرك . والعزيرات يقطنون اليوم (ماديا) وهم من أقوى العشائر .

ومغزى هذه الحادثة واضحٌ ؛ فقد أمر النبي ألا تؤخذ جزية ولا خراج من بعض المسيحيين وأعقابهم ، لأنهم أحسنوا لقاء جنوده ، واحترم المسامون هذه الرغبة مئات السنين ، وهى فى ذاتها دليلٌ تسامح فذٍ يستحيلُ معه أن يكون السيفُ وسيلة الدعوة وهادى الإيمان .

أما ما كان من فتح مكة بالقوة فنظرة عاجلة فى تطور النزاع بين محمد صلى الله عليه وسلم وعشيرته قريش ، كافيةٌ لإقرار الحق فى نصابه ، وأنه لم يكن مفراً من تحكيم السيف بين الفريقين ، حتى لو لم يكن محمد رسولاً وكان رجلاً كريماً عزيزاً أُخرج من وطنه ، وأُخرج معه كلُّ من قال برأيه .

لم يكن مفراً من تحكيم السيف فى فتحها

يقول القرآن على لسان قريش « وقالوا إن نتبّع الهدى معك تُخْطِفُ من أرضنا » فقريش التى أقامت لنفسها سيادة دينية على العرب بسدانة الكعبة

ورعاية الحجّ ، وحراسة أوّثان العرب وآلهمها ، والتي اتخذت هذا المقام وسيلةً لنفوذ سياسي واقتصاديّ في كل الجزيرة العربية ، والتي كانت تُدرك ضعفها ، وأن هذه السيطرة التي لا تتناسب مع عددها ومقرّها إنما ترتكز على النظام الجاهليّ الذي يدعو محمد لتقويضه ، والذي عبرت هذه الآية أصدق تعبير عن إخلاص قريش له ؛ فلو أنها تبعّت هدى محمد لكانت وذلت كما تدعى ، قريش هذه أتى لها أن تصبر على هذا الداعي ودعوته ! لذلك حكمت من أول الأمر القوة .

ولما اقتتلّت خزاعة وبكر بعد صلح الحديبية لم تصبر قريش عن نصره بكر ، ولم ترع هدنة ولا احترمت ميثاقا ، بل عادت إلى تحكيم السيف فقبل الرسول هذا التحديّ ، وترك للسيف أن يحكم في نزاع دام عشرين سنة ، وقد حكم للمسلمين يوم الفتح . على أن الرواية التاريخية تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر قوّاد جيشه بعدم القتال إلا أن يُقاتلوا . ومعاملته لقريش يوم الفتح دليل قاطع على أن السيف لم يكن وسيلة للدعوة .

فلم يكن الإكراه في الدين ، ولا قهر الناس على الإسلام هو سبب القتال في مكة التي حرّم الله القتال فيها ، والتي يقول الرسول إنها أيسحت له ساعة من نهار هي بعدها حرام ، وإنما كان الغرض أن يوضع حدّ للاضطهاد الدينيّ وأن يباح للناس حق اختيار العقيدة من غير إكراه ولا قهر .

الغرض من فتحها

ولذلك لما سأل صفوان بن أمية الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكون له الخيار في مغادرة مكة أو الإسلام لمدة شهرين بعد الفتح قال : « بل أنت فيه بالخيار أربعة » ، وكان صفوان وأبوه أمية بن خلف ممن أساءوا للمسلمين أشدّ إساءة ، يعذبون ضعفاءهم ، ويستنزفون بنيهم ، فكان أمية يسخر ويفتّ العظام البالية في يده ويقول « يزعم محمد أن هذه تحيا مرة أخرى » فنزلت الآية « وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه . قال من يحيي العظام وهي رميم ! قل يُحييها »

صورة من التسماع المحمدي

الذى أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم » فمع ذلك التاريخ السيئ الطويل يطلب منه صفوان أن يترك له الخيار في الدين فيسمح له بعد الفتح والغلبة التامة ! فهل هذا شأن من يقيم دينه بالسيف ؟ كلا .

دليل على انهيار
النظام الجاهلي

لم يُقتل في موقعة مكة إلا بضعة عشر شخصا ، مع عظم الجيوش المقاتلة ، فلقد كان جيش الإسلام وحده مقدرا بعشرة آلاف ، مما يدل على أن النظام الجاهلي قد انهيار أمام الدعوة المحمدية قبل يوم الفتح ، وأن عصاة قريش لم تستطع أن تستنهض للقتال جمهرة الناس بعد أن نفذت العقيدة المحمدية إلى صدورهم . وإلا كيف تستطيع تفسير استسلام مكة بهذه السهولة ولما تُغلب ؟ وآخر وقائعها ذلك النصر في (أحد) بعد (بدر) ، وكيف تفسر دخول الناس في دين الله أفواجا بين يوم وليلة ، وهم الذين كانوا يقولون « إن نتبع الهدى معك نُخَطَف من أرضنا » ؟

الفتح السلمي قبل
الفتح الحربي

لا شك أن أيام الهدنة بعد الحديبية لم تُقض عبثا ، وأن الدعوة وجدت في ظلال السلم سبيلها للنفوس التي تهيأت لقبول الحق ، وأن زعماء قريش قد أحسوا الأرض قد زلزلت تحت أقدامهم ، وأن العامة مالت للحنيفية السمحة ، وإلا فما الذي جعل أبا سفيان يُسلم ليلة الفتح ، ويتوسل بالعباس إلى ابن أخيه ، لو كانت مكة لا تزال تؤمن بالنظام الجاهلي ؟ أليس أبو سفيان هو الذي حمل راية الحرب جيلا في وجه هذه الدعوة ؟ ثم أليست هوازن وثقيف حلفاؤه لا يزالون في منعتهم ، حتى لقد كادوا بعد الفتح يوم (حنين) أن يفعلوا بجيش الإسلام الأفاعيل ويقتلوا الرسول ؟ فما بال أبي سفيان وغيره من الزعماء لا ينحازون باتباعهم إلى حلفائهم ويديموا القتال ، والعرب بطبيعتهم صلاب العود مريرو العداوة يُديمونها جيلا بعد جيل ؟ السبب واضح : هو أن مكة قد أسلمت وانقادت للدعوة قبل أن يدخل أرضها جيش خصومها من أهل (يثرب) ومن حولها من الأعراب .

دليل من إسلام
أبي سفيان زعيم
المشركين

فحتى فتح مكة الذي يظنه بعض الناس حادثاً عسكرياً ترتب عليه إسلامها قهراً ، لم يكن إلا وسيلة لكف الأيدي الباطشة عن أهلها ليعلنوا إيمانهم ويدخلوا في الدعوة التي مالوا إليها سرّاً أفواجاً أفواجاً .

ثم بعد فتح مكة نجد الوفود من أطراف هذه الأرض الواسعة المترامية تتوالى على المدينة ، من اليمن ونجران وكندة والبحرين وشمال الجزيرة ومن نجد وتهامة ، ومن كل ناحية ، وتدخل فيها إيماناً واحتساباً .

الوفود تتوالى من
الجزيرة
باختيارها على
الرسول

فإذا كان قدرُ السيف ليردّ الناس عن دينهم ، وبينه وبينهم مسيرة الشهور ، وهم في منعة بعدد وعُدّتهم ؟ إن الخدمة الوحيدة التي أداها السيف للإسلام هو أنه منع الرسول في المدينة من أن يقع فريسة لخصومه من العرب واليهود والروم ، فكأن له بذلك من نشر دعوته وإيصالها إلى العقول والقلوب .

الخدمة الوحيدة
التي أداها السيف
للإسلام

وإدراك الرسول قوة الدعوة في ظلال السلم ، هو الذي دعاه كما قلنا لإمضاء صلح الحديبية ، والمسلمون بعد الرسول إنما أطاعوا الله ورسوله حيث جعلوا للناس الخيار بين الإسلام والجزية ، إذا لم يحكموا السيف في رقاب المسلمين ولم يحولوا بين الناس واختيار العقيدة التي يلقون الله عليها . ولو كان السيف وسيلة الدعوة ما كان للناس خيار ، وما اشترى أي إنسان في البلاد المفتوحة دينه بدينار أو بنصف دينار . والدين الذي لا يساوى عند صاحبه ديناراً فالإسلام أولى بصاحبه منه .

كان الناس في البلاد المفتوحة يعصمون أنفسهم وأموالهم ودينهم من قهر السيف بجزية هي (ضريبة شخصية) يدفعها القادرون منهم لولاة المسلمين ، فيكفلون لهم مقابلها جميع حرياتهم المدنية والدينية .

فهل تتصورون أن قوماً يبيعون دينهم وعرضهم ووطنيتهم بنصف دينار

أبيع الدين بدينار
مدودات ؟

يدفعه القادر عليه منهم ، وليس على النساء ولا على الأطفال ولا العجزة ولا الرهبان ولا القسوس ؟ . لا شك أن الذين جازوا إلى الإسلام بعد الخيار بينه وبين الجزية ، وجدوه أحب إلى أنفسهم مما كانوا عليه .

بل من الغريب أن الدينار الذي كان يعصم كل عزيز لدى الأمم المفتوحة من سيف الإسلام ، والذي كان أزهى شيء عندها ، كان أعز على بعض ولادة المسلمين من إسلام هذه الأقوام ، فكانوا يكرهون دخول الناس في دينهم وتقص جزيتهم ! كتب والى مصر إلى ذلك الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز يخبره أن المصريين مقبلون على الإسلام ، وأن إيرادات الجزية تناقصت بسبب ذلك ، ويطلب منه أن يأذن له في الاستمرار على طلب الجزية منهم . . .

مفارقات ١

فكتب إليه الخليفة تلك العبارة الماثورة « قَبِّحَ اللهُ رَأْيَكَ ! ما بعث الله محمدا جاييا ، ولكنه بعثه هاديا !! »

ما بعث الله محمدا جاييا

تلك الحادثة تقرّب لنا تصور الحالة الذهنية في القرن الأول لظهور الدعوة المحمدية ، فلا بد أن قدر التسامح الديني كان على أعظم جانب ، وأن حرية العقيدة كانت في أوجها ، وإلا فكيف تستطيع أن تتصور واليا يكتب خليفة المسلمين هذا الكتاب إذا كان في المحيط الذي يعيش فيه أي أثر للتعصب أو الرغبة في قهر الناس على الدخول في الإسلام ؟ إن تناول الموضوع بهذه الصورة دليل على أن والي ، الذي يحس طبعاً بحس البيئة ، كان يكتب في شيء لا يظنه عجيباً ولا يراه منكراً ، وإلا لكان هذا والي عرضة لفتك الجماهير ، بل وانتقام الخليفة لإرضاء لهذه الجماهير .

قصة تكشف عن روح عصرها

لم يعاقب الخليفة واليه بعزله ، بل كل ما كان ، أن قبح رأيه ، وهو الذي يحاول منع الناس من الإسلام احتفاظاً بدينار الجزية . . . فهل تصورون أن ولادة لهم هذه العقلية ، وأن خليفة له هذا التسامح مع ما اشتهر به بين خلفاء

عصر كامل من التقوى ، وأن أمة فاتحة مسيطرة تحيّر الناس بين البقاء على
أديانهم ونظمهم مقابل جزية هي أقلّ الضرائب بالنسبة لعصر كمصرنا
هذا أو المساواة بالفاتحين ، يَخْطُرُ لدعاتها وولاتها أن يتخذوا السيف
وسيلة للإيمان ؟

كلا ، لم يكن السيف وسيلة للدعوة المحمدية ، وإنما كان حاميتها من
القهر والاضطهاد ، وكان شعارها « من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن
تجد له وليا مُرْسِداً » .

انتشار الدعوة في الأمم المسيحية

ماذا بين الموجة العربية وموجات الهون والقندال والتتار ؟ — موجة تحمل رسالة الهدى والعدالة — موجة فذة في التاريخ — في ساحة المسيحية — شهادة السير توماس أرنولد — انتشار المسيحية في ظلال الإسلام — تحاكم المسيحيين إلى عدالة المسلمين — فرض مرفوض — الوزراء والولاة المسيحيون في دولة الإسلام — الكنائس تشاد في رعاية الإسلام — العرب المسيحيون يحاربون مع إخوانهم المسلمين — بطولة عربي نصراني في واقعة البويب — لم يكن السيف من أسباب دخول المسيحيين في الإسلام — وقائع اضطهاد هي الاستثناء الذي يثبت القاعدة — السياسة والحسد الاجتماعي لا الدين — برهان قاطع على تسامح المسلمين — بلاد الإسلام هي منطقة اللقاء الودي الدائم بينه وبين المسيحية — التعصب الديني بضاعة غريبة .

ماذا بين الموجة
العربية وموجات
الهون والقندال
والتتار ؟

يظنُّ بعض من لا يعلم ، أنه لما جمع محمدٌ صلى الله عليه وسلم شتات العرب ، وقهر الوثنية في وسط الجزيرة العربية ، طغت بعده جماعات الرعاة من قُساة البدو ، على الشمال والشرق للنهب والسلب والقضاء على حضارة الروم والفرس ، وعلى معتقدات هاتين الدولتين وقواهما التي كانت تصون المدنية القديمة ضد طغيان الهمج من الشمال والشرق والجنوب ، وأن ظهور العرب كظهور الهون والقندال من الأقوام التي تدفقت من المشرق يسوقها الجوع ، ويُغريها الطمع ، ويقويها الفخرُ بنسبها ، أو كغيرهم من موجات المغول والتتر المتأخرين ، وسيلتهم العنف ، وغايتهم مافي أيدي الناس . ومثلُ هذا الظن بالعرب الحاملين دعوة الإسلام بعيد كل البعد عن الحق وعن ثابت التاريخ . فع أن حمله الدعوة كانوا ممن غلبت عليهم البداوة ، ومع أن أعراب الجزيرة كانوا من أرغب الأقوام في النهب وسفك الدماء ، إلا أن الرسالة التي حملوها والشرعة التي دانوا لها كانت أملاك لنفوسهم مما تعودوه من الطمع والفخر ؛ لذلك اختلفت آثارهم عن آثار أشباههم من الأقوام التي استمر هاديها في فتوحاتها النهب والفخر .

فقد أقام العرب دولة امتدت من فرنسا إلى الهند والصين ، وعربوا
الأقوام وأذبحوها فيهم ، وهدوها بهديهم ، فكان وفاءهم للعهد واحترامهم
للشرع وتحقيقهم معنى العدل مضرب أمثال الأمم ، وموضع عجب المؤرخين
والمحققين . لذلك لم يُكره هؤلاء البدو أحدا على تغيير دينه ، ولم يعاملوا
الناس فرادى وجماعات إلا بقانون تواضعوا عليه مستمدا من نصوص الشريعة
التي حملوا رسالتها ، أو من رُوحها . وقد لقنوا ذلك من دخل في دينهم من
الأقوام المتبذية كالأتراك والبربر ، فصار هؤلاء كذلك مثالا للخضوع
للشرع وللوفاء بالعهود والتسامح ، بما لقنوا من الأدب الحمدي ، صادقين في
احترام أوامر دينهم متسامحين مع أهل الأديان الأخرى . بل يمكن القول
بحق : إنه فيما نعلم من تاريخ الأقوام والدعوات ، لا توجد دعوة صحت بها العدالة
وسعة الصدر والعفو والتسامح في عفوانها وضعفها كالدعوة الحمدية ، سواء
أكان العرب أم الترك أم الحاملين إياها .

موجة تحمل
رسالة الهدى
والعدالة

لقد غلبت النفوس الجامحة ، وهذبت الأمم القاسية ، وبقيت كلمة الله
هي العليا ، وأمره المطاع ، وهو الذي يقول لجملة الرسالة عربا وعجماء « وقل
للذين أوتوا الكتاب والأُمِّيِّين أَسْلَمْتُمْ ؟ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا
فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ » .

موجة فذة في
التاريخ

كانت المسيحية هي الديانة الغالبة في دولة الروم من جبال طورس إلى
جبال الأطلس ، أي في الساحة التي تشمل اليوم سورية ومصر وطرابلس
الغرب وتونس ، وكانت هذه الأقطار من أول ما حرر العرب في الدفعة
الأولى أيام خلفائهم الراشدين ، وأيام أن كان الجاهل للدين الجديد في
أوج حرارته .

في ساحة المسيحية

وكان النصراني في الأقطار المفتوحة من مختلف الشعوب واللغات ، فمنهم
العرب ، ومنهم غير العرب . فإذا كان حكم الفاتحين في المغوليين ؟ ذلك

ماندعُ الكلام فيه للسير (توماس أرنولد) ذلك المؤرخُ والعالمُ الكبيرُ المختصُّ في هذا الموضوع .

شهادة
السير توماس
أرنولد

يقولُ السير توماس في كتابه (انتشار الإسلام) : « حقا إن الكنيسة المسيحية قويت وتقدمت في رعاية المسلمين وحكمهم ، فلم يحلُ الحكمُ الإسلاميُّ بينها وبين الانتعاش والرقى ، بل إن النساطرة لم تتفجر فيهم الحمية والحماسة الدينية إلا بعد أن دخلوا في حكم الإسلام بما لا عهد لهم به من قبل ، فنشروا المسيحية تحت راية الإسلام ، وبلغوا بدعوتهم الصينَ والهندَ تحت حماية الخلفاء . وإذا لم يكن لغير النساطرة من أهل النصرانية ما لهؤلاء من النشاط والهمة في نشر دعوتهم الدينية ، فليس هذا ذنبُ المسلمين ، ولا ذنبُ حُكَّامِهِمْ : فقد كانت جميعُ المذاهب المسيحية تتمتعُ بالرعاية والتسامح من الحكام المسلمين على حدٍ سواء . بل كان هؤلاء الحكامُ هم الذين يمنعون اضطهادَ بعض المسيحيين لبعض ، ويكفلون الحرية الدينية للجميع » ، وقد عدد السير توماس حوادث النكابة بين المذاهب المسيحية ، وبين كيف كان الحُكَّامُ المسلمون يتدخلون لإقامة العدل ، وإنصاف المظلوم من غير تحيزٍ وبمُنتهى التسامح ، مما لا محلَّ للإطالة فيه الآن ، ويمكنُ الرجوعُ إليه في صحيفة ٦٠ وغيرها من كتابه السالف الذكر .

تحاكم المسيحيين
إلى عدالة المسلمين

كذلك بيّن أن ما يعرفه من التسامح والإحسان الذي امتدَّ ظلُّه على الرعايا المسيحيين في العصر الأول ، وما ساقه من الأمثلة والوقائع ، لا يسمعُ بما يفترضه كثيرٌ من الناس ظنًا ، وهو أن الأمم المسيحية دخلت في الإسلام قهراً أو بحمدِ السيف ، فذلك لا شك باطلٌ ولا مبرر له ، وعلينا أن نبحث عن أسبابٍ أخرى لتفسير إسلام المسيحيين .

الوزراء والولاة
المسيحيون في
دولة الإسلام

ويقولُ السير توماس « تحت نظام من الأمن يكفلُ حرية الحياة والملك والعقيدة الدينية ، تمتع المسيحيون ، وعلى الأخص في المدن ، بثرواتٍ ونجاحٍ

كبير في عصور الإسلام الأولى ، فكان منهم أربابُ النفوذ الواسع في قصور الخلفاء . وقد ساق على ذلك شواهد كثيرة ، من أطرافها أن أخوين مسيحيين (سالمو و إبراهيم) وليا للخليفة العباسي المعتصم مناصب الوزارة ، ومنها بيت مال المسلمين ، ولما مرض إبراهيم عادته الخليفة في بيته ، فلما مات حزن عليه حزنا شديدا ، وأمر بحثته فجيء بها إلى القصر وجرت المراسيم المسيحية والصلوات عليها في قصر الخلافة الذي شُيِّعت منه الجنائز ! وذكر السير توماس من بين من ذكر من الوزراء المسيحيين ، (نصر بن هارون) الذي تولى رئاسة الوزارة لعضد الدولة بن بويه ، وبني عددا كبيرا من الكنائس والمعابد .

مراسم المسيحية
في قصر الخلافة
الإسلامية !

وقد عدد كذلك أمثلة للتسامح في الكنائس التي أمر ببنائها الخلفاء ، وأنفقوا عليها في شمال الجزيرة والعراق والشام ، ولا يزال بعضها قائما إلى اليوم ككنيسة (أبوسرجة) في مصر العتيقة مما بُني في العهد الأول الإسلامي بالفسطاط . وليس أدل على سعة الصدر من أن والي الأمويين في العراق وفارس (خالد القسري) بني لأمه المسيحية كنيسة لتتعبد فيها في العهد الأول للدعوة وأيام صولة الفتوحات والحروب بين المسلمين والروم المسيحيين . ويمكن للذين يريدون تفصيلا أوسع في هذا الشأن أن يرجعوا إلى كتاب السير توماس وما يشير إليه من المراجع الأجنبية والإسلامية .

الكنائس تشاد
في رعاية الإسلام

لقد كان بين العرب المسلمين وأولاد عموميتهم العرب المسيحيين من الإخاء والتسامح في عهد الفتوحات الأولى ، ما جعل نصارى العرب يقاتلون في الصفوف الإسلامية انتصارا لروبتهم واستجابة لعدالة أبناء عموميتهم . والتاريخ الإسلامي مستفيض بمحادثات الأفراد والجماعات المسيحية في العراق والشام ومصر ، التي احتفظت بدينها وساهمت في بناء الإمبراطورية العربية بجهدا ودمها .

العرب المسيحيون
يحاربون مع
إخوانهم المسلمين

بطولة عربي
نصراني في واقعة
البويب

ففي واقعة الجسر ، لما زُلزل جيشُ (المُتَنِّي) وحُصِر بين الفرات والجيش
الفارسي ، كان نصارى بنى طى خيرَ أعوانٍ إخوانهم العربِ المسلمين ، فحمل
زعيمُهم حملةً صادقةً وحَمَى الْمُعَبَّرَ للمسلمين . ولما عاد (المُتَنِّي) واستنجد الناسَ
لِحَوْعَارِ هزيمةِ الجسرِ كان بنو النمرِ المسيحيون من خير من أنجده . ففي واقعة
البويب قاتل نصارى العرب جنباَ جنباً مع مسلمي العرب ، وكان نحرُ اليوم
لنصرانيٍّ من بنى تغلب لحق بالمركة أثناء اشتدادها ، وقطع رأسَ زعيمِ الفُرس
وسلبه جواده وفاز بالغنيمة وركض راجعا بين صفوف المسلمين يفخرُ بنسبه
وأنه من نصارى تغلب ، والمسلمون يهتفون له ويحيون نَجْدَتَه .

ولقد بقيت (تغلب) على نصرانيتها ، وهي التي أبت الجزيةَ وطلبت
أن تدفع الصدقةَ أسوةً بالمسلمين ، فأمر عمرُ رضى الله عنه لها بذلك قائلا
« لا تُذِلُّوا العرب . خذوا من بنى تغلب الصدقة » .

وقد بين السير توماس أرنولد في كتابه سالف الذكر جملةً أسبابٍ لترك
المسيحيين دينهم في العصور والأوطان المختلفة ، وسرد الحوادثِ سرِّداً علمياً
مدعماً بالحجة القاطعة . وفي كل زمان ومكان تتكرر مفعرة المسلمين التي
لا يدانيهم فيها أحد ؛ وهي التسامحُ وسعة الصدرِ والإنصافُ للمخالفين
في العقيدة .

لم يكن السيف
من أسباب
دخول المسيحيين
في الإسلام

وسواء أكان المسيحيون الذين تركوا دينهم قد فعلوا ذلك إعجاباً بالدين
الجديد وبأصحابه ، أم بُغضاً لما هم فيه من فرقة ، أم يأساً من الإصلاح ، أم فراراً
من أذى بعضهم لبعض ، أم إهمالاً من قساوسهم ومرشديهم ، أم طمعا في دنيا ،
أم هدى من الله . . فإن هذه الأسباب المتنوعة والتي يشير إليها المؤرخون
من أهل الليل الأخرى في تعليل إسلام المسيحيين ، أدلةٌ على بُعد السيف عن
ميدان العقيدة المحمدية .

نعم لقد وقعت في التاريخ الإسلامي بعض حوادث لا تخلو من اضطهاد
المسيحيين ، وأكثر ما يُشار إليه من هذه الحوادث في أيام المتوكل العباسي
والحاكم بأمر الله الفاطمي ، وبعض المماليك . والأول كان شديداً على المسلمين
أنفسهم ، قاسياً على المتشيعة والمعتزلة من الفرق الإسلامية ، والثاني كان
بالعكس فادلمياً قاسياً على المسلمين من غير الشيعة . فإذا أصابوا لضيق صدرهم
النصارى ، فلهؤلاء فيما أصاب المسلمين أسوة . ومع ذلك فنفس هذا الاضطهاد
هو الاستثناء الذي يثبت القاعدة . ووقوع حوادث منعزلة قليلة في تاريخ
أكثر من ألف سنة ، هو الدليل القاطع على تسامح منقطع النظير وتاريخ
ناصح مشرّف في سجل الأقوام والأديان .

وقائع اضطهاد
هي استثناء يثبت
القاعدة

وأكثر حوادث الأذى التي أصابت بعض المسيحيين في أزمنة متباعدة ،
أثارها نازعة حسد لما كان يتمتع به النصارى من ثراء كبير ونفوذ قيل إنهم
أساءوا به ، أو نازعة خوف ؛ فقد كان النصارى في بعض العهود ضالعين مع إخوانهم
في الدين وراء الحدود الإسلامية ومتجسسين متربصين ، فأصابهم بعض الأمرأ ،
أو سلب عليهم العامة تخلصاً من أذاهم . وفي تاريخ مصر والشام والدولة العثمانية
والأندلس حوادث متفرقة يمكن تتبعها وردها إلى السياسة لا إلى العاطفة
الدينية ، أو رغبة المسلمين في إكراه غيرهم على الدخول في دينهم . ومن
مفاخر المسلمين المتفق عليها أن تاريخهم خلّو من القوانين الباطشة الجائرة التي
حرمت العقيدة الإسلامية في أسبانيا أيام فردناند وإزابيلا ، وحرمت
البروتستانتية في فرنسا على عهد لويس الرابع عشر ، وحرمت دخول اليهود
في إنجلترا أربعة قرون .

السياسة والحسد
الاجتماعي
لا الدين

ويقول السير توماس « إن بقاء الكنائس والمذاهب المسيحية معزولة
في الشرق الإسلامي تلك القرون الطويلة ، هو البرهان القاطع على تسامح
الدول الإسلامية تسامحاً عاماً » .

برهان قاطع على
تسامح المسلمين

لم يكن السيفُ إذاً وسيلةَ الإسلامِ إلى القلوبِ المغلقة كما كان السيفُ
والاضطهادُ وسيلةً لإنقاذِ أرواحِ المسلمين واليهودِ وحتى المخالفين في المذاهبِ
المسيحية . . . وكيف يكونُ ذلك في قومٍ عاهدَ نبيهم القبائلَ المسيحية ووفى
لها وكفلَ حريةَ ملكها وعقيدتها وأمنَ رهبانها وقساوستها ؟ ! وقد قال
القرآن الكريم فيهم « ولتجدنَّ أقربهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى
ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون » .

التعصب الديني
بضاعة غريبة

على هذا الأساسِ الصالحِ تركَ الناسُ لضمائرهم ولهداية الله ، فنشأت
واستمرت علاقة أهل الشرق ببعضهم ببعض ، وستنمو على هذه القواعد ،
وتبقى مثلاً للذين أساءوا إلى الإسلام والمسيحية من متعصبة الغرب لضيق
صدورهم وعدم إنصافهم . ويحقُّ لنا نحن الشرقيين مسلمين ومسيحيين أن نعترض
ونفخر بهذه السيرة الحميدة وأن نطالب الأقوام المتناحرة أن تهتدي بهدينا
وتستنير برؤسنا .

بها لا
بها لا

إسلام الصليبيين

دور من الصراع بين المسلمين والمسيحيين — تاج العرب والترك من بعدهم —
 لإسلام طوائف من الصليبيين — في الحرب الصليبية الأولى — في الحرب
 الثانية — — رواية راهب صليبي عن إسلام ثلاثة آلاف — القسوة الفادرة
 بالإخاء — الرحمة المنقذة للأعداء — رحمة أشد قسوة من الحيانة ! —
 احتكاك أفاد الصليبيين — تبادل الأسوة الحسنة — تأثير الإعجاب
 بصلاح الدين — أمراء كثيرون يسلمون — صليبيون يقاتلون في صفوف
 المسلمين — فرج نصارى المرق بزوال حكم الصليبيين — شواهد أخرى من
 الفرق البعيدة في العهد الأموي — سلوك كريم في كل مكان وزمان —
 أساس قرآن لم يختلف باختلاف العصور — هل من نهضة للحق والحرية يقوم
 بها المسلمون والمسيحيون في المشرق ؟

تغلّبت دعوة التوحيد على كل ما عداها ، ودارت ، بهذا البحر الأبيض
 المتوسط حتى عبرت جبال البرانس إلى فرنسا ، فعرّبت شبه الجزيرة الإيبيرية ،
 ثم هزمت بيزنطة ، ولقّت بالجناح الشرقي حتى وصلت إلى شواطئ الأدریاتيك ،
 فغلّبت لغة الأتراك وأدبهم في جنوب أوروبا الشرقي ، كما غلّبت من قبل لغة
 العرب وعُرفهم في جنوبها الغربي ، وحظي من حمل لواء هذه الدعوة من
 القبائل العربية والتركية ممن أخلصوا لها ، بجزء من الله منقطع النظير ! بسطة
 الملك ودوامه ، وإقبال الدنيا حتى اندمج في هيئتهم ولغتهم وعصرهم من الأقوام
 من أهم أعرق منهم في العمران والملك . وقد سبق للعرب وسبق للترك أن
 فتحوا ممالك ، وأقاموا دولاً قبل أن يعرفوا محمداً ويهتدوا بهديه ، فما عظم لهم
 شأن ولا بقي لهم ذكرٌ محمودٌ ، ولكن هاتين الأمتين المعروفتين بالقدر على
 الغز والقهر والموصوفتين بالتوحش في التاريخ القديم ، هذبتهما الرسالة
 المحمدية فمشوا إلى الأقوام المتحضرة والبادية ، يهديهم شرعاً واضحاً في كتاب
 كريم ، وأدب عالٍ قوامه الفضيلة ، ونظام أساسه العدل ، ودعامته خشية الله
 في عباده ، فسحروا المتقدمين والمتأخرين ، وما زال الناس من الأقوام المنتصرة

دور من الصراع
 بين المسلمين
 والمسيحيين

تاج العرب
 والترك من بعدهم

الأوربية والأسبوية والإفريقية يتمثلون بمثلهما ، حتى دخلوا أفواجا في دعوتهم من غير قهر ولا أذى .

إسلام طوائف
من الصليبيين

دخلت الأمم المسيحية مستجيبة لدعوى العرب والترك طوعية واختياراً للجانب الأعز بالحق والمثل الأعلى في الأدب والفضيلة ، ولعل من أظهر الأدلة على ذلك وأعجبها ، إسلام طوائف من الصليبيين الذين حشدوا من كل جنس وجيل ، وجاءوا المشرق تغلى صدورهم بالبغضاء ، وتقطر من أيديهم الدماء ، حتى ذبحوا نفس النصارى في طريقهم ممن لم ينشط لدعوتهم ، أو ممن خالف رأيهم ، أو كان على غير مذهبهم في المسيحية . هؤلاء العتاة القساة ما لبثوا أن اقتبسوا أدب أعدائهم ، فالتصمت صدورهم وتهذب تعصبهم ، وتعلموا ممن ينفسونهم التسامح ، فصار القادم عليهم مدداً من الغرب يُنكر ما يجدونه فيه من أدب سما على البغضاء والحق.

في الحرب
الصليبية الأولى

بل إن كثيراً من زعماء الصليبيين وكثيراً من عامتهم الذين قطعوا الأرض لقطع رقاب المسلمين ، ارتموا في أحضان الدعوة التي غامرُوا كل مغامراتهم للقضاء عليها منذ أول تعارف ؛ ذلك هو أعجب آثار التسامح !

في الحرب الثانية

فقد أسلم في الحرب الصليبية الأولى ممن أسلم (رينود) أمير طوائف الجرمان واللمباردين ، وأسلم معه خلق كثير منهم ، وأسلم في الحرب الصليبية الثانية ، كما يروى السيرتوماس عن راهب من رهبان سنت دنيس كان قسيساً في المعبد المخصوص للملك لويس السابع ، ورافقه في هذه الغزوة طائفة كبيرة . وإليك ما يقوله الراهب في عبارة شائقة :

رواية راهب
عن إسلام ثلاثة
آلاف صليبي

« في طريق الصليبيين إلى المقدس ، عبر جبال الأناضول ، التقوا بجيش المسلمين ، فهزم الصليبيون شر هزيمة ، وكان ذلك في الممر الجبلي « فريجيا » وذلك سنة ١١٤٨ ، ولم يصلوا إلى مرسى « أضاليا » إلا بشق الأنفس ومنها استطاع القادرون بعد تلبية طلبات التجار اليونانيين الباهظة أن يرحلوا إلى

أنطاكية بحرا ، وقد دفعوا مبالغ طائلة ، وتركوا خلفهم الجرحى والمرضى
والججاج ، فدفع كذلك لويس خمسمائة مارك لليونانيين على أن يُعَنُوا بهؤلاء
الضعفاء حتى يُشَفَوْا ، وعلى أن يرافقهم حرس اليونانيين حتى يلحقوا بمن
سبقهم ؛ فما كان من اليونان الغادرين إلا أن تربصوا حتى تباعد جيش الصليبيين ،
واتصلوا بالمسلمين الأتراك وأخبروهم بما عليه الججاج والجرحى ، ممن تخلّفوا
من الوهن والعجز ، ثم قعدوا ينظرون إلى إخوانهم في الدين ينال منهم
البؤس والمرض وسهام المسلمين . ولما ضاق الصليبيون المتخلفون ذرعا بما
أصابهم ، خرج ثلاثة آلاف أو أربعة من قلعهم محاولين النجاة بأنفسهم ،
فحصرهم المسلمون وشدوا عليهم ، ثم حملوا على المعسكرات الصليبية ، وكان حال
من خرج ومن بقي في المعسكر ليس فيه أقل رجاء ، ولم يُتَقَدَّوا إلا بما نزل في
قلوب المسلمين من الرحمة ، حين أطلعوا على ما فيه عدوهم من بأساء ،
وما أصابهم من ضراء . رقت قلوبهم وذابت نفوسهم رحمة لأعدائهم الصليبيين
المساكين ، فواسوا المريض وأحسنوا للفقير ، وأطعموا المسكين بسخاء
وكرم . وبلغ من إحسانهم أن بعضهم استردَّ بالشراء أو الحيلة أو القهر النقود
الفرنساوية التي أخذها اليونان من الججاج ، وردّها عليهم ، ووزعها على
المحتاجين من الصليبيين . وقد كان الفرق واضحا بين معاملة هؤلاء الكفار
— يقصد المسلمين — للججاج المسيحيين ، ومعاملة اليونان الذين سخرُوا إخوانهم
في الدين ، ونهبُوا أموالهم وضربوهم . كان الفرق عظيما لدرجة حملت الصليبيين
على اعتناق دين الأعداء المنقذين ، ومن غير أن يُكرهوا أو يُقهرُوا . لقد
فرُّوا من إخوانهم في الدين الذين أساءوا إليهم ، فلحق ثلاثة آلاف بالجيش
الإسلامي بعد أن رجع عنهم ودخلوا في دينه . لقد كانت الرحمة أشدَّ قسوة
من الخيانة ! لقد أعطاهم المسلمون الخبز وسلبواهم الإيمان . واحسرتاه ! لقد
ارتدوا عن المسيحية من غير أن يُجبرَ واحدٌ منهم على ترك دينه .

القسوة الغادرة
بالإخاء

الرحمة المنقذة
للأعداء

رحمة أشدَّ قسوة
من الخيانة !

احتكاك أفاد
الصلبيين

تبادل الأسوة
الحسنة

تأثير الإعجاب
بصلاح الدين

كثيرون أمراء
يسلمون

ذلك ما يقوله الراهب . ويقول السير توماس « لقد كان اختلاط النصارى الصليبيين بالمسلمين ينمو على ممر الأيام ، وينمو معه الاحترام والتقدير بمزايا عدوهم وفضائله ، وتزايد تقليد الفرنجة النازلين في فلسطين للمسلمين تزايداً كان له أثر واضح على أفكارهم الدينية . وأظهر هذه الآثار ذلك التسامح الديني الذي أخذ يتصف به كثير من فرسان الصليبيين وأمرائهم ، وذلك الصدرُ الرُحْب الذي أخذوا يتلقون به التعاليم المحمدية ، حتى إن الأمير السورى (ابن مُنْقِذ) لما زار بيت المقدس أثناء بعض الهدنات كان أمير الصليبيين على المسجد الأقصى يأذن له بإقامة صلاته في المعبد ، فعجب الصليبيون الجُدُّ لهذه الحالة العقلية ، واحتجوا عليها ، ولكن الصليبيين الذين أثر فيهم جوارُ الشرق كرهوا أن يتدخل أحدٌ في حرية ضيفهم الدينية ، ولم يردّهم عن هذا التسامح الذي تعلموه في الشرق حرج الكنيسة وغيظها في الغرب » . ثم قال : « لقد اجتذبت الدعوة المحمدية إلى أحضانها من الصليبيين عدداً مذكوراً ، حتى في العهد الأول ، أى القرن الثانى عشر ، مما يلفتُ نظر من يطالعُ على سجلات الصليبيين .

ولقد بلغ تأثير الإعجاب بشجاعة صلاح الدين وفضائله في الصليبيين ، أن كثيراً من أمراءهم وعامتهم المعجبين به ذهب بهم هذا الإعجاب إلى ترك دينهم وأهلهم والدخول في الإسلام .

مثل ذلك ما فعل الزعيم الإنجليزي (روبرت سنت أليان) وكان ذلك قبل انتصار صلاح الدين في معركة حطين الفاصلة التي وقع فيها ملك القدس (جى) أسيراً . ويقول بعض مؤرخى النصارى : إن ستة من أمراء هذا الملك استولى عليهم الشيطان ليلة المعركة فأسلموا وانضموا إلى صفوف الأعداء دون أن يقهروا من أحدٍ على ذلك . وقد وصل الأمر (بريغون الثالث) أمير طرابلس الشام أن اتفق مع صلاح الدين على أن يدعو قومه إلى الإسلام .

ونحن بعد صلاح الدين ، لما قام الصليبيون بحربهم الثالثة انتقاما لسقوط
بيت المقدس ، وحاصروا عكا ، وأصابهم البأساء ، وعضهم الجوع ، فرّ كثير
إلى صفوف المسلمين ؛ فمنهم من آمن ، ومنهم من رجع إلى قومه ، ومنهم
من استمر على نصرانيته ، واختار البقاء وأن يقاتل في صفوف المسلمين .
وفي هذا المعنى يقول السير (جون ماندفيل) أحد المعاصرين للصليبيين « كان
بعض المسيحيين يرتدّون عن دينهم ويصيرون عربا ، لفقرهم أو غباوتهم
أو شقاوتهم » . ولا يُنتظر بالطبع من صليبي كالسيرجون أن يفسّر ما يسمّيه
المسلمون بالهداية إلا بالغباوة والشقاوة . والذي يعيننا من الأمر أن الفقراء
والأغنياء والضالّين الذين ذكرهم السير ماندفيل ، دخلوا في الإسلام الذي جاءوا
لحوه ، مختارين ، واجتدّبوا إليه بالدعوة والإرشاد ، لا القهر والاضطهاد .
بل إن بعض المؤرّخين المسيحيين المعاصرين للفتح الإسلامي واسترداد بيت
المقدس ، وبعد ذلك بكثير بعد انهيار دُول الفرنجة في الشام كلّها ، يُشيرون
إلى فرج النصارى بالتحرّر من حكم الصليبيين . ويقول السير توماس في هذا
المعنى « لقد سكنوا إلى الحكم الإسلامي وادعين مستبشرين ، كما استمر
الحكام المسلمون على عادتهم القديمة من التسامح وسعة الصدر لأهل
الملل الأخرى » .

صليبيون يقاتلون
في صفوف
المسلمين

فرج نصارى
الشرق بزوال
حكم الصليبيين

بالدعوة والإرشاد
والاضطهاد

وإذا كان ما ذكرنا هو بعض الشواهد على انتشار الدعوة المحمدية بالحجة
بين أشدّ خصومها المحاربين ، وفي أحلك أيام الدولة الإسلامية ، أيام غارات
الصليبيين والتتر ، فإن لنا شاهداً آخر من بطريق خراسان في أعزّ أيام الدولة
الأموية العريية ، نختتم به هذا الفصل . يقول البطريق (يوساب الثالث)
اليقوبى في خطاب طويل بعث به لحبّير زميل « أين أبناؤك أيها الأب ! أين
هذا الشعب العظيم شعب مرو ! لم تصبهم جائحة ولا سقطوا للسيف ،
ولا عذبوا بنار ، وإنما أصابهم متاع الدنيا ، فارتدّوا عن دينهم ، وقذفوا

شواهد أخرى
من الشرق البعيد
في العهد الأموي

بأنفسهم كما يَقْدِفُ المجانين في مهاوى الهلاك والكفر ، فلم ينبج من هذا السعير إلا قسيسان اثنان فرأى بنفسيهما من جحيم الكفر - أى الإسلام - واحسرتاه على الآلاف المؤلفة الذين حملوا اسم المسيحية وصفتها ، ولم يقع منهم شهيد واحد ولا ضحى واحد منهم لدينه !!

أين كذلك يبيع كرمان وكنائس فارس ! لم يكن قدوم شيطان ولا ملك ولا أمير ، ولا أمر خليفة أو سلطان هو الذى قضى عليها . لم يكن ساحرا موهوبا أوتى المنطق وسلطة الشيطان على النفوس ، ولكنه ساحر هز رأسه فقط فخرت كنائس فارس كلها على الأرض !

أما العرب الذين آتاهم الله ملك الدنيا كما تعلم - فإنهم عندك كذلك - فلم يطعنوا في ديننا ولا اعتدوا على بيعنا ، بل بالعكس ضالعوا مع ديننا وفضلوه على غيره ، وأكرموا رهباننا وقساوستنا ، واحترموا أوليائنا ، وأحسنوا الهبات إلى معابدنا . فلماذا إذا هجر أهل مرو نصرانيتهم زلقى لهؤلاء العرب ، وهم يعلمون ويقولون إن العرب ما طلبوا منهم تغيير دينهم ، بل أقرؤهم عليه كاملا ، ولم يسألوهم إلا ضريبة بسيطة يؤدونها عن أنفسهم ، ولكنهم اشتروا خلود أرواحهم في دين المسيح بمتاع قليل ؟!

هل هناك بيان أوضح من هذا البيان عن نفاذ الدعوة الحمديّة بالحجة إلى قلوب المسيحيين ؟ لقد سقنا لك الشواهد من المشرق والمغرب في القرن الأول ، وفي القرن السابع ، في المحاربين والمهادنين . لقد اختلف كل شيء ، اختلفت الأمم والقرون والظروف ، ولم يختلف الحق الذى سائر هذه الدعوة منذ ظهورها ، والذى وضع أصله القرآن في قوله تعالى : « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » .

أساس قرآنى لم يختلف باختلاف العصور

وَحُقُّ لَنَا نَحْنُ سَلَالَةُ الْأَقْوَامِ الْعَادِلَةِ الْمُنْصِفَةِ الْحَلِيمَةِ الرَّحِيمَةِ فِي الْمَشْرِقِ ،
مُسْلِمِينَ وَمَسِيحِيِّينَ ، أَنْ نَطْمَعَ فِي نَهْضَةٍ جَدِيدَةٍ نَكُونُ فِيهَا مُثَلًّا وَدُعَاةً
لِحُرِّيَةِ الْعَقِيدِ وَحُرِّيَةِ الرَّأْيِ فِي عَالَمٍ ضَاقَ صَدْرُهُ بِالْمُخَالَفِينَ فِي الرَّأْيِ . لَقَدْ كَانَ
آبَاؤُنَا حِمَاةَ هَذِهِ الْحُرِّيَةِ وَمُثَلِّهَا الْعُلِيَا ، فَلْنَكُنْ نَحْنُ وَرَثَةُ هَذَا الصَّبْرِ عَلَيْهَا ،
وَحِمَلَةَ رَايَتِهَا فِي أُمَّةٍ نَاشِئَةٍ وَدَوْلَةٍ جَدِيدَةٍ .

هل من نهضة
للحق والحرية
يقوم بها المسلمون
والمسيحيون في
المشرق ؟

وَلَقَدْ كَانَ آبَاؤُنَا حِمَاةَ هَذِهِ الْحُرِّيَةِ وَمُثَلِّهَا الْعُلِيَا ، فَلْنَكُنْ نَحْنُ وَرَثَةُ هَذَا الصَّبْرِ عَلَيْهَا ،
وَحِمَلَةَ رَايَتِهَا فِي أُمَّةٍ نَاشِئَةٍ وَدَوْلَةٍ جَدِيدَةٍ .

هل من نهضة
للحق والحرية

وَلَقَدْ كَانَ آبَاؤُنَا حِمَاةَ هَذِهِ الْحُرِّيَةِ وَمُثَلِّهَا الْعُلِيَا ، فَلْنَكُنْ نَحْنُ وَرَثَةُ هَذَا الصَّبْرِ عَلَيْهَا ،
وَحِمَلَةَ رَايَتِهَا فِي أُمَّةٍ نَاشِئَةٍ وَدَوْلَةٍ جَدِيدَةٍ .

هل من نهضة
للحق والحرية

هل من نهضة
للحق والحرية

إسلام الأروبيين

تاريخ مشرف لنا وتاريخ غير مشرف لغيرنا - مزاج قاس و صدر ضيق -
مفارقات بين البدو المسلمين والحضر المسيحيين - المسيح البريء من روح
التعصب الغربي - النزعات البشرية بين إطلاق المسيحية وتقييد الإسلام -
أثر تركيز الدين في النظام الكهنوتي - الحرية في فهم القرآن لدى جميع
المسلمين - والقيود في فهم الإنجيل لدى المسيحيين - الحلال والحرام كلاهما
بين في الإسلام لدى الخاصة والعامة - أدب القرآن مع المخالفين - بساطة
الدخول في الإسلام تعصم الدماء والأموال - من تاريخ تعصب المسيحيين في
إسبانيا - اضطهاد اليهود والعبيد في إسبانيا - فرار المضطهدين إلى
الإسلام برغبة - أثر تسامح الفاتحين وعدم ترفعهم عن المخالطة - استعراب
واندماج - نصارى يتلون القرآن - دخول في الإسلام حتى في وقت سقوط
دولته - هزيمة العرب في فرنسا سببت تأخر وصول الحضارة إلى أوروبا
ثمانية قرون - بين وطأة المسيحيين في الغرب ورحمة المسلمين في الشرق -
سلطات وامتيازات لبطارقة المسيحيين في دولة الأتراك - العمى عن الأسوة
الحسنة ! - هو المزاج الغربي الدموي دائماً ! - أمل في رحمة الله !

تاريخ مشرف
لنا وتاريخ غير
مشرف لغيرنا

يصحّبُ نشر الدعوة المحمدية في أوروبا الشرقية وأوروبا الغربية تاريخٌ جدير
بالذكر الحسن، وحقيقٌ بفخر المسلمين، كما يصحّبُهُ، مع الأسف من الناحية
الأخرى، حوادثٌ لا حصرَ لها من أمثلة السوء الدالة على ضيق صدور كثير
من الأوربيين، وعلى التجائم في سبيل تأييد آرائهم الدينية إلى أرداد الوسائل
وأنكر الأعمال !

مزاج قاس
و صدر ضيق

ومع أن الذين رفعوا راية الإسلام في الغرب من ناحية إسبانيا وفرنسا
وإيطاليا، كانوا من العرب والبربر، والذين رفعوها في شرق أوروبا كانوا غالباً
من الترك والتتر، وهم أقوامٌ اشتهرت كلها بالبأس والشدة، فإن تاريخهم
من ناحية نشرهم الدعوة المحمدية، وتسامحهم الديني، هو أظهر ما في صفحات
مجدهم وأحقها بالفخار. وذلك على عكس الأقوام الأوربية؛ فقد كان ينتظم
برّها وفاجرُها في سلسلة الفضائع الدموية التي اقترنت بمقاومة الدعوة المحمدية
والقضاء عليها في أوروبا الغربية والشرقية في مدى مئات السنين.

ومما يصعبُ أن نجدَ له تفسيراً أن القسوة التي كانت وسيلةَ الأوربيين في القضاء على حضارة المسلمين ودينهم في أسبانيا وفرنسا وإيطاليا أو في شرق أوروبا ، لم تتخلَّف عن الظهور بأشنع مظاهرها حتى ضدَّ النصارى أنفسهم كلما وقع نزاعٌ حادٌّ على رأيٍ في الدين ، أو دعوة من الدعوات المسيحية ، أو ضدَّ اليهود .

وليست الأقوام الأوربية كلها جنسا واحدا ، ولا من بيئة واحدة ، ولا طبيعة واحدة ؛ فبينها من الخلاف في الجنس واللغة والطبائع ما بين أم الشرق ؛ فإذا وُجدَ إذاً وسائلها ، وجعل الفتك والغيلة والغدر والظلم من أظهر هذه الوسائل لإعلاء دينٍ على دين ؟

وماذا جعل أقواما بادية كالعرب ، وأقواما صناعتها القتال كالترك والتتر والبربر ، تختارُ لنشر دينها الحجة والقُدوة ؛ فلا نجدُ في تاريخ طويلٍ شمل المشرق والمغرب أكثرَ من ألف سنة حوادث دموية تشبهُ عن قرب أو بعد ، تلك الفظائع الساحقة التي تتكررُ على ممرِّ الزمن ، على أيدي الأوربيين في أنفسهم ، أو مع أهل الملل الأخرى ؟ !

مفارقات بين
البدو المسلمين
والحضر
المسيحيين

لا نجدُ لذلك تفسيراً نجزمُ به ؛ فالسيد المسيح ، عليه الصلاة والسلام ، هو ضحية العنف ، ومن خير من دعا إلى المعروف والسلام ، ودعوته تحرمُ الحرب والقتل تحريما قاطعا ؛ فليس دينُ المسيح هو الذي بثَّ روحَ التعصب الممقوت ، ولا هو الذي حوّل مزاج الغربيين إلى مزاجٍ سفاح . . .

المسيح البريء
من روح
التعصب الغربي

أما الدينُ الإسلاميُّ قد أباح القتال ، وظهرت دعوته في العالم مصحوبة بتلك الفتوحات التي لم تقفْ في وجهها شاهقاتُ الهملايا ، ولا شاهقاتُ الأطلس والبرانس والبلقان ، فلماذا كان أصحابه أكثرَ النامس تسامحا مع رعاياهم من أهل الأديان ، وأوسعهم صدرا للعدل والنحل ؟ !

النزعات البشرية
القاسية بين
إطلاق المسيحية
وتقييد الإسلام

لعل السبب بينهما ناشئ من اختلاف النظم الدينية ؛ فإن للمسيحيين
نظاماً إكليزيّاً ، أو بعبارة أخرى كهنوتياً جعل عليهم قواماً من طوائف
رجال الدين .

وكذلك لم تكن المسيحية واضحة في شئون الدنيا ، فتسلطت النزعة
البشرية . أما الإسلام فحرّم هذه القوامة ، ولم يسمح بصلّة بين العبد وربّه
غير صلة الضمير ، وكانت أوامره ونواهيه في شئون الدنيا جليّة . فلعل سيطرة
العنصر البشري على العقيدة هي التي أخرجت هذا الفرق الهائل في مزاج
الأقوام الديني الذي نشهد مظاهره طول الدهر وفي كل مكان .

وأيضاً كان وضوح الأوامر الدينية عند المسلمين ، مما جعل كلا من
الحلال والحرام يتّنا في كتاب مبين . فالخاصة والعامة يعلمون أن الله قد حرّم
عليهم الإكراه في الدين ، ويعلمون أنه يقول لنبيّه « أفأنت تُكِرُّهُ الناس
حتى يكونوا مؤمنين ! » بل إن الدين الذي حرم على أهله سبّ الأديان
الأخرى لا يدع سبيلاً للاضطهاد والظلم . يقول تعالى « ولا تَسُبُّوا الَّذِينَ
يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ
عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

لعل كذلك من أسباب تكوّن هذا المزاج المتسامح بساطة العقيدة
المحمدية ، فإنها تقوم على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسوله ، وأن هاتين
الكلمتين تعصم الدماء والأموال . فلما درج الناس على هذه البساطة وتركوا
ما وراء ذلك لحساب الله ، تعوّدوا التسامح وسعة الصدر ، بعضهم مع بعض ،
ومع من خالفهم من أهل الملل الأخرى .

قد تكون هذه الأسباب ، وقد يكون غيرها علة الخلاف الجوهرى
بين مزاج المسلمين ومزاج الآوريين الديني . وليس هذا مقام سرد تاريخ
طويل لبيان ما نشير إليه من خلاف ، فهو هيّن على من أراد أن يتبين

أثر تركيز الدين
في النظام
الكهنوتي

الحرية في فهم
القرآن لدى
المسلمين والقيود
في فهم الإنجيل
لدى المسيحيين

الحلال والحرام
بين في الإسلام
لدى الخاصة
والعامة

أدب القرآن مع
الخالقين

بساطة الدخول
في الإسلام تعصم
الدماء والأموال

الحقّ، ولكن قد يحسن سوق بعض الشواهد :

لما دخل العرب إلى إسبانيا كان جمع طليطلة السادس قد قرر أن يُقسم الملك عند تولّى سلطتهم أن لا يُطبقوا في ملكهم من لا يتمذهب بمذهب الكاثوليك، وأن ينفذوا القانون بكل شدة على من يخالف. وكان من ضمن هذه القوانين السجن المؤبد مع مصادرة الملك لكل من يفكر في مناقشة أوامر الكنيسة، وتعاليم الكشركة. ويقول (بودسين) « كان للإكليروس السيطرة التامة على شئون الدولة ؛ فضلا على ما للأساقفة من رأى نافذ في جميع مجالس الحكم ؛ قد كان لهم حق التصديق على انتخاب الملك وحق خلعه إذا خالف ما يرسمون من قوانين. ولقد اتخذ الإكليروس من سلطانه سبيلا لاضطهاد اليهود الذين كانوا عنصرا مهما في إسبانيا » ويقول (هلفريخ) « إن أوامر وحشية صدرت لتعميد من يأتى الارتداد عن دينه من اليهود، فلما وصل العرب تلقاهم اليهود بالترحيب الذى يستحقه المنقذون، وكذلك فرح العبيد المنتصرون لقدم العرب فرحا شديدا، فأخذ المضطهدون يدخلون في دين العرب أفواجا، بل أخذ النبلاء والعامة يُقبلون على الدعوة الجديدة الحرّة ». ويقول السيرتوماس أرنولد. « لقد أصبحت الطوائف الكثيرة التى اعتنقت الدين الإسلامى مختارة، من أشد أنصاره تحمسا وأظهرها زهدا؛ فكانوا يمثلون الطهر والتقشف، حتى صار الفرق بينها وبين الأرستقراطية العربية التى مالت للترف واضحا ».

من تاريخ تعصب
المسيحيين في
إسبانيا

اضطهاد اليهود
في إسبانيا

فرار المضطهدين
إلى الإسلام
برغبة

ولم يسمع في أيام الفتح العربى بأية محاولة من الفاتحين للإكراه في الدين، أو الاضطهاد والظلم لتغيير العقيدة. ولعل السبب الأول في امتلاكهم السريع لهذا الجزء من غرب أوربا هو سعة الصدر والتسامح الذى كان ديدنهم. كما أن تسامح الحكام بما أباحوا من الحرية الدينية للمسيحيين واختلاطهم بهم وتزواجهم معهم، أدى إلى تعريب واسع للعناصر المسيحية،

تسامح الفاتحين
وعدم ترفعهم
عن المخالطة

فاتخذ كثيرون من النصارى أسماء عربية ، وتختنوا كجيرانهم المسلمين .
وتسمية المسيحيين الذين في حكم العرب بكلمة (Mzarabe) أى مستعرب ،
تشير إلى الاتجاه الذى اتجهت إليه جماعتهم . ولقد بلغ من إعجاب النصارى
المستعربين بلغة القرآن أن صاروا يتلونه ويُعجبون به ، بل لقد بلغ أثر هذه
الدعوة إلى رؤساء الكنيسة نفسها ، فتلقحت أفكارهم في إسبانيا وخارجها
بالنظريات الإسلامية . كل ذلك يفسر لنا ما كان للمثل والقُدوة مع نشاط
الدعوة من الأثر في خروج المسيحيين عن دينهم ، حتى صارت الأثرية
الكبيرة للإسلام في زمن قصير .

استعرب
واندماج
نصارى يقرءون
القرآن

وقد بلغ من أثر القدوة الحسنة والدعوة بالحكمة أن المسيحيين لم ينقطعوا
عن الدخول في الإسلام ، حتى وأهله يرسفون في المظالم الوحشية ، فيُشردون
ويُقتلون ويهجرون من أوطانهم . ومن أغرب ما روى في ذلك ما ذكره
(سترلنج ما كسويل) عن حوادث ١٤٩٩ ، أى بعد سقوط غرناطة بسبع سنين ؛
فقد أشار إلى مسلمين جدد دخلوا في الإسلام وهاجروا في جموع الفارين
من السيف والنار .

دخول في
الإسلام حتى
في وقت سقوط
دولته

وليس المقام مقام تفصيل ، وإنما أردنا الاستشهاد لسيرة كريمة معترف
بها من جمهور المسيحيين عن حكم العرب في غرب أوروبا ، وما تمتع الناس به
من حرية العقيدة ، وما كسبوا من علم وعرفان وحضارة في ظل الآداب
والأوامر والنواهي الإسلامية . ولقد بلغ من اعتراف المنصفين بهذه الحقيقة
أن أحد المؤرخين قال عند ذكر واقعة (بواتيه) التى قتل فيها (عبد الرحمن
الغافقى) وفازت جيوش (كارل مارتل) على العرب في غرب فرنسا : « لقد
كانت هزيمة العرب سببا في تأخر وصول الحضارة لأوروبا ثمانية قرون ! »
فازت جيوش الهمج من الأوربيين على العرب في القرن الثامن فأخترت
الحضارة ، وفاز الغلاة المتعصبون من الفرنج مرة أخرى فوزا ساحقا في القرن

هزيمة العرب في
فرنسا سببت
تأخر وصول
الحضارة إلى أوروبا
ثمانية قرون

بين وطأة
المسيحيين في
العرب ورحمة
المسلمين في العراق

الخامس عشر، فقصوا على العرفان والحضارة. وفي الوقت الذي كانت محاكم التفتيش وسيوف الدولة تسوق إلى المذبحة أو إلى البحر رُسُل الحضارة في الغرب، وتُخلى أوطاناً بأكملها من أهلها، وفي الوقت الذي تسقط فيه غرناطة ويمحي أثر مائتي ألف مسلم بها، وجلهم من أهل إسبانيا نفسها ومن عنصرها الأصلي ذبحاً وطرداً وتشريداً، كانت جيوش الإسلام الظافرة تحت راية أخرى تفتح الممالك الأوربية الشرقية، فيستظل المسيحيون بظل العدالة الجديدة، وينعم الناس بحرية الضمير وحرية الأديان.

سقطت بزنطة مركزُ العداوة للمسلمين، ومبعثُ العواصف على الأوطان الإسلامية مدة ثمانين قرون، فما استبيحت الحرمات الدينية، ولا تسلط الفاتحون على العقائد والأديان، ولا طرد الناس من أوطانهم وخوسبوا على نيّاتهم وضمائرهم.

ولندع الكلام للمؤرخين المسيحيين: فرنز، وفنلي، وبتزيوس، ودهسون، كما لخصه أرنولد: « كانت أولى الخطوات التي اتخذها (محمد الثاني) بعد الاستيلاء على القسطنطينية أن طمأن المسيحيين بالتعهد بحماية الكنيسة الأرثوذكسية، ومنع منعاً باتاً اضطهاد النصارى، وصدرت الإرادة السنيّة بأن يكون للبطريق والأساقفة في النظام الجديد جميع الحقوق والامتيازات التي كانت لهم في النظام السابق للفتح، واستلم البطريق (جناديوس) من يد السلطان الأداة التي كانت شارة ولايته، ومعها ألف قطعة من الذهب وحصان مطهّم بمدة فاخرة ليركبه في موكبه في المدينة. ولم يهب السلطان لرأس الكنيسة المسيحية الامتيازات التي كانت له في عهد الإمبراطور المسيحي خُسب، بل مكّنه من سلطة مدنية واسعة على الرعايا المسيحيين؛ فكان مجلس قضاء البطريرقية هو الذي يفصل في منازعات المسيحيين ويقضي بالقرامة والحبس والقتل،

سلطات
وامتيازات
للمسيحيين في
دولة الأتراك

في نظام الدولة
العثمانية
في عهد محمد الثاني

في عهد محمد الثاني
في عهد محمد الثاني
في عهد محمد الثاني

وكانت حكومة السلطان تنفذ ما يقضى به مجلس البطريكية . فكان للبطريرق السلطة المطلقة في الشؤون الروحية ، ولم تتدخل قط في هذه الشؤون السلطات المدنية الإسلامية ، كما كانت تفعل المسيحية ، قبل الفتح . ولما كان البطريرق معتبرا من كبار رجال الدولة في نظر السلطان ، ومعتزفا به ، فقد كان له أن يتدخل لرفع الظلم الذي يقع من بعض الولاة على النصارى باتصاله مباشرة بالسلطان ، وكان للأساقفة في الولايات من الحرمة والسلطة مثل ما للبطريرق في العاصمة ، حتى انتهى الأمر إلى أن صاروا في مناطق سلطانهم الديني كأنهم مأمورو الدولة وولايتها ، فخلوا محل الأرستقراطية البيزنطية التي انقرضت بسقوط دولتها .

العمى عن
أسوة الحسنه

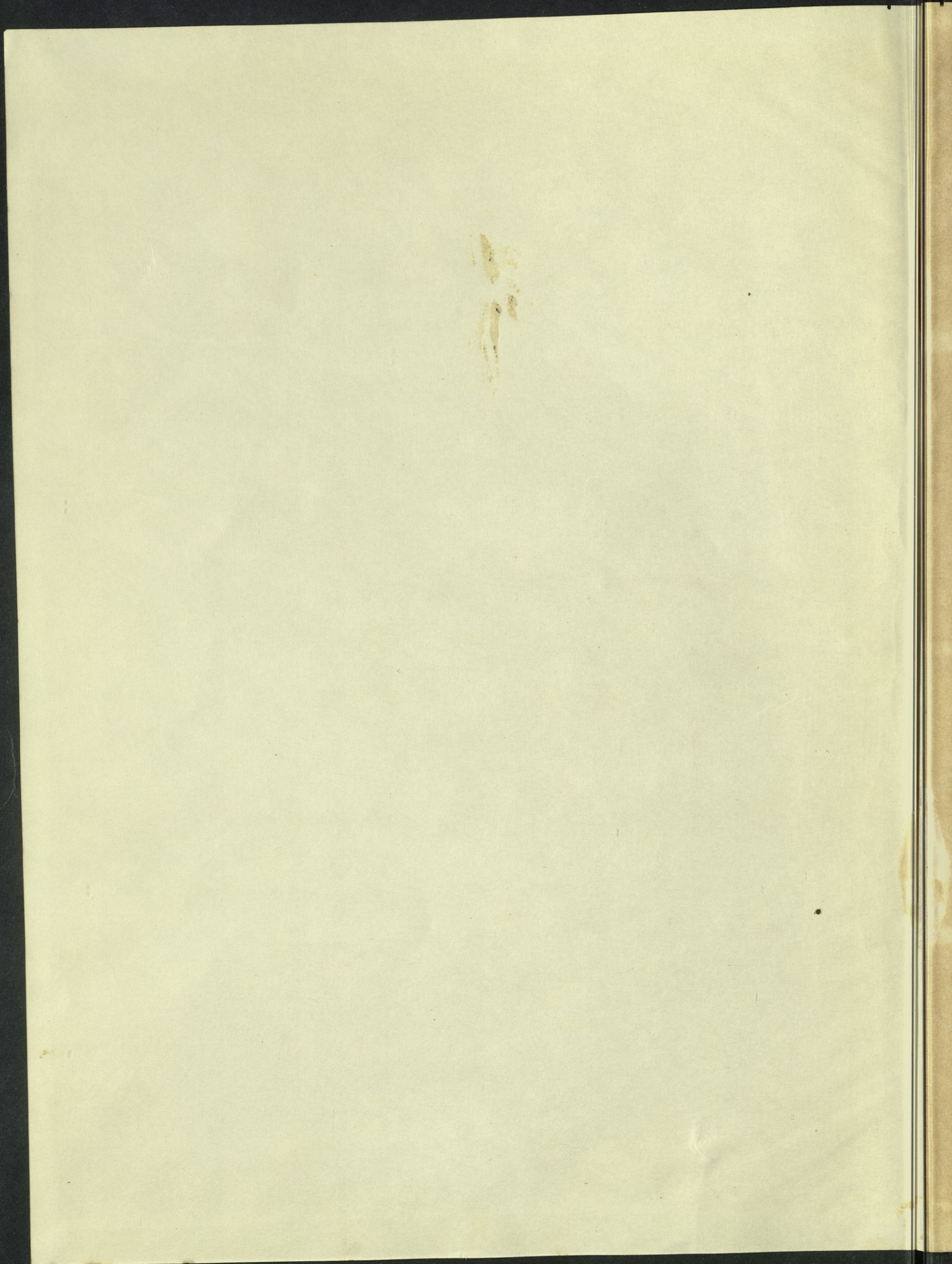
ذلك ما فعل المسلمون في المشرق ، وقد سقطت غرناطة للإسبان بعد سقوط القسطنطينية للترك بأربعين سنة ؛ فهل كان للفرنجية فيما فعل المسلمون أسوة ؟ وإذا لم يكن لهم في الماضي الطويل من التسامح المنقطع النظير ، ما يوجههم وجهه الإنصاف والرحمة ، فلم لم تكن لهم عظة فيما بين أعينهم من مثل عال ؟ كان ذلك كما قلنا سابقا ، لأسباب عدة أشرنا إلى بعضها ، وقد يستطيع غيرنا أن يبين أسبابا أخرى . وهي في نظري ليست في طبيعة الدين المسيحي ؛ فإن سيدنا عيسى ما جاء إلا رحمة للعالمين .

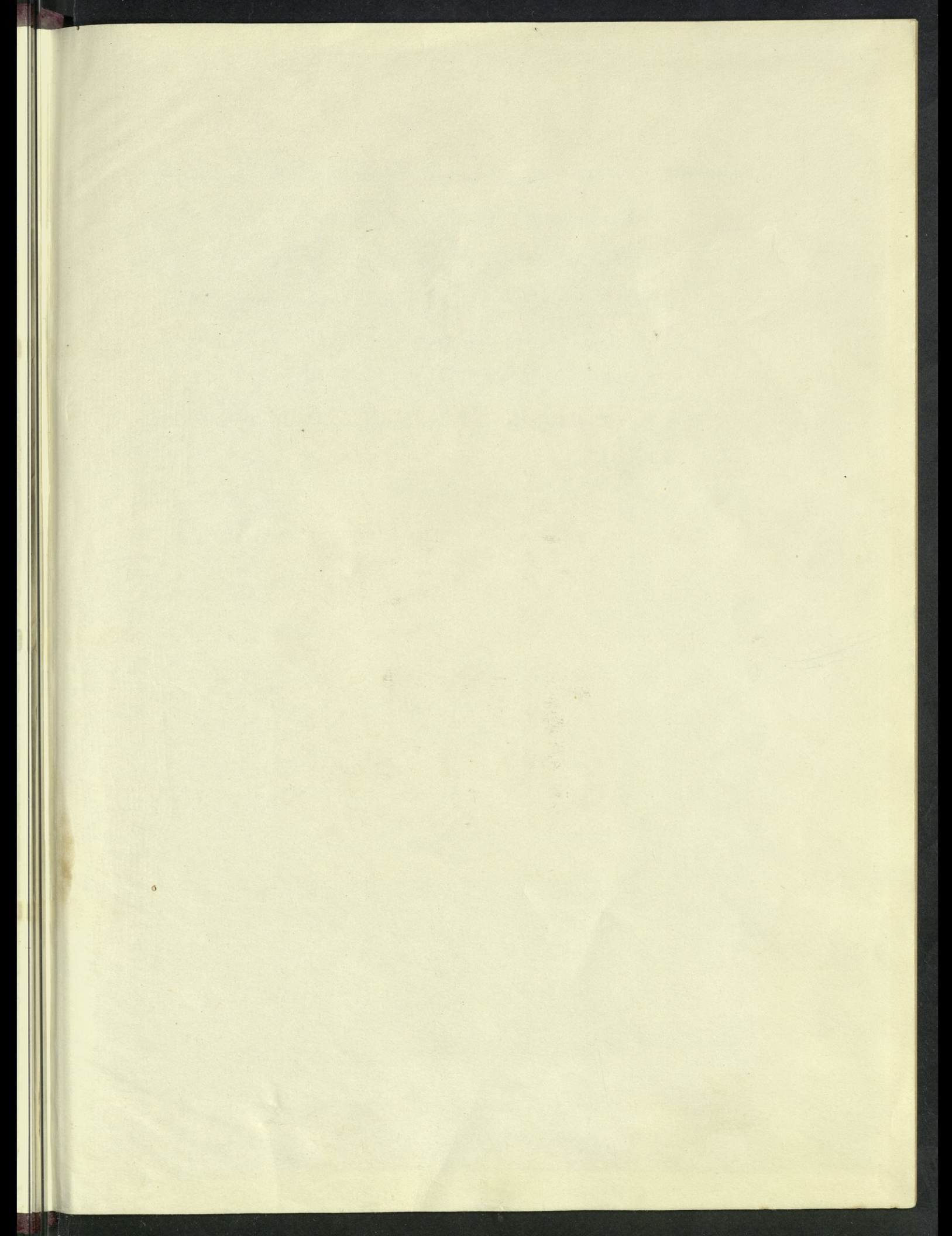
هو المزاج الغربي
الدموي دائما

• وإذا كانت كل حوادث التاريخ تُشير إلى أن المزاج الغربي ينجح دائما إلى القهر والتدخل في شؤون الغير الروحية والمعنوية تدخلا ينتهي بالمظالم والإسراف في سفك الدماء ، فليس من الغريب أن نرى في الحرب الأخيرة والتي قبلها من مظاهر هذا المزاج صورا من الماضي ، وقد حل النزاع الأيديولوجي (الفكري) في هذا القرن محل النزاع الديني في القرون الوسطى .

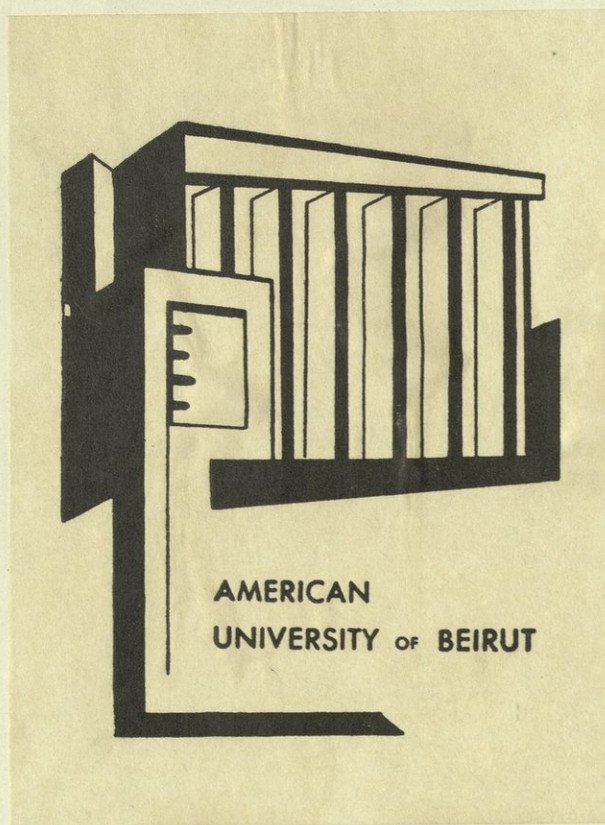
أمل في رحمة الله ! « وبعد » فهل يُكْتَب لسكان الشرق من المسلمين والمسيحيين الذين
تتعلّق نفوسهم دائماً برحمة الله وتترقّب هُداً إذا اشتدّت الكُروب
والظلمات ، أن ينهضوا مرة أخرى بميراثهم السامى الذى يُقَوِّم من عوج
النزاع الفكرى والاقتصادى والعنصرى ، ويلطّف من حدّة المزاج الغربى ،
حتى يؤمن بالأخوة الإنسانية ويعمل لخدمة السلام العام بإخلاص نية وحسن
توجّه ، بما مكن الله له فى الأرض ؟

ذلك ما نسأل الله رب العالمين أن يعجّل بتهيئة أسبابه . « إن الله بالناس
لرؤوفٌ رحيم » .





297: A99rA:c.1
عزام ، عبد الرحمن
الرسالة الخالدة
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01802715



297
A991rA
1946
c.1